رواية

دماء ملعونة

أنت السبب في هلاكك

#غرّد_للعالم

رئيس مجلس الإدارة

م/ أحمد عبد العزيز

المدير العام

أ/ رشا العمري

الطبعة الأولى

سبتمبر ٢٠١٨

اسم الكتاب: دماء ملعونة
تأليف: محمد كمال
تصميم الغلاف: مصطفى فكري
التنسيق والإخراج الداخلي: أحمد شعبان الكاشف
مراجعة لغوية: أحمد شعبان الكاشف
رقم الإيداع: ١٥٠٦٦
الترقيم الدولي: ٢-٠٧-٦٦٣٩-٩٧٧-٩٧٨
دار تويتة للنشر والتوزيع
٧ شارع محمد أبو العطا- محطة العريش- فيصل- الجيزة
هاتف: ٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩ / ٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦
البريد الإلكتروني:tweetpublishing2017@gmail.com
الموقع الرسمي: www.facebook.com/Tweetforpublish

- جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة سواء ورقية أو الكترونية سيعرضك للمساءلة القانونية.
- هذه النسخة للقراءة الشخصية فقط ولا يجوز إعادة طباعتها أو نشرها إلا بعد حصول على إذن كتابي من المؤلف.

إهداء

يا كل روح ثائرة.. احذري أن تخور عزائمكِ، وإن طالتكِ الهزيمة ألف مرة، ينتظرك انتصار عظيم في مشهد يوم عظيم.

يا كل روح عادلة.. لا تتوقفي ولا تقنطي، لسوف تنصفك عدالة السماء، أبى من أبى وشاء من شاء.

يا كل روح ظالمة.. حسبي أن أدعو عليكِ، لكني سأدعو لكِ بالهداية والمغفرة.

يا كل روح متخاذلة.. بعيدة أنتِ عن الشرف بعد السماء عن الأرض، شرفك الوحيد أنكِ ذُكرتي هنا.

إلى تلك الأرواح التي تعمل في الخير وللإنسانية، خلف الستار والمصابيح مطفأة، لا ترجو بذلك مدحًا أو مجدًا.. أهدي روايتي الأولى.

الفصل الأول

ـ ١ ـ

القهر

ينظر بوجوم للجنود المتحجرة قلوبهم، يرقب تصرفاتهم الشائنة بعينين مستكينتين، تنحدر الدموع على وجنتيه فيمسحها بطرف كمه، ووجهه صوب الجنود وعيناه تريا ولا تريا، ثاقبتان تكادان تخترقان الجنود زائغتان وغائرتان تكادان تختفيان داخل رأسه، يطل من نافذته بصبر نافد، يريد أن يحطم زجاجها ويخلع حديدها من مكانه ويخرج من المنزل القابع بداخله، فقد كان يتوارى عن عيون الجنود، وكانت فكرة واحدة تسيطر عليه، هي أن يهرول نحوهم ويكر ويفر عليهم فيمزقهم بسيفه، لكن الشجاعة ليست كافية والجسد لا يستطع المساعدة والكبر قد نال منه وأورثه الهزالة والمبطئة.

إستمر الحال هكذا طويلًا، جنود الملك تروح وتجيء، تسب وتسلب وتنهك الأعراض وتقتل من يعارض بفظاعة وأمام عيون الأهالي المستغاظة، ثم اتجهوا ناحية منزل متهالك بفعل الزمن ووقفوا قبالته إلا ثلاثة رجال، ترجلوا عن خيولهم واختفوا بداخله ثم لم يلبثوا أن ظهروا ومعهم طفلان وإمرأة، استجوب أحدهم وكان قائدهم المرأة برفق ينبئ عن غضب آت وهو على صهوة جواده. ولـمَّا لم يأخذ منها إجابة شافية، احتقن وجهه واتسعت عيناه كمدًا وتغيرت نبرة صوته التي لم تكن رقيقة ولكنها لم تكن تخيف إلى نبرة خشنة أرعبت المرأة. وأمر جنديان أن ينزعا عنها ثيابها ويسحلاها ومن ثم يفعلا معها ما يفعل الرجل مع زوجته، أمام أنظار أطفالها وأنظار العيون الشاهدة على الحادثة من خلف النوافذ ومن فوق أسطح المنازل.

ومع اختلاط أصوات نحيب أطفالها مع صراخها بالإستغاثة وقعت الواقعة وخسرت الأم المعركة مثلما خسر جيش مدينتها حربًا شعواء شنها الملك وجيوشه عليه، وبعدها سقطت المدينة وتم تفكيك الجيش بالكامل كي لا تقوم له قائمة بعد ذلك، ثم لوح القائد بيده وهو يلكز حصانه

ويدور به عائدًا للوراء مشيرًا لهم أن يقتلوا الأطفال أمام أنظارها وقد ارتفع صوتها بالصراخ تستجدي القائد الذي ابتعد قليلًا أن يقتلها ويعفو عنهم لكن إشارته كانت قد لاحت للجنود وقتلوهما.

ثار العجوز وراء القضبان الحديدية وصارت تغلي دماؤه، كور قبضتيه بعصبية وضغط على أسنانه بقوة ورفع إحدى يديه وكاد أن يهشم زجاج النافذة وهو يقطب جبينه ويزم شفتيه، لكن حكمته طغت على ثورته وأحكمت جماحها فتوقفت يده في الهواء ثم وضعها على جبينه الذي تصبب عرقًا وظل صامتًا يتابع الأحداث بنفور وشعور بالعجز والجبن يستبد به وهو يتحسر على ما كانت عليه المدينة من عزة وازدهار وما آلت إليه من ذل ودمار، ثم جلس يبكي وصورة المرأة الضعيفة تحضر في ذهنه وهي تصرخ وتستغيث دون طائل وتستجدي القائد أن يعفو عن أطفالها، ويستذكر أنها قبل دقائق وقفت مستكينة كالمخدَرة مستسلمة للسياف وهو يطيح برأسها بعد أطفالها، فقد غابت عن الوعي وهي مستفيقة، ماتت وهي حية، فمقتل أطفالها قتلها قبل سيف الرجل.

فر زوجها للصحراء وقُتلت هي وأطفالهما. ربما سيعود زوجها يومًا فلن يجدهم فتجتاحه الحسرة والاشتياق والشعور بالذنب ويجرحه الفراق حتى يموت من أثر الجرح الغائر المميت. ولربما سيمقت ذاته على تصرفه إزاء مدينته، ألقى بنفسه وبأهله للهلاك في سبيل الحرية دونما أدنى تغيير، فما زالت البلاد محتلة والناس صامتة راضية بالمذلة.

بعد أن انتهى القائد والجنود من أمر المرأة وطفلاها أضرموا النار في المنزل وعادوا أدراجهم بلا مبالاة وببرود، اعتيادهم على مثل تلك الأمور جمد لديهم أي مشاعر رحمة ورأفة. هم ينفذون أوامر قاداتهم برضى بالغ، حتى أن إحساس الندم بعد كل فعلة تخجل لا يطرق أبوابهم، ربما كان يزورهم في بادئ الأمر، أما الآن فقد اعتادوا والاعتياد يجعل الأمور أسهل ويوقف التفكر فيها.

تناهى للعجوز صوت طرق أياد على الباب، كان جالسًا على الأرض ومستندًا إلى الجدار ومنكس الرأس تائهًا في صحراء الخيبة المقفرة.

رفع رأسه ببطئ من دون أن يحرك جسده وأخرج تنهيدة عميقة، هاله مشهد الإغتصاب والذبح والحرق فخدر أوصاله وكبل أعضاءه فلم يقو على النهوض في بادئ الأمر ليستطلع الزائر ويستقبله إلا أنه تحامل على كل ما يلم به ووقف مستندًا إلى الجدار واتجه ناحية الباب يترنح كالسكير -أسكرته صور الظلم الذي صاروا يبيتون ويستيقظون عليه- وما إن شرعه حتى انسل شاب بسرعة وصفق الباب خلفه وأمسك بيد العجوز الذي تنحى جانبًا ليفسح مجالًا للشاب المندفع ليمر بعدما رآه يشق طريقه للداخل مثل الرصاصة التي يطلقها جندي غاضب على أعدائه وسحبه ورائه ليبتعدا عن الباب ويكونا في مأمن، بدا على العجوز الدهشة ثم بدا له أن لدى الشاب كلمات خطرة يريد أن يقولها ويخشى أن يسمعها جنود الملك المنتشرون هنا وهناك فبادره بالكلام:

— ماذا تريد؟

انتظر العجوز قليلًا إلى أن جاءه الرد من الشاب، فقد مال الشاب بجذعه للإمام مطرقًا رأسه وممسكًا ركبتيه براحتيه وهو يلهث، بيدَ للعجوز أنه كان يهرول وأنه متعب فتركه يأخذ نفسه ولم يتعجله بالإجابة.

بعد بضع ثوانٍ اعتدل الشاب في وقفته وقد هدأت أنفاسه ثم ازدرد ريقه وقال للعجوز بخجل:

— عذرًا يا سيدي أبا منجد اغفر لي مجيئي بغير استئذان وطرقي على باب منزلك بعنفوان.

رمقه أبا منجد بنظرة شفقة وقال بشيء من خوف يريد به الإطمئنان:

— لا عليك أيها الشاب، قبل أن تخبرني ما تريد أن تخبره، أمتأكد من أن لا أحد يراقبك؟

— هل.. هل رآك أحد جنود الملك وأنت تدخل هنا؟

تمالك الشاب نفسه وضغط على صدره براحته ليضبط أنفاسه وهو يشير بالأخرى بثقة:

– إطمئن.. لا تخشى من هذا الأمر، فلقد انتظرت مليًا وتريست حتى تأكدت من أن الطريق خالٍ منهم.

تنفس أبا منجد بعمق وقال بارتياح:

– حسنًا.. إذًا هات ما عندك.

جلس الشاب على كرسي في مواجهة الأريكة التي جلس عليها أبا منجد ثم قال بلباقة كأنه أعد كلماته جيدًا ليلفظها بهذه البراعة:

– أظنك يا سيدي شاهدت ما حدث لزوجة حارثة قبل ساعات وآلمك ما رأيت كما آلم الجميع، أو بالأحرى آلم الأحرار والحرائر، وكما تعلم أنهم قُتلوا نتيجة صمتهم، فلقد استنفد قائد الجنود جل طاقته وهو يستجوبها، تعلم كما نعلم جميعًا أنه كان يريد منها أن تشي بزوجها حارثة بعد أن قتل جنديًا من جنوده وهرب للصحراء.

كان أبا منجد يهز رأسه بالإيجاب وهو مغمض العينين وما إن انتهى الشاب من حديثه حتى قال:

– نعم نعم، لا أريد تذكر ما حدث، أكمل من فضلك.

نظر الشاب للعجوز نظرة تحد وقال بثبات وثقة كالأبطال:

– لا بد أن نفعل شيئًا يا سيدي، لا حل غير الثورة.

تمعن أبا منجد في وجه الشاب وسرح قليلًا، رأى في وجهه الثائرة ملامحه، شابًا فتيًا يمتطي حصانًا قويًا، يصول ويجول ويقتل في الأعداء، تذكر شبابه وما فعله في جنود الملك الذي ورث ابنه الحكم من بعده، كان هو والكثيرون معه يدافعون عن مدينتهم بشتى الطرق ومختلف الأسلحة ولم يسمحوا للملك السابق أن يهزمهم ويطيح بملكهم ومملكتهم، لكن ماذا حدث؟ لماذا سارت الأحداث على هذا النحو القاسي؟

كبر في العمر وكبروا من معه فانتهى كل شيء! أليس في المدينة شباب؟ أين الرجال وأين أين الكرامة؟.

– يا سيدي أبا منجد.

أعاده صوت الشاب الواقف أمامه لواقعه، أزاح عنه صور من الماضي وقطع حبل أفكاره وتخميناته، فنظر له نظرة رفق ممزوجة بإعجاب، فلقد ظن كثيرًا أنه انتهى زمن الشجعان وشعر بالشجاعة وأن التاريخ يعيد نفسه ويجب عليهم المقاومة كما فعلوا في سابق عهدهم، لكن شعوره بالشجاعة ما لبث أن فارقه لأسباب كثيرة ومنها أن الزمن لم يعد هو الزمن وأن للعمر كلام آخر، كما أن جيش الملك لديه القوة والأعداد وتنوع السلاح واختلاف العتاد وأن شعبهم المكبوت المغلوب على أمره بات ينشغل بهم قوته فقط، وقد نسي أمر الجهاد منذ أن دخل جيش الملك البلاد.

اعتدل في جلسته ليستعري انتباه الشاب وقال بنبرة دافئة:

– لا.. ليست الثورة هي الحل يا بني، أريد منك أن تخمد لهيب ثورتك أنت وتطوي صفحة الجهاد.

هز الشاب رأسه بدهشة وقال وهو يرفع حاجبيه:

– عذرًا يا سيدي في الآتي.. ماذا تقول؟ لا أصدق ما تسمعه إذناي!.

إمتقع وجه العجوز قليلًا وهو يتأمل نظرات الشك التي يطلقها الشاب كما لم يخف عليه أنه ينعته بالخائن بين نفسه، فأراد لهذا الشك أن ينجلي ولهذه الملامح العابسة أن تتغير، فقال:

– إسمع يا بني، لقد كنت مثلك في الماضي وأكثر، لا أعتقد أنك تجاريني في القوة والشجاعة، في سابق عهدي طبعًا، وأجزم على أنني الآن أكثر منك رغبة في الإنتقام وتلفني الحماسة من كل مكان، لكن العقل قرر أن يتبع سبيل آخر غير الثورة والحرب، لقد فكرت طويلًا وحتى قبل أن أرى ما حدث لعائلة حارثه.

قطع الشاب حديث أبا منجد بملامح الإستفهام التي بدت على محياه فصمت أبا منجد قليلًا ثم أخذ الشاب من يده وجعله يطل من النافذة.

– ماذا ترى؟

أطل الشاب برأسه وأمعن النظر.

– ظلام في كل مكان.

ربت أبا منجد على كتفه وقال:

– وماذا أيضًا؟

نظر الشاب إليه ثم أعاد نظره للشارع المعتم.

دقق النظر فلم يرَ ضوء نار المشاعل يتسرب من النوافذ أو يسمع وقع خطوات تروح أو تجيء فقال بعدما أدار رأسه للعجوز ونظر في عينيه:

– الشوارع مقفرة والنوافذ مغلقة.

أخذ أبا منجد نفسًا عميقًا من فمه وأخرجه من أنفه ببطئ وهو يزم شفتيه ويهز رأسه نفيًا ثم قال:

– الناس لا تريد الحرب يا بني، إنهم يفرون من مواجهة أنفسهم بعيوبهم وحقيقة ضعفهم وجبنهم، فضلًا عن مواجهة الملك وجيوشه، كان من الممكن أن أوافقك الرأي الذي يقول أن الثورة هي الحل، إن فعل غيرك ما فعلت، إن اقتحم داري الكثيرون من أمثالك، إن اهتم الناس بالقضية وعملوا لها، لكن البطون ما عادت تُخرج إلا الضعفاء، صار لا يفكر الرجل إلا في عمل يسد به رمق أسرته وتنشغل زوجته بهذا الأمر، حتى أنها تحمل جنينًا يراقب تصرفاتهم، فيخرج للدنيا حاملًا هم معيشته وإعالة أسرته، كيف تريد من كادح جوعان أن يحمل سلاح؟ إن عرضت هذا الأمر على الناس لأكلوك لكي يقدروا أن يحيوا قليلًا ليستوعبوا ما تقول.

غاص أبا منجد في بحر ذاكرته السحيق وراح يقص على الشاب أسباب ضعف ملكهم الذي قُتل وجيشهم المنتهي الذي هُزم، أخبره أن من أهم أسباب سقوط أي مملكة هو الظلم، فعندما طغى ملكهم والحاشية من حواليه وجنوده وتسرب الظلم بين جموع الشعب حتى صاروا يقتتلون فيما بينهم ويتصارعون على الظفر بالسلطة والمال حتى تفرقوا ثم ضعفوا ثم انتهز المتربصون

الفرصة وانقضوا عليهم كالوحوش الجوعى وأمسكوا بزمام الأمور وأرادوا الإنتقام من مدينة كانت أبية فصارت مع تقدم الزمن فريسة غضة طرية، راحوا ينتقمون على طريقتهم غير البشرية كوحوش تتصارع في البرية، حتى وصلت بهم القوة والجرأة أن مقتل جنديًا منهم تُزهق مقابله ثلاثة أرواح أثنان منهم طفلان. ويُحرق منزلهم ويعم الخراب على المدينة بأكملها مغبة لمقتله.

تنهد الشاب ولم يجد كلمات يرد بها على أبا منجد فوفر عليه أبا منجد مشقة العثور على كلمات وقال بتودد مصحوب بحكمة ونظرة شرود:

– اسمع أيها الشاب، أخبرتك بأني قد فكرت كثيرًا، لقد توصلت لحل مناسب، بالنسبة لي أراه مناسبًا ولا أدري إن كان سيتناسب مع شاب منتفخة أوداجه مثلك أم لا، أرح نفسك يا بني وارخ أعصابك لتهدأ وتهبط عروقك لتستوعب ما سأقوله.

حينما تنفس الشاب بهدوء وبدت ملامحه مسترخية قال أبا منجد:

– الحل هو أن نرحل.

تحرك الشاب خطوة في اتجاه أبا منجد وإضطربت شفتاه كأنهما تهمسان واتسعت عيناه الدعجوان دهشة وقبل أن ينطق قال أبا منجد بحكمته التي اشتهر بها بعد أن أغلق النافذة وأسند ظهره إلى الجدار وظهرت على ملامحه علائم الحكمة والخبرة:

– نرحل لنأمن ثم نعيد بناء أنفسنا ونعود لأرضنا وقد اتفقنا وقوينا وتسلحنا، غير ذلك فهو مضيعةً للوقت وإهدارًا للدماء وجلبًا للموت.

زفر الشاب ثم تنفس بهدوء وقد بان عليه الرضا والموافقة على ما قاله أبا منجد. سيتذكر بعد سنوات موقفه إزاء الرحيل ودهشته من قرار أبا منجد، سيعتقد أثناء ذاك الموقف أن الرحيل خير سبيل للخروج من مأزقه. تحسس سيفه بيد ومسح بكف يده الأخرى جبينه من العرق، فقد تحمر وجهه وهو يستمع لكلمات أبا منجد بتعصب وحنق إلى أن فهم ما يرمي إليه فهدأ قليلًا وقال بإذعان وإعجاب:

– ليس عبثًا أن يطلقون عليك يا سيدي لقب الحكيم، فلقد تأكدت اليوم من حكمتك ونفاذ بصيرتك، إذا لا داع لهذا السيف من الآن.

ربت أبا منجد كتف الشاب وأخبره أن يترك سيفه في غمده وأن يتصرف بشكل طبيعي إلى أن تحين ساعة الرحيل، بما أن الملك لم يصدر أمرًا بحظر السلاح عن الأهالي فحمله لن يشكل خطورة وليبق كل شيء كما هو حتى لا يشك أحد في تصرفاتهم وفي اللحظة المناسبة سيطلب أبا منجد من الجميع بعد الإنتهاء من الاتفاق على الرحيل أن يجمعوا ما يستطيعون حمله من السلاح ليأخذوه لرحلتهم المجهولة له حتى الآن.

قبل أن يتجه الشاب صوب الباب بعدما استأذن بالذهاب استوقفه أبا منجد ونظر من النافذة ليتأكد من أن الشارع خالٍ من الجنود.

– لا يوجد أحد، عليك أن تتحرك الآن قبل أن تبدأ الجنود بمداهمة المنازل فيرونك عندي ويبدأ سيل الأسئلة في الهطول ولا تنسَ ما اتفقنا عليه.

– حسنًا.

– بالمناسبة، ما اسمك؟

– عمرو.. عمرو بن ميمون.

تبسم أبا منجد وهو يقف عند الباب يتابع حركته الرشيقة وهو يبتعد بخطوات سريعة ثابتة ولا ينظر خلفه، كان قد اتفق معه على أن يزور المنازل في وضح الصباح حتى لا يشعر أحدًا بأن حركة غريبة تسري خلال الليل، فيتابعه أحد الجنود ويكتشف أمره وتضيع خططهم هباء، ولكي تبدو زياراته طبيعية.

في الصباح كان عمرو يخرج من منزل ويدخل غيره، يسير بمرح، يمزح مع من يقابله ويقف مع هذا يحادثه ويضحك مع ذاك. وحين يدلف للديار ويتأكد من أنه صار في مأمن ومنأى عن كل خطر، يخبر ساكنيها بعد أن يتخير الأمناء منهم والشرفاء بخطة الجلاء. جلاء؟!. هكذا تعجب عمرو عندما نطق بها أبا منجد.

– تقول جلاء يا حكيم؟!

– نعم يا بني، أتفهم سبب تعجبك.. إننا نجلوا عن بلادنا مرغمين، فما الفرق بين صاحب الأرض والمغتصب عندما يتركاها عنوة؟ كلاهما يساق سوقًا إلى الجلاء.

كان ينتحي بمن هم أهل للثقة ويطلعهم على الخطة. كان رأي أبا منجد أن يرحل المشهود لهم بالكرامة والمروءة ليضمن نجاح ما خطط له وبني عليه آماله، فعضو واحد من ضعفاء الإرادة ومنحطي القيم إن اندس بينهم فسيكون كالسوسة التي تنخر في عمود خشبي تستند إليه خيمة فتأخذ تنخر وتنخر حتى يهوي وتهوي معه الخيمة فوق رؤوس من فيها.

بعدما تحددت المجموعة التي سترحل طلب أبا منجد متطوع منهم يخرج من المدينة ليستكشف أرض تصلح للحياة على إسلوبهم، كما تعودوا، بين نخل وأشجار وحبذا لو كانت هناك مياه قريبة، ولا بد من وجود مياه. فقام شاب ممشوق القد طويل القامة ونحيل قليلًا ذو شعر قصير أسود وعينين ثاقبتين حادتين وعسليتين، وتبدو عليه علائم الذكاء والحكمة المبكرة والشجاعة والجرأة فوافق الحكيم أبا منجد على الفور وجهزه للرحلة المجهولة.

***

على مقربة من بوابة المدينة ارتفع صوت سمعه الحارسان، إنهما رجلان يتبادلا السباب واللكمات الخفيفة، تنبأ الحارسان بأن هناك معركة بالسيوف أوشكت على الحدوث فهبا لينهياها قبل أن تبدأ مخلفين ورائهما البوابة دون حراسة، ما إن وصلا أرض المعركة حتى تبسم المتشاجران وتبادلا الغمزات التي توحي بأن خطتهما تسير على ما يرام وبدءا باستدراجهما أكثر وهما يصرخان بالأقذع من الكلام ليبعداهما عن البوابة على قدر المستطاع ليتمكن الشاب المتطوع من العبور دون إثارة بلبلة.

عبر الشاب وكان اسمه هذام، يقال بأن أباه أسماه بهذا الاسم تيمنًا بسيفه الهذام القطاع فكان يأمل ويدعو الله أن يكون ابنه شجاعًا مقدامًا مثله ولم يخيب الابن ظن أبيه.

توقف الرجلان عن الشجار فور خروج هذام وهما بالانصراف بعد أول كلمات أطلقها الحارسان لينهراهما ويأمراهما بالكف والذهاب وإلا سيكون مصيرهما السجن.

بعد فترة ليست بقصيرة وصل هذام لمدينته فأطلق صفيرًا قويًا عرفه الحكيم فتحرك ليفتعل شيء يمكنه به من الدخول، تمكن الحكيم من إلهاء الحارسان الذان تبادلا الحراسة مع الآخران ودلف هذام لمدينته وسبق الحكيم لمنزله.

- بشرني.
- فلتبشر يا حكيم، ولنبدأ في الحراك، فلقد عثرتُ على أرض منبسطة، مساحتها ليست بهينة، يصعب على المرء المترجل قطعها إلّا خلال ساعات، تحدها من شمالها غابة كثيفة مليئة بالنخل والأشجار السامقة، ومن جنوبها غدير نهر عذبة مياهه وقد تذوقتها ولمست حلاوتها.

أشرق وجه الحكيم وتهللت أساريره وبعث هذام لفرقة من الناس المتفق عليهم، كما أرسل عمرو بن ميمون الذي دخل عليهما واستمع لنصف الحديث لفرقة ثانية وراح هو بنفسه لفرقة أخرى.

ـ ٢ ـ

الرحيل

اختاروا يومًا فقيرًا من الجنود المتفرقون في أرجاء المدينة، فهذا يوم ذكرى تفوقهم على جيشها واقتحام أسوارها العتية التي استحالت عليهم لسنين، تذبح الذبائح في قصر الملك ويعم الهرج والمرج فيه ويجتمع عدد كبير من الجنود في فنائه يتراقصون ويتسامرون حتى الصباح تاركين المدينة خالية من الحراسة إلا من قليل، حارسا البوابة وحوالي عشرة حراس أمام سور قصر الملك وأعلاه.

تحرك هذام وعمرو بن ميمون ناحية البوابة وانقضا على الحارسان بمباغتة ومهارة فائقة وما إن أعطيا الإشارة للحكيم حتى حدا الجموع الفارة أمامه كما يحدو الراعي الأبل.

بينما وقف هذام وعمرو على جانبي البوابة وهما ينظران لشوارع المدينة وجهة القصر تحسبًا لظهور أي جندي.

عقب خروج آخر شخص وبحراسة عمر وهذام قاما الأخيرين بجر جثث الحارسان خارج أسوار المدينة وأغلقا البوابة من الخارج كي لا يشك الحارسان المتناوبان معهما في مقتلهما ويخبرا قائدهما فيرسل جنوده للبحث عن الفارين، قال الحكيم عندما سأله عمرو:

– وهل تعتقد أنهما لن يفطنا إلى أن شيء غريب يحدث؟

– لا أعتقد.. فالمخمور لا يفكر، وإن رأى وأحس سرعان ما يطرد عنه أي أفكار تعكر صفو مزاجه، إن انبلج الصبح ولم يكتشفوا أمرنا فنحن بأمان.

ساروا بخط مستقيم يسبقهم دليلهم لأرضهم الجديدة هذام، تتسارع دقات قلوبهم لتسبق خطواتهم، تستنفر العبرات في مقلات من ترك له أحد من أهله خلفه وتنحدر مخففة من أحزانه، فالدموع إن خرجت فور تجمعها تريح الفؤاد قبل أن يجثم عليه الحزن كما تمتم الحكيم لنفسه

وهو يجيل النظر للمدينة ولا يدري أن عمرو بن ميمون يسمع تمتمته يومًا ما، في موقف عصيب، سيتذكر عمرو هذه الكلمات وسيستجيب لإلحاح العبرات التي ستتدافع في مقلتيه منتظرة أمر الهطول.

إن الحكيم ليس له أحد بها، بل ليس له أحد على الإطلاق بعدما قُتل ابنه الوحيد منجد ولحقت به والدته من فرط حزنها عليه وبقي هو يجاهد جنود الملك وجنود الحزن من الهطول، لطالما كان صامدًا في وجه الجيش المحتل والدموع.

لكنه عاش سنينًا بها، عانى وفرح وجاهد بعد أن نذر نفسه للجهاد ونسي أمر الزواج مجددًا، ثار حنقًا وتعكر مزاجه وتبددت سعادته وقتما سقطت مدينته وهو شيخًا يناهز الخمسون عامًا وها هو على مشارف الستين وما فتيء المحتلون يتنعمون بخيرات المدينة وينتهكون الأعراض ويسبون الأطفال والنساء.

انظر يا أبا منجد فلربما تكون النظرة الأخيرة.

كان يحدث نفسه وقد إنتابه شعور بأنها ستكون آخر نظرة، فربما مات بالصحراء قبل أن يصل لمبتغاه وربما مات صحيحًا معافى في أرضه الجديدة وربما قد يموت بعد دقائق عندما يتأكد بالفعل من أنه لا يحلم، يتأكد من أنه لا أحد سيوقظه من سبات نومه ويسأله: هل أنت تهذي يا حكيم؟ سمعتك تقول المدينة والحراس والأرض الجديدة والموت. استفاق من شروده بيد قوية لكنها تربت كتفه برفق.

– هون على نفسك يا سيدي الحكيم، فكلنا يتألم لفراق الأرض التي شهدت ميلادنا، لكنك تقسو على نفسك بالشرود المبالغ فيه والتفكير والدموع.

لم يشعر أبا منجد بالدموع التي انهمرت من عينيه وبللت لحيته الكثة البيضاء، وأردف المتكلم:

– ثم إن بكينا جميعنا لا ينبغي عليك أنت أن تبكي، فنحن نستمد القوة منك، اصبر واحتمل يا أبا منجد لنفعل مثلك.

عاد الحكيم من رحلة أفكاره واصطنع ابتسامة صغيرة وراح يزيل آثار الدموع كي لا يراها الراحلون ويبكوا مع أنهم يبكوا، الجميع يبكي، ليس بكاء على فراق الأرض ومن تبقى من أهلهم فقط؛ إنما بكاء على ضعفهم وقلة حيلتهم، على جبنهم وفرهم. لكن أبا منجد فعل ذلك بل هو من اقترح، إذًا هذا هو الصواب، الرحيل خير بديل.

عزوا أنفسهم بتلك الكلمات وانشغلوا بالطعام والشراب بعد أن استراحوا قليلًا من تعب الرحلة، كانوا قد نصبوا خيامهم وعسكروا على مسافة كافية تقيهم شر جنود الملك إن انتبهوا لما حدث، ثم ساروا ثانية وصاروا في مأمن فقد ابتعدوا كثيرًا مخلفين بينهم وبين المدينة المحتلة بعض القرى وجبال وصخور ووديان وصحراء شاسعة.

قطعوا أميال وأميال وتصببت الجباه عرقًا من حرارة الشمس المتقدة، وأصابهم الإعياء الذي يصيب المسافرون وإن كان إعيائهم الحقيقي في قلوبهم، كانت قلوبهم منهكة وحزينة وليس ثمة أرض جديدة ستنسيهم موطنهم، بل إن جميع أراضي الكوكب على مدى اتساعها، لن تسعهم كما وسعتهم أرضهم التي غادروها.

اشرأبت الأعناق ونظرت الجموع ويتقدمهم أبا منجد بعدما مد هذام ساعده أمامه وأشار بسبابته وهو يبتسم:

– هاك الأرض قد ظهرت في الأفق.

إنطلقت الخيول تفرق جمع الرمال وتنثر الغبار خلفها وتسابق الجميع كي يصلوا بابتسامات وصرخات، إنها نشوة اليائس الذي ظهر له أمل جديد، ليست سعادة حقيقية وإن كانت صدورهم تعلو وتهبط فوق خيولهم منتشية وإن كانت الأفواه الفاغرة تصرخ بكلمات تطرب الآذان وإن كانت العيون المتسعة المحدقة تلتمع بالسعادة، فإن القلوب لا تعترف بها، لا يزال الحزن يحرس بواباتها ويحيل بينها وبين السعادة، وإن توقف الحكيم في أي لحظة وأدار خيله للجهة العكسية وأمرهم بالعودة لصرخت مشاعرهم التي هي في القلوب وافتعلت ثورة وانقضت

على جنود الحزن التي تحرس البوابات لتدلف لهم السعادة، ولتقافزوا على خيولهم في سعادة حقيقية تنبع من أغوار قلوبهم.

ما إن وصلوا حتى راحوا ينصبوا خيامهم ويتخيروا أماكن معيشتهم وجيرانهم ووقف هو قليلًا وصمت، ثابتًا في مكانه يدور برأسه يمنة ويسرة وعيناه ترصد كل شيء، كل حركة وسكنة بصورة مشوشة شاحبة، كل شيء باهت أمامه، إلا الحزن فهو واضح وضوح الشمس التي نشرت أشعتها الذهبية في كل مكان ودبت في الجميع الحركة والنشاط عداه هو، لا يزال متسمرًا في مكانه، لا يصدق أنه ترك أرضه وهو الحكيم الذي يعرفه أغلب جيش الملك والملك ذاته، كثيرًا ما قيل اسمه وذاع صيته في المعارك. كان يتأمله عمرو ويدق الأوتاد في صمت ودموعه متحجرة في عينيه.

استراح الكبار والأطفال والنساء وانطلق الشباب يدقون الأوتاد حتى انتهوا وتحولت الصحراء المقفرة إلى ما يشبه السوق، خيامًا منصوبة بعناية وقلوب متقطعة أسيانة وعيون تغطيها جفون منسدلة كي تتوارى خلفها الدموع الحارقة المتجمدة في مقلاتها المتجمعة فقدًا للأرض وللكرامة.

_ ٣ _

الأرض الجديدة

بعد الاستقرار بأيام طلب الحكيم متطوعًا ثانية وكان يأمل أن يخرج له هذام من بين الجموع فهو خير من يقوم بالمهمة التي لا يعلمها إلى الآن غير الحكيم، انفرج ثغره بابتسامة غابت عنه لأيام عندما قام هذام وراح يغدو تجاهه بهمته المعهودة، انتحى به جانبًا وأطلعه على الأمر.

يريد منه أن يذهب للمدينة ويخبر من فيها من ذويهم بمكانهم الجديد ومن أراد أن ينضم إليهم فليأت ومن آثر المكوث فعليه كف لسانه عن الخوض فيما صار وله الأمان وإلا سيصله أحد أتباع الحكيم ويقضي عليه قبل أن تصل جنود الملك للأرض الجديدة، كان لا بد من التهديد بالويل والوعيد، فالمستقبل على كف عفريت ولا يريد أبا منجد تهديدًا بالخراب من الآن.

بعد غياب دام لنهار كامل عاد هذام وبدأ يقص على مسامع الجميع ما صار معه، يحكي عن رحلته وخطورتها بدءًا من الصحراء وانتهاءً بالمدينة وحيرته في كيفية دخولها من دون أن يمسك به الحراس، فلقد تعجب الحكيم والأهالي من أنه ترك الحصان على مسافة ليست بقريبة من المدينة وترجل وسار على الرمال الحارقة وبعد عن البوابة وقفز من فوق السور، لم يكن قفزه بالعسير الآن وهو وحده ويمتلك جسدًا قويًا ورشيقًا ولا يثقله هم حمل سلاح أو اصطحاب طفل أو امرأة أو دابة كما كان يوم فرارهم. وما إن أصبح بالداخل حتى راح يتجول بشكل طبيعي، الآن لا خوف عليه، يدخل المنازل ويقص ما صار ويرغّب في الحياة المستقلة ويهدد الألسنة المستغلة، يحذرهم من التفوه بكلمة واحدة وإلا فسيكون الموت هو العاقبة.

صفق له أبا منجد فتهللت أساريره وخالته نفسه وبراعته، سأله الحكيم:

— ماذا كان جوابهم على نداءاتك لهم يا هذام؟

فقال له:

– لقد كنت محقًا يا أبا منجد، فكما أخبرتنا بأنهم سيرفضون ويفضلون البقاء، إني لأتعجب من أمرهم، كيف يستطيعون الحياة تحت وطأة الطغاة؟!.

اعتدل الحكيم في جلسته فتطلعت له العيون بإمعان واستمعت الآذان بتركيز، فقال بصوته العميق:

– هناك بعض العقول الصغيرة يا بني والقلوب الضعيفة المريضة، يخشون الظالم فيفضلون العيش في كنفه وتحت إمرته على أن يثوروا عليه.

تنقلت أنظار الحكيم حول الجميع وهو يقول بإقتضاب:

– إن لم تثر فأقل ما فيها ارفض، ارحل، وهذا يكون تعبيرًا عن رفضك لوضعك ومن ثم انهض من جديد وعد العدة للعودة أقوى وأعتى.

– أغبياء.

قالها هذام بعد أن صمت الحكيم فعم الصمت المكان وتكلمت العيون، تبادلوا النظرات المتأملة المستغرقة في التأمل حتى هجم الليل وفزعوا للنوم.

مرت الأيام ومعها الشهور وبدأ الجميع بالتكيف على وضعهم الجديد وكل من له أحد ما زال هناك تناساه كما تناسى المدينة، فالذي هناك إن كان يفتقد لوجود من رحل له كان استجاب لطلب العيش معه بعدما أخبره هذام بمكانهم، لكنهم أبوا أن يرحلوا عن المدينة أو أنهم خشوا المجازفة.

أرض جديدة، أناس طيبون ومتفقون ومتحابون، الجميع يعمل بجد وتفان، استصلحوا أرض ورووها من ماء الغدير، زرعوا وحصدوا وأكلوا في سعادة وتضافر، هناك من يصنع القبعات والمقاطف وبعض الحاجيات الأخرى من خوص النخيل وهناك من يعمل في جلب الثمار من أشجار الغابة، لم يحتاجوا لوجود المال فالمقايضة كانت خير بديل وإن لم يقايضوا فلا يضن أحد على أحد بشيء.

كان يمر بين الخيام حين تناهى إليه صوت طرق، ميزه في الحال، إنه صوت ارتطام حديدة بأخرى.

– ماذا تفعل يا رجل؟

توقف الرجل عن الطرق وقال للمتكلم وهو ينظر إليه بسخرية:

– كما ترى، أصنع سيوفًا.

– سيوف؟!، لماذا؟

– أمرك عجيب يا فتى، ألا تعلم لماذا تُصنع السيوف؟

– أعلم ولكني لا أعتقد بأن أحدًا سوف يبتاع منك شيئًا.

ترك الرجل آلة الطرق على الطاولة أمامه وعقد ذراعيه على صدره وقال وهو يرمقه بنظرات حادة:

– ولماذا إذًا؟.

– لأنهم ليسوا بحاجة إليها، إنهم مندمجون مع بعضهم ونحن معهم والضغائن غائبة والكره ليس له مكان.

– معك حق، هذا ما حدث واستمر إلى الآن ولكني لا أتوقع إستمرار الوضع هكذا.

قال الرجل بثقة بالغة:

– إني أراك تهدر وقتك وتنهك جسدك في عمل لن يعود إليك بالمنفعة.

– اتركني فقط وسأريك غدًا.

بارحه الرجل وفارقه وهو يضرب كفًا بكف، بينما استكمل الرجل عمله بكل ما فيه من قوة. بعد ذلك بشهور قليلة تناقلت الناس أحاديث مزعجة، هذا يقول أن فلان سبه بلا داع والآخر يقول بل هو من قام بسبه، وذاك يشكو للحكيم من قسوة غيره معه، وآخر يقول بأن فلان نهبه ثماره الذي استغرق نهارًا كاملًا في قطفه، كلها قصص متداولة ومتداخلة وقد ازدادت

وأخذت في الازدياد إلى أن قرر الحكيم وقف هذه المهزلة وطلب من الناس الاحتشاد ليطلعهم على ما توصل إليه بعد تفكير عميق.

– أيها القوم، يا أهلي وشعبي يا من تعايشتم لشهور في سكينة ولم تعرفوا الضجر يوم، ماذا حدث لكم؟ أليس من أجل هذا تركتم أرضكم؟ عندما أحل الظلم وألم بكم؟ فلماذا تتقاتلون الآن فيما بينكم؟

نظرت إليه العيون المشدوهة في صمت، ومالت الوجوه العابسة وأطرقت للأرض بينما إستطرد هو:

– لقد توصلت لحل أراه مناسبًا، سوف يخرج من كل عائلة فردًا قويًا، شابًا يافعًا وسوف نكّون مجموعة حماية، مهمتها نصرة المظلوم بعد الاستماع لشهادة الإثنين، وإن تبين الظلم وكان بينًا فسيأخذ المظلوم حقه وسيعاقب الظالم، عندما أنتهي من خطابي هذا سنتعاون فيما بيننا ونبني حجرة بأسوار عالية ونافذة وحيدة ضيقة وعليها حديدًا صلبًا وأمامها حارسان من رجال الحامية، سيوضع بداخلها من تعاقبه لجنة المحاكمة التي ستتشكل قريبًا من رجال أشداء مشهود لهم بالصدق وصحوة الضمير والالتزام بالدين، مدة الحبس ستكون محددة بحجم الذنب.

انتهيت من حديثي.

ألج الناس وعم الصخب فصاح بهم الحكيم بصوته الجهوري وهو حانق:

– فلتلزموا الهدوء يا سادة، إنّ هذا هو الأصلح للجميع.

قام رجل وجادل الحكيم طويلًا حول موضوع الحامية والحجرة التي هي بمثابة سجن، فأفحمه الحكيم برد أسكته حيث قال:

– أول ما جئنا إلى هنا كنا نعيش بأمان، نتبادل الطعام والشراب بمسرة وحب ولكن شتان.. شتان بين ما كان وبين ما حل بنا الآن، هل بت تأمن على نفسك وأهل بيتك يا رجل؟.

كان الرجل محدقًا ينظر بعينين مفتوحتين على آخرهما وفم فاغر يتهيأ ليتكلم ويناقش أبا منجد ولكنه فاجئه بسؤاله فلزم الصمت وطأطأ رأسه بعد أن أومأ بها أن لا. لا يأمن على أهل بيته أو نفسه فالسرقة أصبحت كثيرة ولا أحد يعلم من أين تأتي. استطرد الحكيم وقال:

- وبما أنه لا يوجد أمان والظلم انتشر والجور والغش والبهتان، فأنا أرى وأنتم بعدما شاهدت وشاهدتم ما يحدث من تطاول على حقوق الغير والمداهنة وما آلت إليه حالنا، أن من الصواب تشكيل الحامية. من يوافقني فليبق في مكانه ومن لا يوافق فليعود لخيمته.

لم يغادر أحد بمن فيهم الرجل الذي كان يحاوره وكان اسمه سلامة وكان قصير القامة ذو رأس أصلع إلا من قليل وقوي البنية والشخصية، عيناه واسعتان سوداوان ذا لحية وشارب كثان.

- ما اسمك يا رجل؟
- سلامة.
- أخبرني يا سلامة لماذا كنت تجادل الحكيم وأنا رأيتك قبل أيام تصنع سيوفًا، إنك تعلم حق العلم بأن شيئًا غريبًا يحدث الآن في القرية، حتى أنت قد تنبأت به بينما أنا لم أكن أصدق.

اقترب منه سلامة وقال بصوت خفيض بالكاد يسمعه:

- فلتسمع إذًا، لا بد وأن أفعل ذلك حتى أستطيع فيما بعد أن أبيع سيوفي لرجال الحامية، لا أريد أن يعلم أحد بأمرها قبل أن تتشكل الحامية كي لا يأخذوها مني بعد اتهامي بأنني كنت أمارس أعمالًا غير مشروعة، وبما أنها باتت مطلوبة فهي مشروعة.
- لكن كل خيمة بها سيوفًا.
- ليست جميع الخيام، كما أنها بردت شفرتها واهترأ بعضها وصدأت نصولها والأعداد زادت وصاروا يحتاجون لسلاح أكثر.

هز الرجل رأسه ووقف ينتظر ما سيفعله الحكيم وهو يفكر في سلامة السياف وتنتابه فكرة أن يشي به للحكيم، لكنه لم يفعل، ابتسم في خبث وهو يعض شفته السفلى ويزر عينه اليسرى فقد توصل لفكرة جعلته يحجم عن أن يشي بسلامة.

إنَّ هذا الرجل كسول لا يكلف نفسه عناء الصيد من ماء الغدير ولا جمع الثمار من الغابة ولا يتقن عمل الخوص، فكيف سيأكل ويشرب؟ لقد حدث نفسه بعدما انتهى سلامة من حديثه:

- إنها فرصتك يا رسلان، هذا الرجل سلامة داهية، لكني سأستفيد من دهاءه، بدل أني أشي به لا بد أن أستغله لصالحي، فلتهدده يا رسلان بأنك ستفضح أمره أو يعطيك نصف ما يجني من تجارته في السلاح.

أطال الحكيم في وقفته وأجال النظر فدارت بين الجموع المحتشدة أحاديث جانبية وهمهمات فرفع الحكيم صوته فهدأت الحركة وانخفضت الأصوات، راح يمر بين الحشد ويتخير الشبان الأقوياء لتتكون منهم الحامية، كان من بينهم عمرو بن ميمون وهذام.

قبل أن يعلن الحكيم أبا منجد عن تشكيل فرقة الحماية راح رسلان يلكز سلامة حتى انتبه له وتلفت نحوه.

- ماذا تريد يا رجل؟
- أنت تعلم إذًا ما هي عاقبتك إن افتضح أمرك.

ابتلع سلامة ريقه ونظر له وهو يزوي ما بين حاجبيه ويضيق عينيه وقال بنبرة ثقة:

- نعم أعلم.
- وكيف تثق بأني لن أشي بك؟

انتبه سلامة لأمر لم يحسب حسابه فسكت برهة ثم ضحك بمكر:

- ها ها ها، أنت لن تفعل أكيد، أليس كذلك؟
- وما يدريك؟

قال سلامة بخبث وهو يبتسم بدهاء ليثني رسلان عما يريد فعله:

– لقد لمحت فيك النباهة مذ رأيتك أول مرة ولا أظنك قد تفعلها.

ضحك رسلان سخرية وقال:

– مخطئ أنت.. بل أفعلها ونصف إلا إذا منحتني نصف ما ستجنيه.

إمتقع وجه سلامة وزمجر في ضيق وضغط على ذراع رسلان وقال بنبرة ثقة لا تخلو من تهديد:

– افعلها إذًا ولتنتظر مني عقابًا قاسيًا.

قرأ رسلان الشر في عينيه المتقدتين التي يتطاير منهما الشرر ولكنه لم يضعف ولم تخفه نبرة التهديد فأكد على كلامه وتحرك باتجاه الحكيم ليخيف سلامة فاستوقفه وأخذ يتودده وقال له:

– موافق ولكن على ربع ما سوف أجنيه.

ابتسم رسلان وأومأ برأسه موافقًا.

انتهى الحكيم من إختيار الفرقة وألقى على مسامعهم خطبة ألهبت حماستهم وأشعلت نار الثورة بداخلهم، ثورة على الجور والظلم.

انفض الاجتماع وعاد كل إلى مكانه، جلس سلامة في خيمته يفكر في أمر رسلان، تداهمه أفكار حول مستقبله وحياته التي هي على المحك الآن، ماذا إن أخذ رسلان ما يريد ثم أبلغ عني؟

حدث نفسه بهذا ثم أخذ يهدئ من روعه حتى يتمكن من التفكير فتوصل لحل جزري وهو أن يقتله، فلا يريد تهديد من الآن. كان الجميع باستثناء قلة قليلة لا يرى أمامه إلى مستقبله، كيف يصنعه ويحميه؟ بأية وسيلة وإن إضطر الأمر لقتل أحدهم. فلقد دنيت أخلاقهم وساءت.

لم يخب ظن سلامة وخرج الحكيم في يوم من أيام شهر كانون الأول –كان يومًا شتائيًا لكنه مشمس بعض الشيء– ونادى في الناس حتى التفوا حوله ثم سألهم إذا كان منهم من يتقن صنع السلاح، فسلاح الحامية ليس كافيًا والموجود بات لا يصلح فهو يريد مجموعة جديدة

من السلاح فعندئذ تبادل سلامة النظرات مع رسلان، اكتسى وجه سلامة بملامح الإعجاب بالنفس والثقة فربت رسلان كتفه بنشوة الظفر، سيحصل على ما يريد دونما جهد يذكر. لا يعلم بأن سلامة يريد قتله.

رفع سلامة يده فأمره الحكيم أن يتقدم الصفوف، ثم طلب منه بعدما استمع له أن يجتهد ويسرع من الإنتهاء من التصنيع وعرض عليه أن يرسل معه من يساعده فانتفض سلامة خيفة من أن يُكتشف أمره وطمأنه بأنه لديه مساعد ماهر وأشار إلى رسلان الذي تلبط في أمره عندما رأي سلامة يشير إليه.

ومن هنا نسي سلامة أمر قتله فلقد أنقذ الموقف بذكاءه ولن يحتاج لسيفه، فلن يشي به يومًا مادام الحكيم يعلم بأنه مُساعده. وإن فعل سيكون بيشي بنفسه أيضًا.

ما إن عاد سلامة لمكانه حتى صب عليه رسلان سيلًا من الأسئلة وجائته إجابات شافية حتى هدأ وسكن وضحكا الإثنان بخبث.

بعد بضعة أيام ذهب سلامة بصحبة رسلان الذي لم يعد يفارقه إلا عند النوم إلى خيمة الحكيم ومعهما لفافتان من القماش تغطيان مجموعة لا بأس بها من السيوف وسنان الرماح وسهام النبال، فأشرق وجه الحكيم ومدحهما ثم أخبر سلامة بأنه سوف يرسل له ثمن بضاعته بعد أيام.

لم يمر إسبوع حتى أرسل الحكيم لسلامة بضاعة وغذاء مقابلًا لسلاحه، كان قد جمعها من الأهالي بعد أن أنشأ ما أسماه بمؤنة القرية، يأتوا الناس للحكيم بما هو فائض على حاجتهم ويقوم الحكيم بدوره بتوزيعه على فقراء القرية وعجائزها الذين لا يقدرون على العمل.

مرت شهور وسنين وهم يعيشون في سلام وأمان بسبب الخوف من الحامية والسجن وتواجد الحكيم بين أظهرهم.

في اليوم العاشر من شهر آيار والشمس تنشر أشعتها في كل مكان والناس تروح وتجيء بأمان وصل القرية عدد ليس بقليل من ساكني المدينة وتبادل المعارف منهم التحية والأحضان، وتناقل

أهل القرية الأخبار بأن الملك هناك قد مرض حتى مات في قصره بينما لم يسعفه أحد، حتى جيشه ورجاله المقربين لم يحاولوا علاجه فقد كان قاسيًا حتى معهم فانحل الجيش المحتل واختلطت جنوده بالناس وعاشوا معهم في سلام، تقبل الأهالي العيش مع الجنود وسمحوا لهم بممارسة الحياة بشكل طبيعي، حتى أنهم وافقوا على أن يزوجوهم من بناتهم، فلقد احترموا موقفهم وما فعلوه مع الملك، واعتبروا ما فعلوه معروف وأرادوا رده بأفضل منه، لكن لم يمض الكثير من الوقت وانتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة التي أودت بحياة الكثيرين فكان الرحيل هو الحل.

عندما اشتدت بهم الأزمة واضيقت الصدور واختنقت الأنفاس تذكروا أن لهم معارف قد رحلوا منذ سنين فقرروا الذهاب والعيش معهم، أخذ المسافرون ما تستطيع الدواب حمله من سلاح وغذاء ومال وانطلقوا في الصحراء ينشدون عيشة هانئة آمنة وصحية.

اختلط أهالي القرية بالقادمين الجدد من معارفهم القدامى وتشاركوا في الطعام والشراب والعمل.

وبعد فترة وجيزة وعندما أرسل الباقون في المدينة فارسًا يتقصى أخبار القرية الجديدة أتوا جميعًا وكان بينهم رجال ونساء الجيش المحتل وقد أصبحوا منهم.

مع تزايد عدد السكان كان لا بد من زيادة رقعة الأرض، تضافر السكان الجدد مع بعضهم وأخذوا يشرعون في استصلاح الأراضي والتوسع بأمر من الحكيم أبا منجد الذي كان يحكم بغير كرسي.

لم تمر إلا شهور حتى قام البناؤون بإنشاء منازل من الأحجار عوضًا عن الخيام التي كانت لا تقيهم خطر الأمطار والرياح، بعد مدة من الزمن تحولت القرية إلى ما يشبه المدينة وتكررت الفعلة، منازل صغيرة تخص الفقراء ومنازل فخمة كبيرة كالقصور تخص الأثرياء، فلقد تغير قانون المقايضة بعد أن جاء باقي من كانوا في المدينة الخربة وصاروا يتعاملون بالأموال.

ـ ٤ ـ

وفاة ثائر

ظهرت بوادر الكره والحقد والازدراء بينهم، وفي هذه الأوقات كان الحكيم أبا منجد طريح فراشه وقد أضناه المرض وأعجزته الشيخوخة عن الحركة.

– كيف حالك يا عمرو؟

– بخير والحمد لله يا هذام.

– سمعت ما يتناقلونه الناس من أخبار؟

– نعم، لقد سمعت، إنني ليحزنني كثيرًا أن يطغى الناس بعضهم على بعض، حتى أن بعضًا من رجال الحامية انصرفوا عن عملهم ولم يصونوا ما عاهدوا الحكيم عليه، راحوا يتخبطون هنا وهناك ويتضاربون مع الأهالي، يغتصبون حقوقهم عنوة بوجه وقح.

رفع جفنيه قليلًا كي لا يشعر به أحد، لماذا يخفون عليّ الأمر؟ يتسترون على شيء مهم كهذا! أريد أن أرحل لخالقي وأنا مطمئن، إن الأمور تسوء بالخارج ولا أحد يطلعني عليها. أخذ يفكر ويحدث نفسه وهو ينظر للرجلين الواقفين عند باب غرفته، صار لا يبرح مكانه، فراشه وثير لكن أعصابه تحجرت مما سمعه قبل قليل، أرخى الغطاء وتركه ينزلق حتى انكشف جسده ورفع صوته مناديًا على عمرو بن ميمون.

– يا عمرو.

فك ذراعيه المعقودان على صدره وقال بإندهاش:

– الحكيم أبو منجد!.

– تعال بجانبي يا بني.

قال بعدما اقترب منه وانحنى على الأرض:

– غطاؤك واقع يا حكيم، أخشى أن تمرض.

رفع عمرو الغطاء من على الأرض وفرده على جسد الحكيم فزفر الحكيم فأخرج أنينًا ثم تأوه ألمًا وقال بصوت متهدج وعينين ذابلتين:

- دعك مني يا عمرو وأخبرني، كح كح.. ماذا حل بالقرية؟ لا تحاول الهروب من السؤال كعادتك، كفاك استهذاء بي ومراوغة، لقد سمعت كل شيء.
- كل خير يا أبا منجد، إنَّ الشائعات كثيرة ولا أحد يستطيع معرفة الحقيقة من الأكاذيب.
- اسمع يا عمرو، إنَّ صحتي لن تتحسن بإخفاء الحقائق عني، أسمعت عن أحد تحسنت حاله على الكذب؟ ثم إنَّ جسدي ما عاد يحتمل مجادلات من أي نوع، هذه آخر مشورة ستخرج مني ولكم الحق في قبولها أو رفضها، كح كح، آه.. إصغ إليّ جيدًا يا بني، أسلم حل لما آلت إليه الأحوال ومع كثرة الأعداد والترحال بين القرى والمدن الأخرى هو أن تنصبوا عليكم حاكمًا ترضونه، تخيروا شابًا قويًا ذو شخصية، تعلمون نسبه ودينه وبايعوه وليًا لأمركم، واشترطوا عليه أن يحكم بالعدل والمساواة وإلا فسينخلع عن حكمه ويوضع مكانه آخر.

قال له برفق وهو يرمقه بنظرة شفقة:

- حسنًا يا حكيم، ونعم الرأي، كم كنت سديدًا في نصائحك وحكمتك، لقد أنقذتنا كثيرًا ولكن بالله عليك لا تجهد نفسك، وجهك شاحب ويداك ترتعشان بقوة.
- عدني.. كح كح.. عذرًا يا بني، عدني يا عمرو وأنت -أشار بسبابته إلى هذام الذي كان واقفًا ينظر لهما ويصغى جيدًا وتلمع عيناه بالدموع- يا هذام تعال إلى هنا.

عداني أنتما الإثنان أن تخرجا في الحال وتعرضا على الناس ما أشرت به، ثم تعودان كي تخبراني بما اتفق عليه الناس، وعداني أيضًا بمحاولة نشر القيم بين الناس ونهرهم عن أقوال وأعمال السوء، وإياكم.. إياكم والظلم، إنّ الظلم يا أولادي بداية الهلاك، يملأ

الصدور حقدًا وحنقًا ولا يكفي المظلوم أن يقتصوا له من الظالم فقط، بل ما يشفي صدره هو أن يسترجع حقه، أتسمعانني؟ إيا.. كم و.. والظلم.

ارتفع صوت هذام يقول:

– أبا منجد.. سيدي أبا منجد.

بينما صمت عمرو ونطقت عيناه بالكثير وهما تلمعان بالدموع. أمال كل منهما رأسه حزنًا على رحيل الحكيم وتجمدت العبرات في مقلاتها وتظاهرا بالقوة. ثم تحدث عمرو كي يشغل نفسه بأي شيء ويتحايل على دموعه من أجل أن تظل في مخبأها:

– كم كنت عظيمًا يا حكيم، حتى وأنت طريح الفراش تقاوم المرض وتصارع الموت تحمل هم الناس، ظللت لآخر نفس تحضنا على الخير وتكرر على مسامعنا خطر الظلم ومغبة الخوض فيه.

قال هذام وهو يقاوم السقوط ويجاهد دموعه كي لا تفر وتفضح أمره:

– معك حق يا عمرو، هيا.. هيا بنا نخرج للناس ونعلن الخبر الأليم، خبر رحيل أعظم رجل عرفته في حياتي.

***

– لقد تعلمت سريعًا يا رسلان، أتعلم يا رجل أنني سبق وخططت لقتلك؟.

– قتلي! طبعًا لم يخف عليّ شيء كهذا، كما أنك أهل لهذا الأمر.

ارتفعت أصواتهما مجلجلة ومقهقهة في ورشتهما، فلقد تعاونا معًا وكبرا عملهما واشتهرا بجودة السلاح وحدته ونجح سلامة بأن يزيح الكسل عن جسد وعقل رسلان ويصنع منه رجلًا كما يصنع من الحديد سيوفًا.

– لكني وأصدقك في هذا وأقسم لك، أني أحبك وأحب صحبتك.

– وأنا أبادلك الحب ذاته يا سلامة، أقصد يا معلمي، ولن أنسى لك صنيعك معي ما حييت.

– لا تقل ذلك، فأنت ساعدتني كثيرًا وتعلمت أصول المهنة في وقت قصير.

صار سلامة يمحض رسلان وقويت بينهما أواصر الصداقة، حتى أنه زوجه من ابنته الوحيدة وجدان ووطدا علاقتهما.

– ما هذه الجلبة واللغط؟

– سأخرج لأتفقد الأحوال.

أصغى رسلان جيدًا وهو يقترب من صوت المنادي فميز صوته بينما توقفت آيادي سلامة عن الطرق وتوجهت أنظاره صوبه. إنه عمرو بن ميمون يعلن في الناس الخبر المشؤم.

– لن تصدق.

– ماذا حدث يا رسلان؟

– الحكيم.

– كنت أنتظر خبر موته.

ارتجفت يد سلامة وتخدرت فانزلقت من بين أصابعه المطرقة الحديدية ووقعت على قدمه مسببة ألمًا رهيبًا لكنه لم يكن يشعر به، لم يشعر إلا بغصة تنتابه وكأن روحه تنسحب منه، ارتكز بكوعيه على الطاولة المستطيلة التي أمامه وغطى وجهه بكفيه ثم وضع رأسه بين راحتيه وأخذ في النحيب، بينما كان رسلان ينظر له ولا يراه، يرى ملامح الحكيم العذبة الوضاءة ولحيته الكثه البيضاء التي تضفي على هيئته وقارًا وهيبة وجسده الذي كان طويلًا ولكنه قصر عندما احدودب ظهره من الكبر، يرى عضلاته البارزة برغم نحالته ويرى سترته الخشنة من الصوف التي كان يرتديها، فقد كان زاهدًا في كل شيء إلا الحرية وتوعية العقول.

فأسند ظهره إلى الجدار وشعر بتخدر رجليه وأنهما لم تعودا تقدرا على حمله فطاوعهما وانزلق جسده ببطء حتى لمس الأرض، أحاط ركبتيه بذراعيه وأمال رأسه حتى لامست جبينه راحتيه فوق ركبتيه وانخرط في البكاء والعويل.

عقب الإنتهاء من دفنه وتسوية الرمال على جسده عاد كلٌ إلى داره وأغلقوا المحلات وأعلنوا الحداد ثلاثة أيام، لا بيع ولا شراء ولا حياة بعدك يا أبا منجد. تمتم سلامة وهو يغلق محله ويفعل مثله التجار وأصحاب المحلات.

_ ٥ _

ما بعد رحيل الأحبة

دلف إلى منزله كاسف البال عابس الوجه، يجاهد شعورًا بالإغماء، عيناه مغرورقتان، تملؤهما العبرات التي جاهد طويلًا كي يحبسها، يغذ الخطى نحو غرفته ولا يعير والده الذي كان يجلس في صحن الدار أي اهتمام، أحكم إغلاق الباب وجلس على طرف السرير ورمى بجذعه عليه ورجلاه تتدليان وتتخبطان في أخشاب السرير، دفن وجهه في الفراش وأمسك رأسه براحتيه وصمت، لا يخرج منه إلا نفس مخنوق مصحوب بأنين ثم عدل من وضعيته بحركة سريعة وهو يرى طيف الحكيم يمرق في مشهد مؤثر، تذكر كلماته التي تمتم بها لنفسه وهم يغادرون المدينة: *فالدموع إن خرجت فور تجمعها تريح الفؤاد قبل أن يجثم عليه الحزن.*

مدد جسده المنهك على سريره ونظر للسقف وتصور وجه الحكيم في بقعة ناصعة البياض وأجهش بالبكاء، سمعه والده ميمون وحزن لأجله لكنه كان لطيفًا ولم يزعجه، هو أيضًا يتألم، الجميع يتألم ويفتقد لوجود الحكيم، فقد رحل عقلهم المدبر وظهرهم الذي كانوا يحتمون فيه، رحل من اهتم بهمهم وترك همه هو.

في أول يوم بعد إنتهاء الحداد وكان الغبار يملأ الجو والشمس تضفي عليه قيظًا على قيظ كان هذام يحث الخطى ناحية دار عمرو بن ميمون، قرع الباب حتى خرج إليه عمرو وقد بدا عليه الشحوب كما هي حال هذام لكن هذام كان قد استرد بعضًا من نضارته ووعيه.

تبسم عمرو ومد له يده مصافحًا ثم تنحى ليفسح له مجالًا للمرور وما إن جلسا حتى بادره بالحديث:

— مرحبًا يا هذام.

قال هذام بشبه ابتسامة وهو يرفع حاجبيه:

– مرحبًا بابن ميمون.

عقد عمرو ذراعيه على صدره وقال بتهكم ممزوج بود:

– أراك تأتي في الظهيرة والشمس متقدة وناشرة أشعتها في كل مكان.

زالت الابتسامة الخفيفة من وجه هذام وتنهد وقال بنبرة ناعمة:

– أريد أن أريح قلبي يا عمرو.

– وما الذي ينهكه؟

قطب حاجبيه وقال بدهشة:

– أنسيت وصية الحكيم الأخيرة؟

زفر ابن ميمون وقام يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ثم قال وهو يمسك ذقنه بكفه اليمني ويخفي كفه اليسرى في سرواله:

– لا.. لم أنسَ يا هذام، أترى ستوافق الناس على تنصيب حاكم عليهم؟ وماذا إن وافقوا؟ أقصد مَن الأصلح لهذه المهمة؟

وقف هذام وتحرك باتجاهه، نظر إلى وجهه ثم دقق النظر في عينيه الحادتين ثم قال له بنبرة عاقلة كأنه يقلد صوت الحكيم:

– أنت يا صديقي.

انفرجت أساريره وهو يجلس على سريره بعد أن وصل إليه بخطى سريعة فجلس على طرفه وقال بسخرية:

– لا تكن سخيفًا يا هذام، فالأمر لا يستدعى أي طرفة.

سار هذام نحوه وثنى ساقيه من عند الركبة ووضع يداه على ساقي عمرو وقال بهدوء:

– يا عمرو.. يا ابن ميمون.. أنت الأنسب لهذا الأمر، فلقد ماشيت الحكيم لفترة ليست بقليلة واكتسبت منه الكثير من المعرفة والعلم وأظنك تأثرت بحكمته، كما أنه كان يستشيرك في بعض الأمور.

فكر عمرو قليلًا وهو يحملق في وجه هذام الذي تبدو عليه علائم الجدية.

– لا يا هذام، ابحث عن غيري، يمكنني أن أكون مستشارًا للحاكم أو مساعدًا كما كنت أؤدي هذا الدور أحيانًا مع الحكيم، لكن أن أصبح الحاكم فلا.. لن يحدث.

خرج هذام من دار ابن ميمون وخطى بإتجاه داره.

باءت محاولاته في إقناع عمرو بالفشل، لكنهما اتفقا على أن ينتظرا لوقت الأصيل حتى تكون الناس أنهت أعمالها وينادیان فيهم بالتجمهر ليطلعاهم على وصية الحكيم، ثم يتفقوا جميعًا على حاكمًا.

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

السجين الوحيد

في سوق المدينة أجّ الحاضرون وارتفع الصخب، رجل يهرول فارًا من مجموعة من الشبان يلاحقونه، كان في منتصف العمر، قصير القامة ونحيل، رزحت قواه وهو يفر منهم وجهه شاحب وجسده هزيل، اصطدم الرجل بهذام فسقط على الأرض ونظر للواقف أمامه بذهول. أشفق عليه هذام ومد يده ليساعده على النهوض، تردد الرجل ثم رفع ساعده ومد يده ليستعين بيد هذام وينهض، استغرق هذا المشهد ثواني وما إن نهض الرجل واعتدل حتى وصل الشبان وأمسكوا به بقوة وأحدهم يهتف عاليا:

– أمسكوا به جيدًا، لا تفلتوا هذا اللص من آياديكم.

التفت هذام إلى الرجل الذي كان يهرول هربًا وأمسكه من تلابيبه وصرخ في وجهه بعصبية:

– لص!.. هذا ما كان ينقصنا.

أدار هذام رأسه للشبان ونظر لمن تحدث قبل قليل وهو يحكم قبضتيه على ملابس الرجل وقال:

– ماذا سرق هذا الرجل؟ ومن رآه؟

قال الشاب في عجل وبحدة:

– لقد رأيناه جميعًا نحن وأكثر من كانوا متواجدون هناك –وأشار بيده بإتجاه المكان الذي قدموا منه– لقد سرق بعض الفاكهة.

امتقع وجه هذام ونظر للرجل بحسرة وقد بدا على ملامحه التأثر بما سمعه وشرد بفكره قليلًا ثم انتبه من غفلته وهو يسمع كلمات الشبان الذين قالوا كلامًا فهم منه أنهم يريدون أن يأخذوا الرجل للمحاكمة ليأخذ جزاؤه.

أخذ هذام يتأمل وجه الرجل، لا تبدو عليه القسوة أو علائم الشر.

– لماذا تسرق؟

وجه حديثه للرجل مباشرة. قال الرجل بصوت متهدج ونبرة إستكانة:

– كي أطعم صغاري يا سيدي.

أمال هذام رأسه إلى الأرض وأفلت الرجل وقال له:

– لست سيدًا لأحد، وأنت ومع كامل تعاطفي معك لا بد وأن تُحاكم، إذا تُركت الأمور هكذا، كل من يفتقد لشيء يأخذه بغير وجه حق لتحولت قريتنا لغابة، يأكل القوي فيها الضعيف.

نظر الشبان والرجال الذين شكلوا حلقة حول الرجلين لبعضهم وانفرجت أساريرهم، هذا الرجل يحقق القانون، قانون السماء، يطبق العدل، إنه رجل صالح.. تمتم أحدهم وتبادلوها فيما بينهم ثم صمتوا جميعًا عندما تحدث هذام ثانيةً:

– لكنني ألتمس لك العذر يا رجل، يجب أن نتعاون ونساعدك ولكن بعد أن تنال نصيبك من العقاب، بعض البشر لا يتعلمون ويتقوم اعوجاجهم إلا بالعقاب.

هز الرجل رأسه موافقًا، ليس أمامه خيارات، ثم إن تركه هذام ستلتهمه جموع الناس.

في عصر اليوم الأول بعد حادثة السوق أغلقت المحلات وتوقف البيع والشراء، الناس يتوافدون على المكان الذي ستتشكل فيه المحاكمة، يسيرون في مجموعات صغيرة مكونة من فردين وثلاثة، ينظر الرجل من وراء القضبان الحديدية في غرفة السجن بعينين مكدودتين ووجه مقطب. لا بد أنه نادم، انظر له جيدًا.

– إنه يمثل الندم علينا يا رجل، اللصوص لا يندمون على ما فعلوه، لكنهم يحزنون وتملؤهم الخيبة إن اكتُشِف أمرهم.

كانا يتجاذبان أطراف الحديث حين مر هذام وعمرو من جانبهما فصمتا.

يسيران متحاذيين يعقد هذام ذراعيه على صدره ويلف عمرو ذراعيه للخلف لتلتقيا يديه فوق ظهره.

— أترى صوابًا ما قمت بفعله يا عمرو أم خطأ؟ لقد لطخت شرف ذاك السجين الآن، أتسمع ما يتناقلونه عنه الناس؟

— إنه صواب يا هذام، بل الحق.. هو الحق، لا بد للحق أن ينتصر والعدل يكون شعارنا هنا، نجتهد في تطبيقه، أو أنك نسيت آخر ما لفظ به الحكيم؟.

— لم أنسَ، أقصد أنه كان شيئًا يسيرًا، بعض الغذاء لأطفاله.

— وما يدريك أنه يصدقك القول؟

انتبه هذام لأمر لم يفكر فيه من قبل وتبسم لعمرو وهو يهز رأسه موافقًا.

حضر عددًا لا بأس به من الناس، أمامهم غرفة السجين وبجانبها مظلة خشبية يجلس تحتها على ثلاثة كراسي ثلاثة رجال تتراوح أعمارهم ما بين الأربعون والستون، كان من بينهم ميمون والد عمرو، هم لجنة المحاكمة، يرتدون زي موحد ومختلف عن باقي الناس وأمامهم مباشرة طاولة مستطيلة من الخشب.

بدأت المحاكمة وأدلوا الشهود بشهاداتهم التي لا تصب كلها في مصلحة الرجل، بل من الممكن أن يتلقى أشد العقاب لشيء يسير، أشفق هذام على الرجل كما أنه أراد أن يبعث للجميع برسالة مفادها أن ليس كل من يسرق بسارق متمرس، فهذا الرجل لم يفكر في السرقة قط عندما كان ميسور الحال، ما دفعه لذلك الفعل الشائن غير الفاقة، حين زاد إحتياجه قل وعيه، نقص عقله ففعل فعلته. يجب ألّا نغفل عن ذلك. حدث نفسه بتلك الكلمات وتحرك ووقف أمام الطاولة الخشبية ليدلي بشهادته دون أن يستدعيه أحد للشهادة.

— اسمحوا لي أيها السادة بالحديث.

نظر السادة المستشارين لبعضهم البعض وأشار ميمون لهذام أن يتحدث.

– بدايةً أشكر حضراتكم على رحابة سعة صدوركم، لن أطيل، أحب أن أنوه لشيء قبل أن تصدروا حكمكم النهائي، هذا الرجل الماثل خلف القضبان قد قال لي شيء أرى من الواجب أن أقوله، لقد جئت متأخرًا ولم أرَ الحادثة من بدايتها لكنني أمسكت به وسألته لماذا تسرق؟ فكان جوابه كي أطعم صغاري، أقترح وأنا الصغير بالنسبة لكم والأقل شئنًا بينكم ولا سلطة لي على أحد أن ترسلوا مبعوثًا يتفقد أحواله.. أحوال أهل داره، يتقصى الأخبار ويأتي، أظن أن حضراتكم ستلتمسون له الأعذار إن تأكد صدق كلامه وسينال ما يستحقه دون نسيان ما خلفهم وراؤه، أقصد أهل بيته.

هدأت الهمهمات وسكنت الأحاديث الجانبية بين الناس وإنقطعت ونظر القضاة لبعضهم وهم يتهامسون وخيم الصمت لثوان ثم قطع ميمون الصمت بحكمه المؤقت الذي اتفق عليه مع باقي أفراد فرقة المحاكمة.

وهو أن يأخذوا برأي هذام، يذهب أحد الرجال الشرفاء لمنزل الرجل ثم يأتي بالنتيجة ليتوصلوا لحكم نهائي.

ذهب الرجل وجلس الناس ليريحوا أقدامهم قليلًا، لم يمض الكثير من الوقت وجاء الرجل وقص على لجنة المحاكمة ما شاهده وعرفه.

قام الناس وانتبهوا وقتما تنحنح ميمون ليستعر انتباههم، نطق بالحكم وكان هينًا، شهر حبس عقابًا للرجل على أن ترعى القرية أسرته جيدًا، فمخزن المؤنة الذي شكله الحكيم ما زال مفتوح للفقراء، سيمدونهم بما يحتاجونه من غذاء ودواء ومال وما إن ينهي الرجل فترة عقابه حتى يدبروا له عمل يسد به رمقه ورمق أسرته.

ألقى الرجل القابع في السجن خلف القضبان نظرة امتنان على هذام وهز رأسه بتودد كأنه يقول له لن أنسى معروفك أبدًا، بادله هذام نظرات عذبة وأدار رأسه وجسده حينما لكزه عمرو في ظهره.

سارا هما والناس جميعًا، كلٌ إلى داره، تحدثا حول المحاكمة فأثنى عمرو على هذام وما فعله، مدح همته وعزمه على أن يتوصل لحل يرضي جميع الأطراف ولا يتسبب في أذى كبير. كما قال له بأنه خير من يمثل القرية كحاكم لها، احتقن وجه هذام ورفض رفضًا شديدًا، فقال له عمرو بألا يتعجل في الرد ويترك الأمر لوقته.

– انتظر يا هذام حتى نعرض الأمر على الناس.

هز هذام رأسه موافقًا وهو يشك في أنه سيقبل منصب كهذا واتفقا أن ينقلا للناس وصية الحكيم ورأيه في غداة غد، فحادثة السرقة ألهت الناس وأرهقت فكرهم وأجسادهم.

***

أشرقت الشمس وملأت القرية بهجة ونورا، سار المزارعون ناحية الأراضي ليباشرون أعمالهم والتجار للسوق، الأجواء منعشة والقلوب تخفق بحب والصدور منشرحة، فقد استبشر الجميع خيرًا في القضاة وفي تطبيق العدل وتوفير سبل الرخاء. دار عمرو وهذام على الناس وأعلموهم بأن أمرًا خطيرًا لا بد أن يُناقش على وجه السرعة وحثوهم على غلق محلاتهم وترك البيع والشراء والأحاديث والذهاب لساحة المحاكمة، فالأمر لا يحتمل أي تأخير، يجب أن يحكم القرية رجل صالح تقي، حكيم سديد الرأي، لولا تواجد هذام لكنا ظلمنا رجل وقفت الظروف ضده. كان يحدث نفسه وهو يسترجع وجه هذام المشرق عندما كان صوته يجلجل في أرجاء الساحة، إنه خير من يمثلنا بعدك يا حكيم، فلتستريح في مرقدك يا خير من عرفت من الرجال.

كثرت الأعداد ودارت بينهم الأحاديث، لا أحد فوق الكراسي، لا أحد يعتلي المنصة، لا يوجد مساجين جدد ولم يسمع أحد عن وقوع حادثة بعد حادثة السرقة، إذًا ما الأمر؟.. ما الأمر؟. علت الهمهمات والكلمات حتى أنها بدت كالصراخ فصعدا الإثنان الدرج ووقفا في الأعلى أمام الطاولة الخشبية وتكلم عمرو وأكد على كلامه هذام، حكيا لهم ما قاله الحكيم وما أشار به، لم تتقبل الجموع الغفيرة فكرة أن أحد يحكمهم، لا.. ليس مجددًا، نعلي شخصًا فوق رؤوسنا! نرفعه على أكتافنا ليذلنا؟!.. لا، هذا محال.

لج الناس وعم الصخب ولم يتوصلوا لقرار، حتى أسهب عمرو في الحديث حول فوائد تواجد حاكم، وعواقب إهمالهم للأمر هكذا.

– إن تركنا الوضع هكذا، لا جيش يحمينا، مجرد حامية صغيرة مكونة من عدة رجال لا يحكمهم أحد ولا يقودهم فسوف نكون عرضة للخلافات وعرضة للهجوم علينا من القرى المجاورة.

كثرت القرى وتناثرت حولهم. تجمعوا حول ماء الغدير والغابة بعدما كثرت الأوبئة والأمراض في بلادهم وقل الماء، كما أن قرية الحكيم كما أسموها بعد وفاته اشتهرت بقلة الظلم فيها وتسامح شعبها فقرر الناس في القرى والمدن البعيدة أن يجاوروهم في السكن فأتوا من كل حدب وصوب وتعاونوا واستصلحوا الأراضي وأقاموا المنازل وعاشوا في أمان، مستأنسين بقرية الحكيم.

خيم الصمت على المكان بينما كانت الشمس تحرق الوجوه الشاحبة، مسح بكفه جبينه الذي تصبب عرقًا وانتظر رأي الناس فيما قاله، لكزه هذام الذي لزم الصمت إلى الآن فنظر له عمرو وعلى وجه علامات الاستفهام.

– ما بالك يا هذام تلكزني؟ هات ما عندك.

إتخذ هذام وضع الخطيب بأن رفع ساعداه للأعلى وبسط كفيه ثم عدل من وضعيته وازدرد ريقه وتلعثم:

– ماذا يا هذام؟

قال هزام بعصبية:

– يا عمرو، إن شعوبنا تكدح للعيش ولا يشغلهم هذا الأمر، لا تأخذ برأيهم فلن تجدهم يفقهوا شيء، انتقي منهم من تراه مناسبًا، من تدرك نباهته ورجاحة عقله، اجمع أفراد من طبقات مختلفة، أثرياء، تجار، ساكنين قدامى وجدد، رجال دين وشيوخ عجائز وجنود من الحامية وناقش الأمر معهم وما إن تتوصلون لرأي سديد تتفقون عليه، أخرُج

للناس وأعلن الحاكم، أخبرهم أن فلان أصبح الحاكم ويجب عليهم الطاعة، ثم بين لهم حقيقة الأمر، بأنه حاكم مختار من الشعب، ليس وريث عرش وأسرة حاكمة وصلاحياته محدودة وهناك لجنة محاكمة يمكن أن تقيله إن طغى وتجبر.

هز عمرو رأسه موافقًا ورمق هذام بنظرة إعجاب وقد تأكد من أمر طالما شغله بعد وفاة الحكيم، بأن هذام يجب أن يحكم هذه الأرض والأراضي المجاورة.

دار عمرو بين الجموع المحتشدة يتخير خيارهم ويصحبهم ناحية المنصة ويتركهم لهذام الذي يقوم بدوره بشرح الأمر لهم، ثم يعود ليأتي بغيرهم. اختارت المجموعة المختارة عمرو بن ميمون فزمجر بحنق ورفض، كان يخشى أن تغيره السلطة فيما بعد، لقد عاش سعيدًا ثائرًا.

إنّ هذا المنصب كبيرًا على أي إنسان وشاق، يغير من لا يتغير، يقبح الوجوه الحسنة في عيون المظلومين والفقراء، يبلد المشاعر، يميت القلب، يحجر القلوب ويعمي الأبصار والبصيرة عن النور والحق والعدل، إلا من رحم ربي.

كان عمرو يفكر ويفكر ويحدث نفسه ويستشعر جل ما سيلاقيه ويناقشه مع نفسه، ارتضى أن يكون مستشارًا فقط ولا شيء غيره.

وجه الدعوة إلى هذام ووجه أنظار من حوله له، ففزع هذام ولكن المجموعة المختارة الذي كان السبب في نشأتها أيدت فكرة عمرو، بل رأته أنسب منه لما شاهدوه وسمعوه منه في قصة حادثة السرقة وغيرها من المواقف التي تدل على رجاحة عقله وبعد بصيرته وقوة شخصيته.

أذعن لهم هذام فتهللت أساريرهم وانفرجت الأفواه مظهرة ثغور مضيئة خلفها وطار عمرو فرحًا ودنا من الناس وأعلن بصوت جهوري أن هذام هو الحاكم بعد إتفاق الناس عليه، ارتفع الضجيج والتصفيق وعلت الأصوات بالمباركات والمديح فيه وصفر بعضهم وعبس عدد قليل ممن كانوا يرفضون بشدة أن يحكمهم أحد.

خلت الساحة من الناس وعادت مقفرة تملأ أرضها أشعة الشمس فتميل الرمال للون الذهبي، كان السجين الوحيد مطرق الرأس مقطب الجبين، منزوى في ركن قصي يجلس القرفصاء، كانت

غرفة السجن خالية من الأنوار إلا من شعلة فقيرة آخذه في التآكل والانتهاء وبعض أشعة الشمس الغاربة تتسرب من نافذتها لترسم لقضبانها ظلًا على الأرض حين لمح هذام يقف خارج أسوار سجنه خلف قضبانه مبتسمًا وينظر إليه، فور رؤيته ارتكز على كفتيه وقام وهرول باندفاع تجاه النافذة وما إن أمسك بقضبانها حتى تمتم بصوت خفيض:

– مبارك لك يا سيدي، بل مبارك لنا نحن، إننا محظوظون بأن رزقنا الله رجل صالح مثلك، لقد منَّ الله علينا بأفضل النعم، وجود سيادتك في قريتنا يزيدها عزة وشرفًا.

ابتسم الحاكم هذام ومد يديه وربت بهما كتفا الرجل وهمس له:

– سوف تنتهي فترة عقوبتك قريبًا، لا تقلق، فلتتحلى بالصبر ولا يؤرقك هم آل بيتك فلقد تدبرنا أمرهم وسأتدبر أمرك فور خروجك من هنا، بالتأكيد سأجد لك عملًا حلالًا تعول به أسرتك.

لم يجد كلمات شكر كافية، أغدق عليه بكلمات وفيرة إنما ما يزال يشعر بالتقصير، ما هذا الحاكم؟ يأتي إليه بنفسه ليطمأنه ويبشره بوظيفة مستقبلية! وقف مثأثأ لا يحرك ساكن وكأن صاعقة ضربته. فاستأذنه هذام وانصرف لينظر فيما ينتظره ومكانته الجديدة، يباشر أصعب وأفضل وأيسر وأقبح وظيفة في القرية بل في العالم، كما كان يدمدم وهو يبتعد عن ساحة المحاكمة بعدما ودع السجين والجنديان الحارسان.

_ ٢ _

كرسي الحكم

تعالت الطرقات وتسارعت كأنهما يتسابقان في الطرق، الحديد أمامهما مُحمر بفضل النار والطرق ويزداد احمرارًا وتوهجًا وانبساطًا كلما قوت طرقاتهما. كليهما يرفع في الهواء كتلة حديدية باردة ومستطيلة ومستوية من المقدمة موصولة بعصا خشبية سميكة ويهوي بها على حديدة طويلة وعريضة نسبيًا، كانت الحديدة المحمرة بين الكتلة الحديدية وكتلة سميكة من الحديد متخذة شكل قرص سندان، واسعة وغليظة ومتصلة بحديدة عريضة ومتينة مغروسة في أرضية الورشة بقوة وعمق، كانا يصنعان سيوفًا.

أوقف سلامة الطرق وألقى الأداة أمامه على طاولة خشبية ومسح بطرف كمه حبيبات العرق على جبينه وأخذ يلهث ويزفر ويشهق ويتهيأ للحديث.

– ما رأيك في هذام يا رسلان؟

توقف رسلان هو الآخر ولكنه احتفظ بالمطرقة في يده واستدار ببطء لوالد زوجته وبلع ريقه ثم قال بهدوء:

– أرى أنه مناسبًا، شاب وقوي وذو شخصية جادة وملتزمة، أتوقع أن يرتفع معه شأن هذه القرية.

زر سلامة السياف عينيه ومط شفتيه ورفع كتفيه علامة الجهل وقال بثقة مفرطة:

– أتفق معك في كل كلمة نطقت بها، لكني أتوقع أن يتغير مع استمراره في الحكم، إنَّ السلطة تفعل بالنفس ما لا تفعله النفس الأمارة بالسوء بصاحبها، أخشى على هذا الفتى من التحول، سنخسر شابًا لطالما ساعدنا بإخلاصه وقوته.

نظر إليه بوجوم ودهشة، لماذا يتوقع معلمي الأسوء؟ كيف لا يتفائل ويستبشر خيرًا؟ ومع ذلك فهو محق.

– معك حق يا والد زوجتي، أتمنى أن تسير الأمور على عكس ما تتوقع.

اجتمع هذام وعمرو بن ميمون ووالده وباقي أعضاء لجنة المحاكمة والمجموعة المختارة في دار أحد الأثرياء، وكان من بين المجموعة المختارة، في ليلة معتدلة ذات ليل مقمر، بعد الانتهاء من الطعام والشراب على المائدة الضخمة التي أعدها راجح بن درغام القطامي وكان صاحب الدار الضخمة وثري من عائلة ثرية وعتيقة. أخذهم راجح في صحبته لفناء الدار حيث أعلن الحاكم هذام عن أمر هام يريد مناقشته ثم طرحه على الناس، لقد اتفق له بعد تفكير عميق أن يختار عمرو مستشارًا خاصًا له والمجموعة المختارة مستشارين إداريين ويرأسهم عمرو، ستتوزع المسؤولية عليهم بحسب أعمالهم واتجاهاتهم في الحياة، فالتاجر الذكي سيتولى أمر الأموال ليعرف كيف يوظفها في مكانها الصحيح، والجندي المحنك سيتولى أمر الحيش وقيادته والثري ذو النسب والأصل العريق سيتولى أمر مقابلة الوافدين من الخارج والتحدث معهم نيابة عن الحاكم وهكذا دواليك.

أثنى الحضور على حاكمهم هذام، لم يخيب ظنونهم، كل الدلائل تشير إلى ذلك وأعلنوا موافقتهم ولكنهم لم يهتموا بالنقطة التي تقول أن يخبروا العامة بالأمور السياسية وما يخص إدارة البلاد، رأوا أن هذا الأمر لا يعنيهم في شيء، إنَّ ما يعنيهم حقيقة هو تطبيق العدل وتحقيق السلام والأمان والعيشة الهنيئة.

وافقهم الحاكم هذام واختار المسؤولين الجدد ووزع عليهم المهام، ثم تحدث أحدهم وقال بجدية واضحة:

– أيها الحاكم.

نظروا جميعًا للرجل وكان أريب بن برهوم من جنود جيش المدينة المنحل وأحد رجالات البلاط الملكي السابق.

– تفضل يا أريب.

– أيها الحاكم هذام، من واقع عملي في قصر الملك الراحل وخبرتي في هذا المجال أحب أن ألفت انتباهكم لأمر جلل.

حدق الحضور إليه ورنوا جيدًا وهو يستطرد بصوت شجي واثق:

– لا بد يا سيدي الحاكم من تغيير محل إقامتك، لا يليق بحاكم عبقري مثلك أن يقطن في منزل صغير يتكون من غرفتان كباقي العامة، يجب أن تسكن قصرًا من القصور، كي تباشر مهامك بنفس مُطمئنة وتقابل زوارك وضيوف بلاطك بشكل يليق بمكانتك ومكانة قريتنا التي أصبحت من أهم القرى بل تحولت لمدينة كبيرة وذاع صيتها بسبب الجهود الأخيرة المبذولة. واعلم يا سيدي أنه لن تمر فترة طويلة وسيأتي الناس إليك أفوجًا يباركون ويهنئون ويطلبون الحماية، فلقد وصلتنا أخبارًا بأن القرى المتفرقة من حولنا تُغيرُ بعضها على بعض، كما وصلنا أن ساداتهم وكبرائهم عزموا أمرهم على اللجوء إلى حاكمنا المبجل ليخلصهم من وطأة الطغاة.

اتجهت الأنظار للحاكم فور صمت الرجل ينتظرون رأيه فيما قاله، بينما آثر الصمت وطأطأ رأسه. أهو يفكر أم ماذا؟ إن العادات المتوارثة ونظم الحكم تقول ذلك، لكن يجب عليه ألّا يذعن لتلك العادات الغبية، إن وافقت يا هذام وهذا ما أتوقعُه فستهبط من درجة الوطني الثائر المخلص والمخلِّص لدرجة رديئة ودنيئة وهي منزلة الحكام، بعض الحكام، ستكون مثلهم، ستشبههم في كل شيء، المسكن والملبس وطريقة الحديث، حتى أتوقع أن تغير من طباعك، ستتخلى عن الإخلاص والوفاء والحق والخير لتبدلهم بأحط الطباع والصفات والتوجهات. كانت الأفكار تأكل رأسه، تلتهم جسده وتؤرقه حين نظر إليه وهو مائل الرأس فرفع رأسه ونظر في عينيه بتحد وقال له بإقتضاب:

– سأقبل يا ابن ميمون.. سأقبل بالتغيير ولكني لن أسمح للتغيير بأن يغيرني.

تبسم عمرو وقد فهم أن هذام قرأ في عينيه المتقدتين من أثر كلمات أريب بن برهوم ما يدور في عقله فأراد أن يقبل لأنه يجب أن يقبل بالمتغيرات في ظل عمله كحاكم، ويبرهن له فيما بعد أنه كان مخطئًا حين تمارى فيه وشك في قدرته على التحكم في رغبات النفس وشهواتها إن تهيأت لها الفرصة وسنحت ولانت كل الصعاب وقربت المسافات بينها وبين الملذات. ثم استطرد هذام وهو ينظر لأريب بن برهوم ويتفحصه:

– لتبدأ في التجهيزات لهذا المنزل يا أريب واعلم أنك ستباشر فيه عملًا لطالما تعودت عليه وأتقنته، ستكون بجانبي فأنت خير من يكون في هذا المقام، لكني أود أن أنبهك لشيء، أنا لست حاكمًا مبجلًا ولن أسمح لك بقولها ثانية، أنا هذام، فقط هذام ولا بأس أن تقول الحاكم هذام. إتفقنا؟

ازدرد أريب ريقه وقال بوجل:

– إتفقنا أيها الحاكم.

تفرسه أريب، يتأمل هذه الملامح شديدة الخشونة، كيف ستلين حتى يلين قلبه وعقله وجسده ليتناسبوا مع ملك لبلد سيكبر عما قريب، بينما راح عمرو ينظر إليه بابتسام وقد أنعشته كلماته الأخيرة وكأنه يثبت له من الآن صدق نيته، فبادله هذام الابتسام.

***

تجلس متململة على حصيرة خشنة في غرفة ضيقة، تنيرها شعلة من النار فوق عمود من الطين المحروق، تحمل طفلها جعفر على ذراعيها، تهدهده وتلاعبه ليكف عن الصراخ ولكن من سيهدهدها هي؟ من يطفئ نار شوقها لزوجها وهبه؟. تسأل ولا أحد يجيبها فهي لوحدها في الدار، الصغير لا يفقه شيء:

– ترى كيف حاله؟ هل يعتنون به أم ماذا؟

ملأت الدار فراغًا من بعدك يا وهبه، لتطعمنا اقحمت نفسك في المخاطر حتى قاموا بسجنك بتهمة السرقة، بتهمة الحياة، نعم إنَّ الحياة لهي أشد التهم وأكثرها حيرة، بتهمة سرقة بعض

الفاكهة، يتهمونك أنك تأكل! ألست بشر يا زوجي العزيز؟ لم تكن يوم بسارق ولكنه عسر الحال وقلة الحيلة، إن انتبهوا لوجودك بينهم من البداية واهتموا لأمرك ما كانوا فعلوا بك ذلك، أنت المسجون الوحيد!.. هيه!، يريدون أن يقنعونني بأنك المذنب وحدك، أقسم بأغلظ الأيمان بأن هناك الكثير والكثير من المذنبين، لكنهم واعون، لصوص أذكياء ومحترفون، يستطيعون السرقة والتخفي ولا يعلم أحد بأمرهم، لنا الله.

أوقف تيار أفكارها صوت قرع على الباب فهبت ترى من الطارق.

تلجلجت وتلبطت في أمرها. حدقت فيه بعينيها المكدودتين المغرورقتين، جاهدت لتحبس دمعة فضولية ولكنها انحدرت فارة من مخبئها قالت بتردد ووجل:

— سيدي الحاكم! أهلًا بك يا سيدي، اعذرني إن هويت على الأرض من الإعياء فهذه مفاجأة لم أكن أحسب حسابها واعذرني على المكان الذي لا يليق بك والعبثية التي تطبق عليه.

هدأ من روعها بكلمات بسيطة وطمأنها على زوجها وهبه وزادها اطمئنان عندما أخبرها بأنه يهتم لأمره بنفسه وسيجد له وظيفة محترمة فور خروجه. ربما لأنه السجين الوحيد والأول في هذه القرية، ربما.

أثنت عليه بجميع كلمات الثناء والمديح التي تعرفها، ودعها بابتسامة عذبة وتركها وقد أنار لها غرفتها المظلمة بطلته وآنسها بوجوده الدقائق القليلة فيها ولم يتركها وحيدة، فطيفه لازمها وبدد وحشتها.

راحت تنتقل أنيسة من دار إلى دار تحكي لهم على ما فعله معها الحاكم وما يقوم به من جهود تجاه زوجها القابع في السجن، مدحته بما فيه الكفاية وأكثر.

مرت الأيام وتلتها الشهور وخرج السجين وهبه وعاد لداره وزوجته وطفله جعفر وصارت قرية الحاكم تشهد عدلًا لا مثيل له وأمن وأمان وسلام، انتشرت الأخبار بين البلدان المتناثرة على خد النهر، ذاع صيت القرية وحاكمها العادل، أرادت بعض القرى أن تجرب ما فعلوه فاقتتلوا

فيما بينهم على من يتولى زمام الأمور، ثم توصلوا لحل أراح الجميع وهدأ من ثوراتهم، وهو أن يتأكدوا من صحة المعلومات التي تصلهم ثم يرسلون مبعوثين منهم ليعقدوا اتفاق مع الحاكم هذام، يحميهم مقابل أن يدفعوا مال له يتصرف فيه كيفما شاء.

أرسلوا تجار وأخذوا يبتاعون ويشرون ويتجاذبون أطراف الحديث مع الناس والتجار في قرية الحكيم، حتى تأكدوا تمامًا مما وصلهم وقفلوا عائدين لقراهم يطمئنونهم ويحرضونهم على أن يسرعوا في طلب الانضمام للحاكم، كانت تملأ الدلو من النهر وهي تقف على درج خشبي منبسطة سلماته وعريضة ومناسبة للوقوف عليها دون التأرجح أو السقوط حين ناداها زوجها حسام:

– يا جوري يا أم هذام.

ثبتت الدلو على إحدى الدرجات بعدما أخرجته من الماء وهو ممتلئ نصفه، وأخذت تغرف بيديها وتصب فيه حتى امتلأ عن آخره وحملته وصعدت درجات السلم ببطء وتوأدة، نظرت لزوجها وهي ترتفع حتى انتهت من الدرج الخشبي وتحركت باتجاهه وهي تترنح، فخطى تجاهها وحمله عنها وسار بمحاذاتها حتى دخلا دارهما وقفلا الباب.

لم يمض الكثير من الوقت حين تناهى لسمعهما صوت قرع على الباب، تحرك حسام وكان طويل القامة ونحيل ذو جذع طويل وممشوق وعينين واسعتين سوداوين، أسماه والده حسامًا أي سيف قاطع أو حد السيف الذي يضرب به، كانت الناس في تلك المناطق وهاتيك الأيام يطلقون على أبناءهم أسماء قوية صلدة كأسماء حيوانات مفترسة أو آلات حادة، يرون أن الاسم يدل على شخصية حامله حتى أطلق هو على ابنه اسم هذّام أي قطَّاع، وكأن الاسم بالفعل يدل على حامله، تميز هذامًا منذ نعومة أظافره بالقوة وأتقن فنون الحرب والكر والفر وأيضًا تمتع بحكمة ورثها عن والده حسام.

فتح الباب فدلف الحاكم هذام وقبل أيدي والداه وجلس معهما وأخذ يسهب في الحديث ويقنعهم بترك هذه الدار التي لم تعد تليق بوالد ووالدة الحاكم والعيش معه في داره التي انتهى البناءون منها وأصبحت جاهزة مجهزة لاستقبال مليكها وملك البلاد.

- هذه دارنا يا ولدي، يكفينا رحيل، يكفينا شوقًا لما نشتاق إليه، لا أريد أن أستزيد من الأماكن التي أحن إليها وأيامها، فما زالت دارنا القديمة في أرضنا القديمة تجد لها ركنًا في قلبي، يتقرح عقلي إن لاحت له ذكرى من هاتيك الأيام، ويتمزق قلبي حنينًا ويعذبه علمه بأن العودة أضحت مستحيلة، لم تعد الأرض هي الأرض ولا الدار نفس الدار ولا الجسد مثل الجسد الذي كان.

لو قدر لي العودة بجسدي الصحيح الذي كان، لست أدري إن كنت سأستطع تحمل مشقة سعادتي أم لا، فلربما أفارق الحياة مع أول موضع قدم في تلك الأرض أو مع أول نظرة لها.

كان يتنقل بنظراته ما بين والده ووالدته، إذ أن هذا كان رأي جوري أيضًا، كانت تومئ برأسها بالإيجاب أثناء حديث زوجها. وكأنها عادت للزمن الغابر حقًا، كانت الدموع تبلل وجنتيها.

_ ٣ _

القلعة

تسلم أريب بن برهوم مفاتيح القلعة من رئيس العمال وأبلغ الحاكم بالنبأ السار، لم يوافق هذام في البداية على منزل بهذه الفخامة والتكاليف الضخمة ولكن أريب أقنعه وشرح له بأن هذه القلعة ستكون وكر لكل من يكون في مكانه.

— أطال الله في عمر سيدي، هذه مخصصة لمن يتسلم زمام الأمور. هي محصنة وعليها حراسة مشددة وفي فناءها الواسع ما يشبه منازل صغيرة أعدت للجنود، فسوف تتوزع الجيوش داخلها وخارجها وفي أماكن أخرى من القرية، من جميع الجهات لنضمن الحماية لسيدي وللقرية، لن ندري من أين يمكن أن تأتينا الضربة يا سيدي.

اقتنع هذام بكلام ابن برهوم، دائمًا يقنعه ولكن كيف سيقنع أهله؟ مرت ساعات وهو في منزلهما الفقير المتواضع دون أدنى طائل فلم يقتنعا ولم يبرحا مكانهما فسلم أمره وتركهم واتجه ناحية قلعته الحصينة ليباشر حكمه من هناك ويتذرع بها.

كان جالسًا أمام داره، يعتلي كتلة من الحجارة على شكل مستطيل، مبنية بشكل محكم وسطحها مبلط بمادة ملساء بعض الشيء، شارد البال يفكر فيما تتناقله العامة، يقولون بأن القلعة اكتملت، ضخمة وواسعة ولها أبراج مرتفعة وأسوار عالية وحصينة، لها ثلاثة بوابات من الحديد الصلب، أمامهم وخلفهم أعدادًا لا بأس بها من الجنود، لماذا كل هذه الحراسة؟ ما الذي جد علينا، لقد عشنا طويلًا آمنين ومتاحبين في حياة الحكيم، إنّ القلاع تلقي في قلوب الشعوب الحقد والكره على ساكنيها وتملأ عقولهم بفكرة الثورة، مهما يكن الحاكم عادلًا لن ينجو من أولائك الثوريون، حتمًا سيجد هذام له أعداء يتربصون به ويتآمرون عليه. قطع خيط تأملاته صوتًا غليظًا، إنه أحد جنود الحاكم بصحبة جندي آخر:

– سيدي.

رفع رأسه ببطئ ونظر للجنديان الذان يعتليان خيولهما وتحدث بصوت خفيض، كأنه يبعث لهما برسالة مفادها أنهما قد بددا سحر جوه الهادئ وبعثرا عقد أفكاره وكلماته التي كان يحدث نفسه بها:

– ماذا تريدان؟

– عذرًا يا سيدي، إنَّ الحاكم هذام بن حسام يطلبك في القلعة وقد أمرنا بأن نسرع ونخبرك.

– القلعة! هممم، جعلها مقره إذًا. إذهبا واسبقاني وسآتي خلفكما.

تحدث أحدها بتودد ممزوج بخوف:

– لقد حثنا على ألّا نفارقك حتى تحضر معنا يا سيدي.

امتقع وجهه وعرف أن لا مفر من الذهاب. فلتذهب يا عمرو، محتمل أن يكون الأمر جلل أو يكون شيء طرأ فجأة، حدث نفسه وأمرهما أن ينتظرا ريثما يخرج حصانه ثم يذهبون جميعًا. لم تكن الأرض مستوية كما هي حال صهوة حصانه، تصهل الأحصنة، تعبث بالرمال كما تعبث أفكار ابن ميمون به، ما زال يفكر في ماذا يقوله للحاكم إن طلب منه المكوث في القلعة، لقد عزم أمره على ألا يستجيب لطلبه إن هو طلب منه ذلك، لكن لا بد من وجود عذرًا قويًا، إنَّ هذام ليس حاكمه ومرؤسه فقط؛ إنما هو صديقه مذ كانا يجتمعان في دار الحكيم في مدينتهما القديمة.

إنها رائعة، لقد أظهر المصممون براعة فائقة كما أدهش البناءون الجميع بمهاراتهم في البناء وإتقان الحرفة، حقًا إنها عالية تكاد تناطح السحاب، لم أرَ مثلها، حتى إن قلعة ملكنا السابق في المدينة لم تكن لتضاهيها في شيء إن ظلت على حالها إلى الآن، إنها شامخة مثل حاكمها، أبية مثل شعبها الآبي الذي رفض الظلم بقرار الرحيل، تُرى كنت محقًا يا حكيم عندما قررت ذلك وسحبتنا خلفك كالدواب؟ إنَّ الهروب ليس الحل دائمًا، لكنه في بعض الأوقات يكون

مطلوب، يلوذ المرء لمكان يحميه ريثما تتبدد مخاوفه وتزول العقبات التي تعرقله ثم يعود، إني على يقين بأن الحكيم كان سيعود بنا لموطننا عندما نكون مستعدين لذلك، بدنيًا ونفسيًا وعسكريًا، رحمك الله يا أبا منجد، أسست هنا قرية صغيرة نائية ووصل بها الحال الآن لأن تكون مدينة قوية بقلعة حصينة وأتوقع عما قريب وكما تشير كل الدلائل بأن تتحول هذه البقعة من الأرض لدولة عاصمتها مدينتنا هذه وحاكمها هذام. كان هذام ينظر من أحد الأبراج حين إقترب عمرو بصحبة الجنديان، يبدو شاحبًا ومهمومًا، لماذا يا عمرو؟ وكأنه يعلم لماذا أرسلت في طلبه، أظنه لن يرفض مثل والديّ.

اقتربوا من البوابة الرئيسية فُتحت على مصراعيها ودلفوا إلى فناء القلعة الفسيح.

أكمل عمرو بن ميمون سلسلة أفكاره وأوصل حلقاتها ببعض وهو يتأمل القلعة والأبراج والفناء والجنود والخيول لكن عينه لم ترصد هذام بعد إلى أن ناداه هذام من الأعلى:

– يا عمرو.!

رفع رأسه بحركة سريعة حين سمع أحدهم ينطق باسمه من فوق، إنه هو، نفس الملامح ولكن ما هذه الملابس التي يرتديها؟ لقد تغيرت يا ابن حسام ولم يمض الكثير من الوقت وأنت في الحكم، أطرق رأسه يفكر بحزن ثم ترجل عن حصانه بينما ذهب الجنديان ليفعلا ما وراءهما من مهام.

ترك حصانه لجندي شاب ليعقله في أحد السواري، لكن الجندي المتدرب ذهب به إلى حيث تقف الخيول وربطه هناك، تناسى ابن ميمون أمر الحصان ودلف من بوابة ضخمة لرواق واسع بعض الشيء ثم وصل للبهو، رأى جدران عالية موشاة بألوان غريبة، هالته الزينة والكلمات المنقوشة والمنمنمة، وسحره منظر السيوف المعلقة بشكل زخرفي فتان، تشبه كثيرًا العمارة الغربية في شكلها ولكن ابن ميمون كان يخشى أن تشبهها في مضمونها، كان يعرف عن قلاع بلاد الغرب وحكامها الكثير، كان يقول: إنَّ حكام تلك البلاد لا يتقيدون بدين وإن تقيدوا لا

يبالون بأمره كثيرًا، يفعلون ما يحلو لهم ويناسب هواهم، يتسلطون يتجبرون ويظلمون، لقد أوصاهما الحكيم بتطبيق العدل، فما الذي ستئول إليه الأمور؟

وقف في صحن القلعة مذهولًا بجمالها حين باغته هذام بضحكات مجلجلة يتردد صداها في أرجاء القلعة ثم قال بنبرة حاكم متمكن:

– أهلًا بك يا عمرو، ما رأيك؟ أأبدو مثل الحكام الذين سمعت عنهم؟ حكام بلاد الغرب الذين حدثتني عنهم كثيرًا.

– كثيرًا يا هذام، عذرًا.. يا أيها الحاكم هذام بن حسام.

حدجه هذام بنظرة قاسية، كأنه يقرّعه على التكلف في الحديث معه وقال بصوت هادئ:

– أنا هذام يا عمرو، ما زلت هذام.. لا تأخذك هذه الهالة فتنسى من أنا ومن والداي وأصدقائي وأهلي.

نظر عمرو بقليل من السخرية ثم قال بنبرة إستجداء:

– أتمنى يا هذام، أتمنى لك من كل قلبي ألّا يغيب عن وعيك ما قلته منذ قليل، لا تنسَ يا هذام، أهلك وأصدقاؤك ومعارفك، فلربما يأخذك الحكم منهم وتغرك قوتك وتتسلط عليهم.

كان وجه الحاكم كامد آخذ في الكمد وابن ميمون يرص كلماته ويلقي بها في وجهه، يبدو أنه راجعها كثيرًا ورتبها وحفظها ليخرجها بهذه اللباقة دفعة واحدة.

غير هذام مجرى الحديث حيث قال:

– أنت مستشاري الأول يا عمرو وصديقي الأوحد، أنت الرجل الذي أحبه بعد والداي، سأحتاج لوجودك بجواري وقربك مني ولنصائحك وحكمتك.

شم ابن ميمون رائحة خبر لا يريد سماعه ولم تكذب حاسته، حيث طلب منه هذام بأن يأتي للعيش معه، في القلعة، لكن ابن ميمون رفض رفضًا قاطعًا مما دفع الحاكم لتغيير طريقة كلامه ونبرة صوته، فقد قال كأنه يأمره:

– ستأتي يا ابن ميمون.. ستأتي.

حدجه ابن ميمون بنظرة تحد ممزوجة بثقة، ها هي تنبؤاته آخذة في التحقق، ها هو ما يخشى حدوثه قد بدأ في الحدوث.

– لا يا هذام، مكاني ليس هنا، إن مكاني بين العامة ووسط الكادحين، وأنت هنا لن تصلك جميع الحقائق، سيضللونك من هم حولك، أعرف ذلك، فلتبق هنا كما تريد ولكني سأتواجد هناك، أعرف أنه على عكس ما تريد ولكنه في صالحك، كي أستطع أن أكون مستشارك بحق وعن جدارة.

هدأت هذه الكلمات الأخيرة من روع هذام وفطن لما يحسب حسابه عمرو وفهم مقصده ولكنه لم يخفَ عليه بأنه يتهرب من المكوث في القلعة فلم يرد أن يشقيه بكلماته التي تشبه الأوامر.

غادر عمرو أسوار القلعة عائدًا لداره الذي يشبه وكر فأر بالنسبة للقلعة، كان أريب بن برهوم يقف بعيدًا، سمع كلمات ولم يسمع أخرى ولكنه فهم مجمل الحديث الذي دار بين هذام وعمرو، فرح بالنتيجة التي توصلا إليها، إنه مخلص ورجل صالح لكن شعورًا بالخطر داهمه مذ وطأت قدما عمرو أرض القلعة، فلم يستطع أن يحبس ابتسامة تسربت من داخله لوجهه فكسته بملامح النصر حين رفض عمرو المكوث بالقلعة، نصر على ماذا ولم يدخل معركة؟ إنه لا يدري.

رغم أن منصبه بعيدًا عن منصب عمرو وعملهما مختلفان إلا أنه أحس بالخطر، لا يريد أن يعود كباقي العامة، لقد عاش مديدًا يتمتع بسلطة في ظل الملك السابق وعانى طويلًا عندما مات الملك وتفكك الجيش الذي كان هو فرد فيه ولا يريد أن يعود لمعاناته، ولما لا يكون ملك في يوم من الأيام؟ انشرح صدره لهذه الفكرة وكأنه قرر أن يهيء لنفسه جوًا مناسبًا لينفذ ما يفكر به.

أشرقت الشمس لتغمر القلعة بدفء وتحيطها بهالة من الألفة وتبدد وحشة الليل وظلمته، كان الحاكم هذام يجلس على عرشه، عن يمينه يقف ابن برهوم واضعًا كفيه فوق بعضهما على صدره تأدبًا، مظهرًا بذلك احترامًا للحاكم وعن يساره يقف راجح بن درغام القطامي مسؤول العلاقات الخارجية ويقف على جانبي القلعة صفان من الحراس ينظرون أمامهم بثبات ويقبضون على حراب بآياديهم اليمني وعلى سيوف داخل أغمدتها معلقة بشريط قماشي من عند الخصر بآياديهم اليسرى حين دلف أحد الجنود، كان أعلى رتبة من غيره من جنود الحراسة، انحنى هذا الجندي للملك إجلالًا ثم إقترب من ابن درغام وهمس في أذنه وانحنى ثانيةً للملك الذي أشار إليه بالاعتدال وانصرف من القاعة تاركًا الجميع في حيرة.

تبعه الحاكم بنظرات استفهام يلازمها إعجاب بإسلوبه الذي يحاكي إسلوب ضابط يمارس عمله في قصر أحد الملوك بتفان، لوهلة ظن أنه من حراس الملك السابق في المدينة ثم تلاشى ظنه لصغر سن الجندي، فإن حراس الملك كانوا متقدمين في السن قليلًا وأقوياء. ثم أدار رأسه لابن درغام ليستجلي الأمر منه فأسرع ابن درغام ليتحدث قبل أن يأتيه سؤال من الحاكم:

— هناك وفد كبير قد أتى لزيارتك يا سيدي، لا يعلم أحد إلى الآن ما يريدونه على وجه التحديد، لكنني أخمن بأنهم يريدون التهنئة كما يريدون الحماية.

— وماذا ينتظرون؟ دعهم يدخلون.

هنا تنحنح أريب فأشار إليه الحاكم بأن يتحدث:

— ينتظرون الإذن من سيادتك أيها الحاكم، أن تسمح لهم بالدخول، لكنني أريد أن أخرج إليهم بعد أخذ إذنك وموافقتك للتأكد من بعض الأشياء لتوفير الأمن لك.

تبسم الحاكم وقال وهو يهز رأسه:

— اخرج يا ابن برهوم وباشر عملك.

خرج ابن برهوم وغاب قليلًا ثم عاد وأخبر الملك بما فعله، أمرهم بعد أن تبادل معهم التحية بترك ما يحملونه من سيوف وخناجر في بهو القلعة لبعض جنود الحراسة والانتظار لحين عودته مرة ثانية ومعه الإذن بالدخول.

انفرج ثغر الحاكم وأعطاه الإذن، دخلوا الرجال على الحاكم وكانوا عشرة رجال من سادات قراهم وأعيانها، باركوا وأظهروا ولائهم للحاكم وطلبوا منه الحماية ورجوه بأن ينضموا لمدينته فيكونوا من أتباعه ورعيته فتتوسع حدوده وتكبر مساحة دولته وعاهدوه على الوفاء والوقوف بجانبه ضد أي عدوان خارجي، فهم ينشدون الأمن والأمان والسلام الداخلي والخارجي، فلقد تعرضت قراهم لغارات كثيرة من بعض القرى التي أنهكتها المجاعات والفقر.

وافق الحاكم بصدر رحب فابتسموا بامتنان واستأذنوه بالانصراف ليبشروا شعوبهم.

***

ذات يوم تذكر الحاكم هذام وعده للرجل الذي كان سجينًا وخرج بعدما انتهت فترة عقوبته فبعث له برجاله فأحضروه للقلعة في الحال. حالما رآه وهبه وجده قد تغير، شكله، ملابسه وملامحه أيضًا، لكن قلبه لم يتغير، ما زال الحاكم هذام الذي زاره وهو سجين، ما يزال قلبه محبًا للخير كما عهده وعرفه.

ما إن أدخله الجندي عليه حتى تبسم له وسأله ماذا تريد أن تعمل؟ ثم سأله سؤال أكثر وضوحًا:

— ماذا تتقن من الحرف أو من الأعمال؟

فقال له الرجل:

— أنا طاهي يا سيدي، أتقن عمل جميع الأكلات المعروفة في مناطقنا، يمكنني بعد موافقة سيدي أن أكون ضمن الطهاة الخاصين بالقلعة.

فجاءه الرد من هذام:

- ستكون طباخي الخاص يا وهبه.

إنّ الرجل النبيل إن وعد يفي، ووهبه وعده بعينيه حين وقف هذام يزلزل أرض المحاكمة يوم حكم عليه بالسجن شهر، فلقد خفف عنه الحكم كما رعى أسرته في غيابه، وهذام يعلم بأنه يريد أن يرد له المعروف وقربه منه، وفي هذا الموقع سيمكنه عاجلًا أم آجلًا من رد المعروف.

أرسلت الشمس خيوطها الصفراء، أضفت على المكان بهجة وألق، الناس تمارس أعمالها بأمان والأسواق تعج بالباعة والمشترون، النوافذ مفتحة، تتطاير الستائر خلفها من حركة الهواء الخفيفة في مشهد جذاب ساحر، تسطع الشمس في السماء فتنعكس أشعتها على بلاط المدينة فيزيد المنظر جمال فوق جمال، راح يمر بين الناس ويتفقد أحوالهم، يدخل ديار العامة دون الأثرياء، يستمع لشكواهم وحكاياتهم، يقابل الشيوخ والنساء والأطفال، حتى الجنود، يصغى للجميع ولم يفوته أن يمر على أنيسة أم جعفر وزوجة وهبه، الجميع شكر في الحاكم، المساواة هي شعاره والعدل هو مبدأه وتوفير حياة كريمة لشعبه هو ما يشغله.

اطمأن عمرو بن ميمون على الحاكم وشعبه، لكن شعورًا بالخوف ما يزال يجثم على صدره، يستبد به من حين إلى حين، بل على طول الوقت ولا يفارقه إلا عند النوم.

لم يفوته أن يتفقد أحوال والدا الحاكم أيضًا، حسام وجوري، تحدثوا طويلًا حول هذام ولم يتحدثوا عن شيء غيره، كانا مثله يخشان تقلب الأمور والقلوب وينضم ابنهما لقائمة الحكام الفسدة الظالمين، إلّا إن ابن ميمون طمأنهما عليه وعلى المدينة مما رآه وسمعه.

عاد لبيته في جهمة الليل، مكدود وحزين ولا يدري لماذا، الشرود هو صديقه مذ قبل هذام بالحكم، كيف وأنا من ساعدته وعملت على إقناعه؟ إن كنت تخشى عليه أو منه هكذا يا عمرو فلماذا لم تقبل بالحكم؟ إن كنت ترى أن هذام محتمل أن تبدل حاله السلطة فلماذا لم تحكم أنت وتتصرف كما تحب أن يتصرف هو؟ تريد غيرك أن يغير ولا تريد أن تتغير أنت أو أن تشارك في التغيير! إنها مهمة صعبة وحمل ثقيل، أعانك الله عليه وعلى نفسك يا هذام.

سكنت عاصفة أفكاره -لكنه سيتذكر مخاوفه وسوف يتأكد من أنها كانت أكثر من مجرد هواجس وأفكار، بل حقائق- حينما سمع وقع أصوات في بهو الدار وانتبه ورنا من الباب

ليسمع بوضوح، اقترب الصوت كثيرًا، إنه في الرواق المؤدي لغرفته، شعر بالخطوات وكأنها خلف بابه، توقع أن يُدفع باب غرفته في أي لحظة، ها هو يدلف لغرفته، إنه والده ميمون، دخل عليه متململ وتبدو عليه علامات الكسل، لم تتشكل محاكمة منذ فترة طويلة، حتى إنه نسي في كثير من الأوقات بأنه ضمن لجنة المحاكمة، لقد أمن الحاكم هذام البلاد ووفر للجميع ما يحتاجونه، لم تعد هناك خلافات ولا تعد القلوب تعرف الحقد والكره، فلقد آخى بينهم دون أن يخي بينهم، بالمحبة والرقة وليس بالسيف والحدة.

_ ٤ _

زواج الحاكم

انفرد أحد التجار وكان اسمه عبادة بالحاكم هذام وتحدث معه حول موضوع واحد وهو الزواج، أسهب في الحديث وأطال وملأ عقل وقلب الحاكم باللهفة والعجلة، حضه على الزواج في أسرع وقت، فإنه اقترب من الأربعين وما يزال أعذب، بلا ولد ولا سند، ثم قال له شيء جعله يعيد ترتيب الأمور وكان من الممكن أن ينسى أمر الزواج إلى آخر العمر، فقد قال له ذاك التاجر:

- يجب أن تتزوج لتنجب طفلًا يكون وليًا للعهد، أمير ابن ملك.

فغضب الحاكم وتغير لونه وقال للرجل أنه لا يفكر في أن يورث ابنه الحكم، إنَّ الحكم اختياري، الشعب هو من سيحدد من يحكمه.

ازدرد التاجر عبادة ريقه خوفًا وصمت هلعًا إلى أن رد إليه الحاكم جزء من شجاعته، رد له روحه بأن قال بجدية واضحة وضوح الشمس:

- معك حق يا رجل، يجب أن أتزوج فقد أخذتني الدنيا من نفسي حتى نسيتها وأنا أحارب من أجلها!

سكت برهة ثم نظر للرجل وقال بمكر وذكاء:

- يُخيل إليّ أنك عندك لي زوجة.

بلع عبادة ريقه ثانيةً ثم أخبر الحاكم بأنه لديه خطة ذكية، أن يعلن أحد مسؤولو القلعة نبأ زواج الحاكم، يزيع في الناس بأن الحاكم قد قرر الزواج وعلى من لديه فتاة تصلح لهذا الأمر، لهذه المكانة الرفيعة، أن يتقدم بها في يوم سيحدده الحاكم بذاته.

انشرح صدر الحاكم لهذه الفكرة وأثنى على صاحبها، بهذا ستتقدم الكثيرات من طبقات مختلفة، وسينتقي هو منهن من يراها مناسبة.

لم يفطن لأمر عبادة، لم يكن يعرف بأنه لعوب بل ملك الألاعيب، لم يخطر على باله بأنه فعل وما زال يفعل الكثير من أجل أن يتزوج الحاكم من ابنته ثريا.

كانا يتبادلان السباب وأوشكا أن يقزفا بعضيهما بأداة دق البراغي عندما دخل عليهما صاحب المكان فجأة، وبخهما عبادة على تهاملهما في أداء العمل وإهدار الوقت فيما لا يفيد، ثم تركهما بعد أن رآهما قد عادا للعمل وزار غيرهما وغيرهما، هو رجل ثري، يمتلك ورش كثيرة ومختلفة المهام، من بعضها ورش لصناعة السيوف وإنما سيوف سلامة مطلوبة أكثر، هو أول من أنشأ ورشة لصناعة السيوف هنا، وأول من عرفه الناس واشتروا منه بالإضافة لجودة صناعته ومتانتها، ربما سيعرض عبادة على سلامة ورسلان مشاركته في العمل مع أنه لا يحب الشراكة أو لربما يعرض عليهما العمل في ورشه كعاملان، لكن ما الذي بإمكانه أن يدفع بسلامة ليقبل أن يكون عاملًا بعد أن كان صاحب عمل؟ إلا إن كان سبب قوي وشيء فوق إرادته.

أصدر الحاكم أمر وكلف راجح بن درغام القطامي بتنفيذه، كانت الأجواء بالخارج هادئة والبلاد آمنة وليلته دافئة هانئة، لكنه رغم ذلك لا يشعر بالسعادة المثالية، يحكم بلاد كثيرة، الشعوب راضية به ومستكينة، فماذا ينقصه؟ فكر طويلًا ثم توصل للإجابة، كانت كلمات عبادة تدق رأسه دق، لا بد من الزواج فهو ما يحتاجه، والديه في دارهما وعمرو صديقه أيضًا في داره، حواليه الكثيرون رجال وخدم وجنود، إلا أنه لا يشعر بالأمان برغم كثرة الجنود والسلاح، ينشد أمان وسلام داخليين، ومن غيرها؟ من غير زوجة صالحة تحبه ويحبها؟ شعشعت الفكرة ونمت في رأسه وقلبه.

بينما كان شاردًا وكاسفًا البال دخل عليه راجح متهللًا ويبدو أن في جعبته أخبارًا سارة.

- أيها الحاكم الع.. .

كان سيقول العظيم لولا أنه تذكر بأن الحاكم يبغض من يبجله ويعظمة، فالعظمة للخالق.

- لقد تم الأمر كما أمرت.

اعتدل في جلسته وتبسم وقال:

- عظيم يا ابن درغام، إذًا ماذا فعلت احكي لي.

وبدأ راجح يقص عليه ما صار، يخبره بأنه دار أولًا على المجموعة المختارة ومسؤولو القلعة وكبار قادات الجنود وأخبرهم بأن الحاكم قرر الزواج ولكنه لا يعرف فتيات، فمن لديه واحدة تناسبه فليتقدم بها يوم كذا، ثم دار على كبار التجار والأثرياء وطبقات الشعب المختلفة وبعضًا من العامة وأخبرهم أيضًا.

شكره الحاكم وراح ينتظر ذاك اليوم القريب والبعيد، ما هذه اللهفة يا هذام؟ ما كنت تعرفها قبل اليوم، أيجب أن يقول لك أحدهم تزوج حتى تتزوج؟ ما الذي كان يصمت قلبك هكذا؟ أهو الحكم؟ أم أمر الشعب؟ لا أدري، على كلٍ إني أتوسم خيرًا بأن الأمور سوف تسير بشكل يسير وصحيح. تبسم بعد أن كان عابسًا يفكر وانتظر ذاك اليوم، يوم كذا، مثل جموع الشعب.

- تفضل يا أبا وجدان.

أشرق وجه وجدان وقفزت من مكانها باسمة تستقبل والدها سلامة. بعد أن أنهيا عملهما اصطحب رسلان سلامة وسار به نحو داره.

جلسوا جميعًا وتجاذبوا أطراف الحديث، أمرًا واحدًا هو ما شغلهم ودار حوله مجمل الحديث وهو زواج الحاكم.

- ليت لي بنتًا أخرى كنت تقدمت بها، لو أنك تأخرت قليلًا في طلبك وجدان يا رسلان؟

ضحك رسلان وأحاط كتفي زوجته الجالسة بجواره وشدها نحوه حتى التصق جسدها بجسده من عند الكتف وقبلها من رأسها وجبينها، راح سلامة ينظر لهما بعطف أبوي ثم قال بحنان:

- أتعلم يا رسلان، لو أن الحاكم تقدم لخطبتها متزامنًا معك لزوجتها لك، لقد أخبرتك في الماضي بأني أخشى على الحاكم من السلطة وهذا رأيي في جميع الناس إن قبضوا على الحكم بآياديهم، ولا أريد لابنتي من يشقيها ويفطر قلبي عليها.

تبسم رسلان ممتنًا وهو ينظر لسلامة ثم وجدان وقال:

- إني لا أرجو من الله شيء غير غفرانه والمباركة في زوجتي وعمرها، أكون جشعًا يا سلامة إن تمنيت غير ذلك.

عاد سلامة لداره بعد أن سلم عليهما وودعهما وقبل أن ينصرف مال على أذن رسلان وقال له:

- غدًا لدينا عمل كثير فلتستيقظ باكرًا، تبسم رسلان وأومأ برأسه موافقًا.

***

ما يزال وضعهما لا يرضيه، هو في قلعة وهما في دار مهترئة جدرانها ويعيشان في فقر مدقع، لا يقبلا منه أي مال، يعمل والده في صناعة المقاطف وكل ما يُصنع من الخوص ويبيعها في السوق ويشتري ما يلزم الدار من طعام وشراب، احتار معهما لكنهما مصممان على رأيهما. قرع عليهما عمرو الباب وجلس بعد أن تبادلوا جميعًا التحية والسلام، ثم أخبرهما بأن ابنهما هذام على وشك الزواج ويجب أن يحضرا يوم عرسه، سيكون حفلًا استثنائيًا، ستأتي الجموع من كل القري لتحتشد في فناء القلعة، كما أنها ستكون أول زيارة لوالديه للقلعة وله، إنَّ سعادته ستكون مضاعفة، بل إنه سينتشي فرحًا بمجرد رؤويتهما في القلعة.

فُتحت البوابة الرئيسية بحذر، دلف الرجال بصحبة بناتهم ثم أدخلهم الحراس على الحاكم المنتظر على كرسيه، كان يتململ عليه ويتحرك كأنه يجلس على جمر.

نظر لهن بتوجس ثم أمعن فيهن فاحمرت وجناتهن كالجذوة، ركز على إحداهن وأطال النظر في عيناها فأذعنت لسهام نظراته التي اخترقتها وأطرقت للأرض خجلًا ثم رفعت رأسها شامخة وهزتها لتعيد خصلات شعرها الأسود المتناثر لوضعيته، فعلت ذلك بعذوبة زادتها روعة وأضفت

عليها سحر على سحر. أشار الحاكم عليها وأمر الحراس بأن يصحبوا الباقين مع آبائهن لخارج أسوار القلعة فقد وجد الحاكم ما يبحث عنه، وجد فيها ما تمناه، إنها حسناء، رغداء، شعرها ناعم مسترسل وعيناها سوداوان واسعتان بأجفان جميلة وأهداب طويلة، كانت ليست بطويلة ولا قصيرة، متوسطة القوام، لا هي بنحيلة ولا وثيرة، جسدها مظبوط فسبحان من خلقها وصورها في هذه الصورة وهذه الملامح الصغيرة الرقيقة.

لم يعي بعد أنها تقف لوحدها فسألها أولًا عن اسمها فقالت له ثريا، ثم بعد ذلك سألها عن والدها، من هو وأين هو؟ لماذا لا يقف معك هنا؟

- والدي هو التاجر عبادة ويقف بالخارج.

عبادة؟! تبسم الحاكم وأمر أحد الحراس أن يناديه فدخل عليه وهو يجر بعضه خجلًا، فلقد فهم الحاكم الآن بأنه اقترح عليه فكرة الزواج كي يزوجه من ابنته. في موقف غير هذا كان سيوبخه وربما تصل معاقبته لحد المحاكمة، إلا أن ابنته شفعت له، جمالها أخاذ ولا تضاهيها أي فتاة في الواقفات قبل قليل في جمالها وحسنها، ابتسم في رضا عندما فهم بأن عباده كان لا يشك في أن الحاكم سيختارها هي، فلقد كان واثقًا من ابنته ولذلك اقترح على الحاكم الزواج، قطب حاجبيه وهو يفكر ويقول لنفسه: ماذا لو أنها متفقة مع والدها؟ لا أريد زوجة لعوب، ثم لماذا يخطط عبادة لهذا الأمر؟ أيحتاج لمال؟ إنه لديه ما يكفي لعمرين فوق عمره، أم يريد السلطة؟ سنرى ما تنوي فعله يا عبادة.

انتهت المقابلة وأمر الحاكم أريب بن برهوم ببدء التجهيز ليوم العرس، لم يتوانى ابن برهوم وشرع يبدء في التجهيزات، ودار المنادي ينادي في الناس:

- يا أهل قرية الحكيم، اصغوا إليّ جيدًا واسمعوا الخبر وركزوا، إن حاكمنا أطال الله في عمره سيتزوج بعد شهر وقد أمر بفتح بوابات القلعة الثلاث للشعب، فمن أراد أن يأتي فليأت ومن لم يرد فهو الخاسر، فلن يشاهد الحاكم عن قرب ولا الاحتفالات ولا يخشى شيء، فإن أراد المكوث في داره فلا شيء عليه.

صاح الناس في القرية واختلطت أصواتهم، الجميع في سعادة بالغة، نبأ زواج الحاكم هدهد أرواحهم وأسعدهم كأنه فرد في عائلاتهم، لقد عيشهم في أمان ووفر لهم سبل الراحة في المسكن والمأكل والملبس، كما أمر بعدما زارته الوفود المختلفة من القرى المتناثرة من حوله بتوصيل قريته بالقرى الأخرى عن طريق طرق أكثر أمان ويسر في عبورها وإنشاء الجسور وشق ترع فرعية من النهر للزراعة وغير ذلك، لقد سهل عملية الوصول والتواصل بكل القرى.

جميع من في القلعة سعداء إلا أريب بن برهوم، الذي بدا منذ أن فكر الحاكم بالزواج حزينًا ومضطربًا، كانت تستعريه أفكار حول الحكم، يطمع ويطمح أن يحكم كل البلاد التابعة لقريتهم ويحكم قريته، لكن كيف وهذام في الحكم؟ وكيف وهذام سيتزوج وينجب وليًا للعهد؟ إن كان يقول بأنه لن يورث ابنه الحكم وإنه سيكون باختيار الشعب فهو يقول هزرًا، سيعتاد الإمارة وسيخشى أن تفلت من إسرته من بعده وسيخشى على أبناءه من الشقاء، سيجعله يحكم في حياته ليجعلنا نذعن لرغبته مرغمين وإن كنا غير راضين.

مر الشهر سريعًا وتزوج الحاكم، لقد كان يومًا استثنائيًا بحق، لم تشهد القرية يوم مثله، فُتحت البوابات ودلفت جموع الناس، علقت الزينة وعلت الأضواء وكثرت الأهازيج والصخب، احتفل الجنود والعامة وكبار رجال البلاط والساسة والأثرياء بزفاف حاكمهم العادل إلى الآن هذام بن حسام، بعد انتهاء مراسم الزفاف انتحى هذام بوالديه وأقنعهما بالمكوث في القلعة وأظهر توسلًا وترجيًا فوافقا وفي نفسيهما شيئًا من ضجر ولكنهما اتفقا بأن يفعلا له ما يسعده الآن، فهذه أيامه، ثم يرحلون لدارهما في المستقبل القريب.

_ ٥ _

سلامة

فاتت شهور وكل شيء يسير على ما يرام والأمور مستقرة إلى أن أرسل عباده أحد رجاله لورشة سلامة.

- كيف حالك يا سلامة وأنت يا رسلان؟

سمحا للرجل بالدخول والجلوس بعد أن ردا عليه تحيته، أخبرهما بأن عبادة يعرض عليهما العمل معه ولكنهما لم يوافقا، مما دفع عبادة للتفكير في الخلاص من سلامة فهو من علم رسلان الحرفة وهو من يتقنها، أما رسلان فليس سوى مساعد.

قرب يوم الاحتفال، قررت كل طوائف القرية إقامة احتفال كبير في قلعة الحاكم بمناسبة ذكرى تنصيبه ملك على القرية، تزامن هذا اليوم مع يوم ولادة زوجة الحاكم ثريا لطفل وهو باسل كان هذام هو من اختار له الأسم. فقد كان يأمل أن يكون هكذا باسلًا، إن طالت الأيام ودارت رحى الحرب من بعده.

كان يومًا فريدًا، ليلة غير كل الليالي، طفل وسيم قد شرف للدنيا وأنار القلعة بل أنار الدنيا كما كان يردد الحاكم وهو سعيد، بينما كان آخر حانقًا متوجسًا من جعل الحكم حكر على آل دار الحاكم هذام. فلقد جن جنون أريب بن برهوم وفكر فعليًا بالخلاص من الحاكم وإزاحته عن العرش ليحكم هو.

لمح بعينيه الثاقبتين عبوس على وجه قائد الجيوش والمسؤول الأول بعد الحاكم خزاعة بن النضر وهذا بعد أن مر عام وأنجبت زوجة الحاكم طفلًا آخر وهو المغيرة. وأدرك بفراسته بأن خزاعة لم تسعده الأحداث، فأخذ يتحدث معه على مهل وحذر خشية أن يكون مخطئ في تقديراته

وتحليلاته فيشي به للحاكم ويعدم. جره في الحديث واستدرجه حتى أخرج كل ما في جعبته، كان هو الآخر يخشى من حدوث الأمر، جعل الحكم بالوراثة، لكنه كان لا يفكر في أن يكون الحاكم، فمنصبه يكفيه ويرضيه إلّا أنه خشي من أن يأتي حاكم جديد ويقيله فتلاقت أفكاره مع أفكار أريب بن برهوم، اتفقا أن يتخلصا من الحاكم ويتسلم ابن برهوم زمام الحكم ويبقي على خزاعة في مكانه وقيادته للجيوش.

لم تكن نية أريب هكذا منذ البداية، حين أتى مع من أتوا متأخرين من الأرض القديمة بعد موت ملكهم وانتشار الأوبئة، لكن طويته لم تسلم من الجشع المادي الذي يصيب بعض البشر، كما أن الغيرة عرفت سبيلًا لقلبه فتحولت حاله.

سيتذكر رسلان لمعة عيناه التي كانت تنبئ عن خطر آت، كأنه كان يودعه يوم أمره سلامة بالذهاب لداره ولزوجته التي تنتظره، بينما هو سيبقى قليلًا كعادته يلملم أغراضه والآلات المتناثرة هنا وهناك ثم يغلق الورشة ويعود لداره هو الآخر. وحيدًا في داره لن يفتقده بشر ولكن ماذا عن الجدران؟ المقاعد الأدوات؟ ماذا عن سيفه وحصانه؟ ستفتقده الأشياء في داره وسيفتقده عدد قليل من البشر خارجها، ابنته وجدان وزوج ابنته ومساعده المخلص رسلان وأناس آخرون عرفهم والتقى بهم، ربما سيفتقدوه قليلًا لكنهم بالتأكيد سيعتادون على فراقه وسوف ينسونه كما هي الحال دائمًا مع الموتى.

- اذهب أنت يا رسلان وأنا سأنهي بعض الأعمال هنا ثم سأرتب الأشياء وأغلق الورشة وأذهب لداري.

لا يعلم لماذا الآن بالذات وفي هذه الليلة يشعر بالقلق، يستبد به إحساس قاتل، شعورًا بالفقد والعجز معًا، نظر لوالد زوجته وقال له بإخلاص:

- انتبه لنفسك جيدًا يا أبا وجدان.

رمقه سلامة بنظرة تعجب ممزوجة باستفهام وقال:

- لا تقلق يا رسلان... لا تقلق.

عاد رسلان لداره وما هي إلا دقائق قليلة وغط في النوم وراح آخر يلاقي مصيرًا مفجعًا.

- أعد عليَّ ما حفظته لك يا زيد.
- إن سارت الأمور على عكس ما نخطط له وقُبض عليّ فأنا مَن فكرت ودبرت وقتلت سلامة ولا تعلم أنت عني شيء غير أني أعمل في ورشك، في مقابل أن ترعى أسرتي في غيابي، إن كنت قتيلًا أو سجينًا.
- جيد... الآن اذهب ونفذ ما اتفقنا عليه.

أغلق سلامة ورشته ثم اتخذ طريقه نحو داره، فاجئه زيد عند نهاية زقاق معتم وضيق وكان ملثم بخنجر مسموم غرزه في صدره من جهة اليسار فخر على الأرض ينزف وينزف حتى فارق الحياة.

عاد يلهث بعد ركض طويل ودلف لداره وتلحف غطاءه ونام كأن باله خاليًا ولم يؤذي ذبابة.

توجه في صباح اليوم التالي لعمله منتشيًا بالظفر ثم أبلغ عبادة بما صار فكافئه بمبلغ لا بأس به من المال.

شاع الخبر سريعًا ووصل دار رسلان قبل أن يذهب للورشة كعادته، أحاطت الدار غيمة حزن شديدة، جاهد رسلان ليبدو متماسك كي يستطيع مجاراة الأمور وإتمام مراسم الدفن والسبب الأساسي كان لكي لا تنهار زوجته التي بدت متماسكة قليلًا لتماسك زوجها المفتعل. انتهوا من دفنه وعاد كل إلى مكانه، راح رسلان يخفي كمده بكل ما فيه من قوة وأخذ يهون على زوجته ويواسيها بقدر ما استطاع حتى أغمضت جفناها وهدأ أنينها وحنقها وبدت له أنها استسلمت لوهنها ونامت فنظر لوجهها البريئة ملامحه بشفقة، ثم فتح باب الدار برفق وأغلقه وراءه بتوأدة، بعد ذلك خرج وسار في شوارع القرية لا يلوي على شيء ولا يدري وجهته.

رفعت جفناها فور سماعها صوت المزلاج الخارجي يغلق، عرفت أن زوجها استبد به الحزن لدرجة لا تطاق فقرر الهروب، يهرب مماذا ولماذا؟ أيستطيع أحد في هذا العالم المليء بالحزن أن يهرب منه؟ إنَّ الحزن يلاحق من يفكر كثيرًا، يسعى وراء ذوي المشاعر والأحاسيس، إن كان

المرء لا يبالي فلن يتألم، إنَّ الوعي بالأشياء بؤس في حد ذاته. كانت تحبس شلالات من العبرات داخل جدران شيدتها بصمود زوجها وأقامت عليها بوابة ضخمة بملامحه الصلبة وحارسًا قويًا بوجوده بجوارها، أما الآن وقد بدا كل ذلك مزيفًا، بعدما أظهر ضعفه دون أن يظهره فآن أوان البكاء، انهار البناء واختفى الحارس وفرت الدموع الحارقة لتترك القلب باردًا، بردت أعصابها وأوصالها عقب انهمار الدموع على وجنتيها، فشعرت برعشة برد قوية تسري في ظهرها وجسدها، بدأت في السعال والتأوه وشعرت بحرارة وسخونة تلفها، برودة داخلية تثلج أعصابها وسخونة خارجية تفتك بها. ظلت هكذا حتى الصباح تعاني ألم المرض وتقاسي مر الحزن وتحمل هم زوجها الذي خرج ولم يعد.

ظل يطوف الشوارع هائمًا، ينتهي به شارع معتم بزقاق أكثر عتمةً وظلامًا حتى استقر به الأمر على الرمال الدافئة فوق أرض منبسطة قرب النهر، جلس ينظر ويتأمل في مياهه الزرقاء التي بدت سوداء بفعل الظلام، كانت ليلته مظلمة قاتمة، لا قمر فيها ولا سلامة، بائسة موغلة في البؤس، نائية عن الأفراح.

أمال رأسه على ساقيه وأحاط ساقيه بساعديه وانخرط في البكاء حتى أحس بالدموع الدافئة تبلل دفتي وجهه ولحيته الخفيفة فرفع عينيه يختلس قبس من نور الشمس التي ظهرت في السماء لينير بها ظلمة قلبه ولكن الظلام بداخله كان دامسًا والحزن لم يترك للسعادة مكان واليأس طرد الأمل بعيدًا كبعد الشمس عنه.

عاد رسلان لزوجته ولم يعد سلامة، لم يعد سلامة موجودًا من الأساس، ما كان ذنبه لتغتاله تلك اليد الباطشة الظالمة؟ أجابها زوجها بكلمات تعزية ومواساة فهدأت وسكن نواحها بعدما حدثها وكان بجوارها طيلة النهار الذي تلى الواقعة.

لم ينم رسلان طيلة الليل، ظل يفكر وهو ممدد بجوار زوجته، أخذ يقلب الأمور ويزنها ليصل لنتيجة عقلانية، كان يحدث نفسه:

- سلامة لم يكن له أعداء، فمن يا تُرى المستفاد من قتله؟. ضاقت به السبل وتلبط في أمره إلى أن تذكر شيء.
- نعم هو.. لا بد وأن يكون هو من فعلها أو أحد رجاله، فمذ عرفت سلامة لم أعرف له أعداء أو أعلم أحد يبغضه، كان يريده أن يعمل معه لأن صناعة سلامة كانت أجود من صناعته والناس تطلبها أكثر، إنَّ عبادة هو الفاعل... يجب أن أفعل شيء، لن أترك دمك يضيع هدر يا سلامة.

انتهى رسلان لنتيجة عقلها واقتنع بها وهي أن قاتل أبا زوجته هو التاجر عبادة، فقرر الذهاب للحاكم وإخباره قبل أن يتخذ إجراء مغاير، فلقد ومضت في ذهنه فكرة أن يقتله ولكنه عدل عنها لعلمه بأن جزاء القاتل أن يقتل والحاكم مشهود له بالعدل. ولكن كيف يعقل أن يحاكمه الحاكم وهو أبٌ لزوجته؟ طرح على نفسه هذا السؤال وثبطت عزيمته ولما ناقش الأمر مع وجدان زوجته لم تشجعه على الفكرة بل على عكس المتوقع نهرته عن هذا الفعل ونهته عن أن يشي بعبادة عند الحاكم، قالت له:

- فلتنسَ هذا الأمر يا رسلان، أبي تحت التراب ولن ترجعه محاولاتك لإثبات ومعاقبة الجاني، ستخسر الكثير إن أنت فعلت ذلك وسأشقى من بعدك إن أصابك مكروه.

اقتنع رسلان برأي زوجته وهو أن يذهب لعمرو بن ميمون ويخبره بالأمر:

- إنه رجل صالح يا رسلان وسيستمع إليك ويسعى لأن يظهر الحقائق.

هز رأسه موافقًا وخرج يقصد دار ابن ميمون.

أحب الحاكم هذام زوجته ثريا كثيرًا وانشغل بها، جائز لأن الأمن مستتب في البلاد والأمور مستقرة فلم يجد أمامه شيء يشغله غيرها فانشغل بها ولكن الأكيد هو أنها أم لصغاره. وصار يخشى عليها من الهواء الطائر، من نسماته التي تهب من النوافذ لتلفح وجهها وتداعب خصلاتها ويغار عليها منها ومن أشعة الشمس التي تتسلل لتغمرها دفئًا، كأن دفئه هو لن تكن له فائدة

بعد دفء الشمس. كل ما هو فيه من حب وغيرة وخشية عليها سيجعله يدافع عنها ويحابي بضراوة ولن يقبل أن تُمس وتُخدش ولو بشق كلمة.

خرج رسلان من داره وقصد دار ابن ميمون، تخبط في أكتاف المارون من جانبه من كثرة شروده، إنَّ الأمر يشغله كثيرًا ويقلقه، إن مات سلامة ميتة طبيعية ما كان سيتركه في كل تلك الحيرة ولكنه قُتل ويجب أن يسترد حقه، من الضروري معرفة القاتل ومعاقبته.

طرق الباب ولم يطل انتظاره وانفرج الباب، رحب به عمرو وأجلسه في بهو الدار وراح يقص رسلان عليه ما صار وما فكر فيه.

- ولكنك لست متأكدًا يا رسلان، أخشى أن تكون تظلمه بسوء ظنك هذا ويكون ليس هو من فعلها.

اعتدل رسلان في جلسته وقال بشيء من ثقة:

- محتمل.. ولكن شعوري بأن عبادة هو وراء تلك الفعلة ينمو بداخلي بالرغم من عدم وجود أي دليل.
- وماذا تريد مني أن أفعل؟

أريدك أن تخبر الحاكم... أاا تقص عليه ما حدث وتخبره بأن يبحث في الأمر بنفسه وأكيد سيصل لنتيجة، فبحث الحاكم سيختلف كثيرًا عن بحث العامة.

- حسنًا... سوف أفعل.

انصرف رسلان وترك ابن ميمون وقد توترت أعصابه وراح يحدث نفسه: أحوال الحاكم تغيرت في الفترة الأخيرة، خصوصًا بعدما تزوج، ما عاد يسأل عن أخبار القرية ولا القرى الأخرى ولا يشغل باله بالمسائل الإدارية، فلقد ترك لي زمام الأمور واكتفى بكونه حاكمًا بالاسم. ولكنه الحاكم وسيبقى كذلك، لا أعتقد بأنه سينشغل بأمر رسلان، بل إنني أخشى من أن يغضب من رسلان ويحاكمه بتهمة الافتراء على الغير أو أي تهمة فإن الحكام لا يغلبون في تدبير مثل

هذه الأمور. أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا والأفكار تعصف برأسه إلى أن أخذه التعب وانهد على سريره وغط في النوم.

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

الخذلان

في الصباح غادر منزله وقصد القلعة، سمحوا له الحراس بالدخول إلى أن وصل للمكان الذي فيه هذام وحكى له ما قاله رسلان واقترح عليه أن يبعث لعبادة ويستدعيه على وجه السرعة كي ينظروا في الأمر.

امتقع وجه الحاكم وحدج عمرو بن ميمون بنظرة ازدراء أربكته، من متى والحاكم هذام يتصرف معيّ هكذا؟ إني ألاحظ تغييرًا ملحوظًا في تصرفاته ولكنني عمرو بن ميمون، صديقه وكنت أقرب شخصًا للحكيم وعضو أساسي في بناء هذه القرية! لماذا ينظر إليّ هكذا؟ لأول مرة أراه غاضبًا بقوة هكذا. شرد بفكره قليلًا ثم نظر للحاكم وقد ارتسمت على وجهه علامات الاستفهام. فقال له الحاكم:

- ماذا حدث لك يا ابن ميمون؟ أنسيت من هو عبادة؟ ألا تعلم بأن ابنته زوجتي؟! ثم... ثم من رسلان هذا لتهتم بأمره وتضيع وقتي في الحديث حوله؟ أنصحك يا عمرو ألّا تذكر لي هذا الموضوع ثانيةً، لولا أنك عمرو لكنت تصرفت معك بشكل آخر.

شحب وجه عمرو وقطب جبينه وقال باقتضاب:

- يبدو أننا أخطئنا يوم نصبناك حاكم علينا، نسيت وصية الحكيم وكلماته حول الظلم يا هذام.

اتقدت عيناه وثار حنقًا وهو يقول بسخرية:

- الحكيم الحكيم... كفاك يا عمرو، كفاك ذكرًا له، إنه تحت التراب وأنا فوقه، أنا الحاكم وليس هو، ثم كيف تجرؤ أن تقول في وجهي بأنكم أخطأتم بأن نصبتونني الحاكم؟ اسمع يا عمرو، لولا مكانتك عندي لأمرت الحراس بأن يعتقلوك ويزجوا بك في السجن،

إن أردت أن تحفظ مكانك في القلعة وتحفظ حياتك كف عنك لسانك ولا تخوض في ذلك الأمر، شأن عبادة شأن زوجتي الذي هو شأني، أفهمت؟

هز عمرو رأسه تحسرًا وزم شفتيه ثم أغمض عينيه وبدا عليه أنه سيسقط مغشيًا عليه من الإعياء ثم تحامل على ما ألم به وقال بجدية ممزوجة بندم بعدما تذكر أفكاره وهواجسه حول هذام:

- خسارة يا هذام... من السيء أن تخسر القرية رجل مثلك، لقد كنت عظيمًا بإخلاصك ووفائك برغم قلة مناصبك، الآن أنت...

سكت برهة فقد أخذت ملامح هذام تعبس أكثر وعلامات التهديد بادية على محياه. أكمل بين نفسه:

- الآن أنت وضيعًا بخيانتك للأمانة واتخاذك طريق الظلم والجور برغم علو مكانتك، أنت ضئيلًا بلقبك الكبير ونكرة برغم معرفة الجميع بك.

أردف عمرو بنبرة تودد:

- السيطرة على الناس تكون بحبهم يا هذام، عاملهم بحب تمتلكهم، سر بينهم بالعدل تحبك القلوب والأفئدة، لقد كان الحكيم يحكم بدون ألقاب، بدون كراسي ومناصب، يحكم بقلبه فحكم قلوبهم وعقولهم، سيطر علينا بدون سيف، كان مخلصًا وصادقًا في قضيته والعدل هو سيفه يا هذام، إن حكمت اليوم بسيفك وكرسيك فلن تحكم غدًا وأؤكد لك هذا.

لم يستمر تقريع ابن ميمون للحاكم هذام طويلًا، فقد كانت ملامحه جادة ونبرة التهديد بالسجن بادية على وجهه، عرف أن من السهل عليه أن يأمر بسجنه ولن يخالفه أحد.

ليس في يده شيء سوى أن يستقيل من منصبه، لم يرض أن يكون عضو في مؤسسة ظالمة، لا شيء سيردع هذام عما ينوى فعله، فالتنازل عن مكانته في القلعة خير وسيلة لإظهار رفضه لسلوكيات الحاكم، كما أنه لن يشعر بأنه يسير خطأ، إنَّ السكوت على الظلم ظلم والسير

بمحاذات الظلمة ومعهم دون نهيهم عن أفعالهم الظالمة؛ إنما هو مشاركة في الظلم، يجب أن يتخذ موقف معادي للحاكم، يتخذ إجراء يخلص ويصفي به طويته من الذنوب وأدران النفس. استقال من منصبه لأنه لا يريد أن يشارك الظالم في ظلمه، لن ينسى كلمات الحكيم التي ترن في إذنيه، بهذا يرتاح قليلًا مع إن قلقه قد ازداد وخوفه على القرية وشعبها وعلى هذام أيضًا اشتد وتضاعف، لا يعلم كيف يتصرف لينكل هذام عن تصرفاته الغريبة في الفترة الأخيرة، لقد تبدلت حاله كثيرًا بعد الزواج.

ظل مطرق الرأس يفكر وهو يسير في طرقات القرية حتى وصل لدار حسام وجوري والدا الحاكم، لقد عادا لدارهما بعد زفاف الحاكم بفترة قصيرة، كما أنهما لمسا تغيرات في الحاكم وفي سلوكياته فرحلا خوفًا من مغبة الظلم الذي خاض فيه ولدهما، تحدثوا طويلًا وحكى عمرو لهما عما صار مع سلامة وعبادة وتجاهل الحاكم للموضوع، بل وتهديده إن هو فتحه ثانيةً، اخذوا يدعون له جميعًا بالهداية. لا شيء في آياديهم غير ذلك.

***

زار ابن ميمون دار رسلان وقص عليهما ما صار بينه وبين الحاكم ونصح رسلان بالصمت لأن هذام بدا واضحًا في موقفه ولن يدخر جهد في إيذاء من يحاول العبث معه ومع عباده وابنته.

_ ٢ _

ولادة كائن أخضر

خرج رسلان مع عمرو وتركه يذهب لداره وذهب هو نحو الأحراش التي تسبق الغابة وجلس على الأعشاب ولمعة عينا سلامة لا تفارقه، لقد كان يشعر بالقلق وصدق شعوره. سمع رسلان خشخشة تأتي من الغابة، وصوتًا غريبًا، ليس صوت حفيف أوراق الأشجار أو هدير حمام أو طيور، إنه صوت أزيز يقشعر منه البدن، ازداد الصوت وارتفع مما دفعه لأن يترك المكان ويفر نحو القرية ناسيًا عبادة والحاكم وسلامة وكل شيء، وصل داره يلهث وقص على زوجته التي استفسرت عن الأمر وما حدث معه وله. فلقد كان يلهث بقوة، بيدَ أنه كان يهرول.

- وماذا تظن أن تكون تلك الأصوات يا رسلان؟

لا أعلم، لكني لا أعتقد بأنها صوت بشر.

إضطربت وجدان وإختلجت شفتاها وهمست بخفوت:

- ليس صوت بشر؟! وماذا سيكون؟

وضع رسلان راحة يده اليمنى على ذقنه وسرح بفكره ثم قال:

- لا أعلم، وكيف لي أن أعلم؟ محتمل أن يكون حيوانًا مفترسًا أو شيء نحوه.

أدار رسلان ظهره لزوجته واستعاد تردد الصوت في أذنيه وأخذ يبحث له عن تفسير لكنه لم يتوصل لشيء فنسي الأمر بعد أن هدأ من روع زوجته وناما.

ازدادت حدة الأصوات واختلفت وسمعها جميع من في القرية والقرى الأخرى، فلقد ارتفعت وأصبحت مصدر إزعاج، تحدثت الناس كثيرًا حول هذا الأمر، منهم من قال بأنها حيوانات ومنهم من ردد بأن هناك لصوص تريد أن تبث الرعب داخل النفوس ومنهم من قال بأنها

أشباح، فالأرض تدنست بالقتل وكثرت المشاكل وسرى الظلم بين الناس، صدقّت الناس ما يقال وكذّبت ولم يتوصل أحد لنتيجة عقلانية تدخل العقل ويصدقها القلب.

بعث الحاكم بجنوده تمشط القرية وتطوق منطقة الغابة وما حولها بعدما كثرت شكاوى العامة، ساروا في كل شبر فيها ونظروا وبحثوا جيدًا ولم يعثروا على شيء. وعندما وصلوا القرية وحكوا للناس وطمئنوهم عاد الصوت المقزز يصدع الرؤوس ويخيف القلوب. كان الصوت يهدأ قليلًا أثناء الليل، وفي ساعة محددة بعد منتصف الليل يتحول الصوت لمثل طنين واطئ بالكاد يُسمع لمن يسترق السمع.

ومضت في ذهن رسلان فكرة أن يذهب للغابة وحده عندما يسمع ذاك الطنين، فلقد حدثه قلبه بأن هناك أمرًا ما يحدث، ربما روح سلامة تهفهف في المكان وعادت لتنتقم بنفسها بعد أن عجز رسلان وخذل الحاكم الشعب وبدأ في الظلم البين وخان ونقض كل العهود.

اطمأن أن زوجته قد نامت وخرج بعد منتصف الليل والطنين يدوي في أذنيه، قصد الغابة برغم جل مخاوفة، شيء عجيب يحركه، دافع قوي كان يحثه على أن يكتشف ما يحدث، شيء ما يجذبه نحوه من الغابة.

وصل للأحراش ثم توقف، راح قلبه يخفق بشدة وشعر باضطراب رهيب قرر على إثره الهروب ثم عدل عن ذلك التصرف وأخذ يبث في نفسه الدأبة والشجاعة وتقدم ببطء، كلما تقدم وقرب الصوت أكثر ووضح كلما ازدادت دقات قلبه وارتعشت أطرافه. دخل الغابة وكانت ملونة بلون واحد وهو أسود قان، مظلمة وقاتمة ووعرة، يكاد لا يرى حتى كف يده، استشعر بحسه وأذنيه مكان الصوت ومصدره وتابع طريقه بين الأشجار حتى أحس بأن مصدر الصوت أمامه مباشرة لا يفصل بينهما إلا ربما شجرة أو شجرتان وعدة أمتار، توارى خلف شجرة عريضة ومال بجذعه قليلًا واشرأبت عنقه تحمل رأسه الذي أطل به ليستطلع الأمر.

ذُهل وشهق شهقة خفيفة وكتمها بيده مسرعًا، وضع يده الثانية على صدره من أثر هول المفاجأة، أخذ صدره يعلو ويهبط، تسارعت أنفاسه بشدة، هدأ قليلًا فنظر ثانيةً ليستعلم عن ذلك الشيء الغريب.

سحب نفسه ببطء وكان حذرًا من أن يصدر عنه صوت خشخشات على الأوراق اليابسة أو حفيف ملابسه، سار بخطوات قصيرة وراح يتلفت خلفه بين الفينة والفينة، هرول مسرعًا بعدما خرج من الغابة وتجاوز منطقة الأحراش ولم يتوقف إلا عند باب بيته، وقف لدقائق يسترد أنفاسه وهو مستند بظهره إلى الباب، تلفت حواليه فلم يجد أحد، القرية غارقة في الظلام والجميع نيام، أخرج مفتاحه من سرواله وأداره في القفل وفتح المزلاج وانتبه وهو يدفع الباب برفق كي لا يأز وتسمع صوته زوجته فتستفيق، دلف للداخل وأغلق الباب خلفه وخر على أقرب أريكة وقد هده ما رآه.

في الصباح قص على زوجته ما رآه وسمعه، في البداية لم تصدقه ولكنها لم تعهده يكذب، لكن كلامه لا يُعقل، ما يقوله خارج عن تصور البشر وخيالاتهم، إنه يشبه كثيرًا الحكايات القديمة عن الأساطير، تلك الخرافات التي كان الأجداد يحكوها للصغار من باب التسلية، فكرها ذلك بما قاله لها والدها سلامة وهي صغيرة لم تتجاوز السابعة من عمرها عن ثعبان ضخم ظهر في صحراء ثم زحف على أهالي قرية والتهم نصفها بينما فر الباقين، ثم تضافروا فيما بينهم ونصبوا له فخًا، فقد جمعوا أخشاب كثيرة ووقف جمع من الشباب قبالتها وما إن ظهر الثعبان الضخم وأخذ يزحف نحوهم حتى تفرقوا بمثل ضوء البرق سرعة، ووقف الثعبان على الأخشاب وعلق في الشباك التي تدلت من الأعلى، ثم أضرموا فيه النار حتى التهمته كما التهم أقاربهم ومعارفهم.

- لا يمكن أن يكون ذلك حقيقي.
- ألا تصدقيني يا وجدان؟
- بلى أصدقك ولكن... ولكن ما تقوله يستحيل على عقل أن يستوعبه.

- أقول لكِ بأني رأيته بعيناي وسمعت صوته، ذاك الصوت الذي سمعناه لأيام ولا يزال نسمعه، إنه صوته.
- إني لا أماري فيك أو في صدقك، لكني لا أستوعب ما تقول، إنه شيء مستحيل.

وقفت وجدان وتحركت صوب النافذة ونظرت للعنان وهي تقول بشرود:

- إنك تقول بأنكَ سمعت صوت طنين، ثم ذهبت لتستجلي الأمر، ودخلت الغابة فإذ بك أمام شيء أو كائن لست تدري.
- لم أستطع أن أميزه في الظلام، أقسم لكِ.

نظرت وجدان لزوجها وأردفت باقتضاب:

- ثم وجدت أضواء خضراء تخرج من عيناه، هذا إن كانت له عينان، وكان ينمو أمام ناظرك، أهذا يعقل؟ كائن ينمو بهذه السرعة؟

اقترب رسلان من زوجته وأمسكها من ذراعيها وقال بحنان:

- هذا ما شاهدته ويجب أن تصدقيني، إنَّ قلبي يرتجف يا وجدان، أشم رائحة الخطر وأشعر بانقباض بصدري وارتعاشة في أطرافي وهذا الشعور والرائحة الخطرة قد داهماني قبل ذلك وبعدها قُتل والدكِ. أشعر بأن هذه القرية باتت على حافة الهاوية، على وشك السقوط في قاع بئر غائر وسحيق جراء أفعال من فيها، الظلم يهلك أهله يا وجدان... الظلم يهلك أهله.

انخفضت حدة الأصوات التي تأتي من الغابة ولكنها ما زالت تُسمع لمن يسترق السمع ويرنو جيدًا، راح سلامة يقص على الناس ما رآه والناس تكذبه وتتهمه بالجنون، واحدًا فقط صدقه بعد زوجته وهو عمرو بن ميمون، فقد كان يشعر بالقلق هو الآخر وتنبأ بشيء من هذا القبيل ولكنه لم يتوقع سرعة حدوثه، كما أنه ليس متأكدًا من ذاك الذي في الغابة ولا يعلم هويته.

_ ٣ _

أنت السبب في هلاكك

كيف سيقام الاحتفال والقرية تشهد أوضاع غريبة وتطورات غير مسبوقة؟ كما أن الحاكم هذام لم يعد ذا حظوة عند العامة من الناس.

كان يوم ذكرى تنصيبه حاكمًا ويوم ولادة الابن الأكبر للحاكم وهو باسل، لكن الآن الأمور اختلفت، تَجبر الحاكم وطغى، هل يحتفلون بظلمه ليتمادى فيه؟ إنهم يعلمون جيدًا بأن الاحتفال سيقام، فقد بدأت التجهيزات بالفعل والقلعة تنتظر ذلك اليوم، الحاكم في سعادة بالغة بأبنائه، ما هي إلا أيام ويقام الاحتفال ومن لم يحضره سيعرض نفسه للمسائلة.

كثرت الاستفسارات وارتسمت الدهشة على الوجوه وكان أمرًا واحدًا يشغلهم؛ كيف نحتفل ونحن في وضع خطر؟ ذاك الذي يهددهم في الغابة ولا تستطع حتى جنود الحاكم القبض عليه، هذا إن كان يُقبض عليه من الأساس، إنه أصوات، مجرد أصوات وكيف يتسنى لبشر الإمساك بالصوت؟!

بعث الحاكم طوال النهار بفرقة من الجنود تستكشف ما الأمر مرة ثانية، إنهم يسمعون أصوات فقط وكلما اقتربوا من مكانه بعد عنهم وآتى من مكان آخر، بُث الرعب في قلوبهم، إنهم أقوياء وفرسان مهرة، ولكنهم الآن لا يعلمون شيء عن عدوهم ولا يعرفون قوته وأسلحته، بل لا يعرفون إن كان موجود حقًا أم لا.

عادوا كما جاءوا منكسي الرؤوس وفارغي الأيدي، وبخهم الحاكم وقرعهم، ولكنه سلم بالأمر في النهاية وهدأ صراخه وانخفض وتلاشى ضجيجه، ثم أمر ابن برهوم وابن درغام القطامي بالاسراع من إنهاء الاستعدادات للاحتفالات.

خلال الأسابيع القليلة التي سبقت يوم الاحتفال تناقل الناس أخبار سيئة، ظلم وطغيان وسباب انتشر بينهم، كما بدأت الناس في التجمهر في الساحات والأسواق لساعات، يتبادلون خلالها الحكايات والقصص، عن تقلب أحوال الحاكم وظلمه وجبروته، فقد ازداد سوءً وضلالًا.

كان كلما حدث ظلم ولو خفي لا أحد يعرف به تناهى للناس دوي صوت كالرعد يأتيهم من جهة الغابة، وأصوات خضم وقطم كالذي يأكل، كأن أحد يأكل في مكبرات صوت ضخمة، كثر الظلم وكثر الضجيج الخارج من الغابة وازداد خوف الناس وتعقدت الأمور بعجرفة الحاكم هذام.

ذات يوم وقبل ميعاد الاحتفال اختلف عبادة مع زيد الذي قتل سلامة حول مبلغ من المال، لقد كبر عمل عبادة وانتشرت ورشه في القرية وكان هذا يحدث بطرق غير شرعية، أكثرها قتل الأشخاص الذين يقفون حاجزًا أمام عبادة والمال، كل عقبة في طريق تكوين ثروة ضخمة كان يزيلها عن طريقه، مرة بالغش ومرة بالكذب ومرة بالمحايلة والنفاق ومرة بالقتل.

وفي كل مرة كان زيد عاملًا أساسيًا في إزالة تلك العقبات والحواجز التي تعرقل عمل عبادة ونموه كما كان السند والساتر القوي الذي يحيل دونه ودون أن يحاكم هو زوج ابنته الحاكم هذام. حتى بات عبادة مكروه من الناس هو والحاكم.

خلال تلك الفترة وبعد سماع الأصوات المجهولة وكلما فعل عبادة فعل وضيع مخزي خسر مالًا أو احترقت له ورشة وهكذا، كأنه إنذار كي يكف عن أفعاله ويتراجع ويتقيد بحدود الأخلاق والدين ولكنه استمر إلى أن حدث شيء عجيب كان حديث الناس وشغلهم أكثر من أمر الاحتفال.

قتل عبادة زيدًا بيده في الخفاء، بعدما هدده بأن يقص على ابنته زوجة الحاكم كل شيء.

- سأقل لها ماذا تعمل بالتحديد، سأكشف لها عن وجهك الثاني.

ازدرد عبادة لعابه في خوف حقيقي، لم يخش أحد ولم يستحي ولكنه الآن أضحى قلقًا.

- لا... ليس ابنتي، لا يجب أن تعلم شيء.

أراد لتلك الصورة البهية التي تراها ابنته بألّا تُشوه. أحس بقرب نهايته كلما تخيل أنها ستعرف الحقيقة.

وفي تلك الليلة، ليلة سفك الدماء، تضاعفت الأصوات ثم سكنت لدقائق ولاح في سماء الغابة ضوء أخضر كثيف وتناهى للجميع صوت أجش يقول جملة غريبة وعميقة في معانيها وما ترمي إليه، كانت الجملة

أنت السبب في هلاكك

ثم عاد الخضم والقطم والصوت الذي يشبه صوت كائن يأكل ويهشش عظامًا بأسنانه. كان حديث الناس بعد تلك الواقعة ليس جثة زيد التي عثر عليها مزارع حين وصل لحقله أو اختفاء عبادة، بل تلك الجملة والضوء الأخضر والأصوات المقززة.

اختفى عبادة منذ تلك الليلة، لم يظهر في داره ولم يزر أي ورشة من ورشه، بحث عنه العمال في كل مكان ولكنهم لم يعثروا عليه. ذهبت مجموعة منهم إلى الحاكم وأخبروه بما صار، نشر الحاكم جنوده في أرجاء القرية والأماكن التي كان يزورها عبادة ولم يعثروا عليه ولم يجدوا له أثر كأنه لم يكن، ما عاد عبادة موجود، استكمل العمال عملهم كما كان والمال يرُسل للحاكم وزوجته ثريا التي بكت بحرقة على اختفاء أبيها، لكنها لا تعرف إن كان قُتل أو رحل ولا أحد يعرف أيضًا.

كثرت زيارات رسلان لعمرو بن ميمون، كان يتردد على داره كل ليلة، يتناقشا طويلًا حول الكائن الغريب الذي يسكن الغابة، يقول رسلان بأنه يعتقد بأن ذلك الشيء أو الكائن هو عقاب من السماء لأهل هذه القرية، فهم يسكنون هذه البقعة من الأرض منذ سنين ولم يظهر خلالها، لم يظهر إلا بعدما انتشر الظلم والجور وبغى الحاكم والحاشية من حواليه وأريقت الدماء.

- فسر ما تقوله يا رسلان.

- ما أود أن أوضحه يا ابن ميمون أن ذلك الشيء هو كائن وُلد من الظلم، أنبتته الدماء الظالمة التي تسببت في اللعنة لذاتها، ثم أخذ ينمو على الظلم، فتفسيري الوحيد بعد الذي شاهدته في الغابة، أنه كان يتغذى على ظلم الناس بعضهم لبعض، فإذا ظلم أحدهم غيره كأنه قدم له وجبة يأكلها فينمو ويكبر، ولكنه غير البشر، يختلف عنا، فطبيعته التكوينية غير طبيعتنا، فهو ينمو بسرعة ملحوظة بالعين، يلتهم فينمو جسده مباشرة، فلقد رأيته بعيناي يكبر ويزداد حجمه. وهو مثل البشر في شيء وهو وقوف نموه عند طول محدد وحجم معين فلا ينمو جسده بعدها وإنما يأكل ليستمر في الحياة، كما نفعل نحن. أي أنه سينتهي إن لم يجد ما يتغذى عليه، وهذا لن يحدث إلا إذا انتهى الظلم. ما دام الظلم موجود فهو موجود. ما دام هناك ظالمون قتلة سيظل هو حي، فهو يعشق دماؤهم الملعونة التي أنبتته ويسعى خلفها.

رفع ابن ميمون حاجبيه وزم شفتيه بعدما عقد ذراعيه على صدره ثم تنهد وقال بشرود:

- تفسير منطقي يا رسلان، ولكن إن صدقت تحليلاتك فهذه كارثة قد حلت علينا، أممم... أتقصد بأن عباده قد التهمه ذاك الشيء يوم ظهور الضوء الأخضر في سماء الغابة؟
- ربما، فبمَّ تفسر تلك الجملة أنت السبب في هلاكك؟. عبادة كان ظالمًا وظلمه كان بين ولقد أتته تحذيرات كثيرة ليتراجع عن أفعاله ولكنه لم يتعظ بها، فلما تجاهل رسائل السماء جاءه العقاب من حيث لا يحتسب وأُخذ على حين غرة ولم تفيده أمواله ولم يجيره سلطانه ولا الحاكم بذاته رد عنه الأذى.
- أممم... أتفق معك في جزء وأختلف، فما تقوله غريب ولكنه يُعقل برغم غرابته.
- أتعلم يا عمرو، برغم ما يحدث.. إني متفائل خيرًا، إن كان ما فكرت فيه صحيحًا فلن يضرني ذلك الكائن ولن يضر الصالحون، بل على العكس سوف ينتقم لنا من الظلمة ونحن في ديارنا، ألم نختار أنا وأنت حول كيفية معاقبة عبادة؟ ها هو قد نال جزاؤه.

- تمهل ولا تتعجل الأمور، فربما ظهر عبادة في يوم من الأيام وضاعت كل تحليلاتك هباء، ربما يكن مسافرًا لقرية من القرى في تجارة ما، فهو كثير الترحال.
- ربما.

قالها رسلان وهو يتجه نحو الباب ليغادر دار ابن ميمون فاستوقفه عمرو وكأنه قد تذكر شيء وقال له:

- رسلان، ما هذا الحق الذي يأتي لأصحابه وهم قابعون في دورهم؟! أعتقد أنه إن لم يبحث المظلوم عن حقه فلن يحضره له شخصًا ما على طبق من ذهب.

قال رسلان:

- معك حق في هذا، لكنني مصر على تحليلاتي.

ثم خرج وعاد لزوجته التي إعتادت على غياب زوجها لفترات طويلة.

_ ٤ _

المؤامرة

في أحد أروقة القلعة يسير ببطء، يتلفت حواليه كمن يخشى شيء، وقف أمام باب إحدى الغرف وكان بداخلها قائد الجيوش خزاعة بن النضر وخطف التفاتة سريعة للوراء فلم يجد أحد، اطمأن بأنه في مأمن من المخاطر والشكوك، فلا أحد يتبع أثره، وضع يده على مقبض الباب وحركه برفق كي لا يصدر صوت ثم دلف للداخل وهو يلقي على الرواق المنطفئة أنواره نظرة أخيرة، هدأ خفقان قلبه وانتظمت دقاته، أوصد الباب خلفه بارتياح ولم يسمع تلك الأنفاس المكتومة خلف الستائر ولم يشعر أو يشتم رائحة الطعام التي تنبعث من ملابس الطاهي وهبه طغى خوفه على حواسه وأفسد عملها كما يفعل الحب بمن يعلق في شباكه فيعميه عن مساوئ من أحبه.

لم يلحظ تلك العينين الفضوليتين اللتين تنظرا باندهاش لمن يتسحب في الخفاء وفي ساعة متأخرة من الليل، سيتذكر وهبه هذا الموقف فيما بعد ويتعجب لكونه شعر بخطر من طريقة حديث أريب بن برهوم معه عندما سأله في الليلة التي سبقت تلك الليلة:

- لماذا تسير في القلعة الآن ولماذا لا تنير الرواق؟

فتردد لثوان قبل أن يجيب:

- أاا... لا شيء، كنت أحرك قدماي قليلًا فلقد أحسست بألم فيهما من طول الوقفة بجانب الحاكم، أنت تعلم أن هذه الأيام استثنائية والظروف عصيبة، ووراءنا عمل كبير غدًا في خضم الاستعداد للاحتفال.

اصطنع وهبه ابتسامة على شفتيه ووهمه بأنه يصدقه ثم أمسك بالمكنسة وراح ينظف الرواق كي يجعله يعود حيثما كان ويفسد عليه مخططه إن كان لديه مخطط، ثم ينتظره هنا غدًا في نفس الساعة وهو متواري خلف الستائر لينظر ماذا يفعل ويكشف سره.

وقف لدقيقة خلف الباب من الداخل وألصق أذنه به بعدما دلف للغرفة فلم تلتقط أذنه صوت أو همس فاطمأن وراح يغدو ناحية خزاعة الذي كان ينتظره وفي يده لفافة.

تحدث خزاعة بخفوت:

- لماذا تأخرت؟ ظننتك لن تأتِ كليلة أمس.

اقترب منه أريب وقال بهمس:

- كنت أتأكد من خلو الرواق من أي أحد، لم أرد أن أصادف ذلك الطاهي اللعين ثانيةً وأمثل أمامه كالمتهم وهو يلقي على رأسي أسئلته السخيفة، إنه... إنه يحسب ذاته شيء له قيمة في هذه القلعة ويظن بأن الحاكم المغفل يقدره.

انفرج ثغر خزاعة بابتسامة باهتة ومد يده لأريب وترك في راحته لفافة وهو يقول:

- دعك منه.

فقال أريب:

- أمتأكد من أنه فعّال؟ إن لم يمت في الحال فسنكون عرضة للمخاطر.

ابتسم خزاعة وهو يقول بدهاء:

- اطمئن فهو فعال ولا تقلق أبدًا، حتى إن لم يكن فعال فلن يشك أحد فينا، فكل الأنظار ستتجه لفريق الطهاة وعلى رأسهم الأحمق وهبه

وضع ابن برهوم اللفافة في جيب سرواله وأمسك بذراعي خذاعة بقبضتيه وشد عليهما وهو يبتسم ويهز رأسه وبادله الآخير نظرات امتنان وابتسامته الشاحبة لا تفارق شفتيه.

عرف المبهم وفهم المعقد، اكتشف الملعوب وتحرك ببطء على رؤوس أصابعه ليقوم بالمطلوب، لقد سمع بعض الكلمات وهو يرنو جيدًا ويضع أذنه على الباب واستشف منها ما يريدان فعله

فانطلق يغدو في اتجاه المطبخ واختبأ خلف طاولة تمكنه من رؤية أريب دون أن تمكن أريب من رؤيته. ومن غيره خبير بخبايا المطبخ؟ فهو المكان الذي يقضي معظم وقته فيه.

لم يطل انتظاره حتى سمع وقع خطوات في الرواق ثم شعر بحفيف ثوبه وهو يقترب من باب المطبخ، ضبط حركة أنفاسه وكتم فمه للحظات، رفع رأسه ببطء فوجده يفض اللفافة ويلقي بالسم بداخل علبة التوابل الخاصة بطعام الحاكم، ثم حركها لتتداخل حبيبات السم مع التوابل ويختفي لونه مع لونها.

انتهى أريب وعاد لغرفته منتشيًا ومنشرح الصدر، لم يشعر بشيء من ضجر أو تأنيب ضمير، تطلعه للحكم كان أقوى من أي شعور.

خرج وهبه والتقط حافظة التوابل وسار بها ناحية غرفته وفي الصباح كان أول عمل قام به أن اتجه للحاكم رأسًا وقص عليه ما صار وأعطاه حافظة التوابل لتكون شاهدة على كلامه.

إنه يوم الاحتفال، لا يريد شيء ولو ذا قيمة أن يعرقل سير الأحداث. وإن كانت الأجواء غير ملاءمة والناس بالخارج غير مطمئنة ولا سعيدة أيضًا، حتى حالة الحاكم النفسية بعد واقعة السم قد سائت ولكن سيقام الاحتفال سيقام، يريد أن يسعد بأبنائه كما يريد أن ينفذ ما قاله وأصدره من أوامر، فأمر بسجن أريب بن برهوم وأجل إعدامه لحين الانتهاء من الاحتفال، لا يريد أن ينشغل ويشغل معه الشعب بهذا الأمر، لكنه ووهبه لا يزالان لا يعلمان الطرف الثاني في المؤامرة، فلم ينطق أريب باسمه أثناء حديثه ولم يهتم الحاكم باستجوابه فإنه سيشي به رغمًا عنه، كما أنه لم يخبره لماذا يسجنه، أرجأ كل ذلك لبعد يوم الإحتفال.

جن جنون خزاعة وتلبط في أمره حين وصله نبأ سجن الحاكم لأريب ووجد الحاكم قوي معافى بعد طعام الإفطار فعلم أنه اكتشف مخططهما فثارت ثورته ولكنها هدأت عندما جلس وفكر بين نفسه:

- لمَّ الخوف؟ أظن أنني في مأمن من الهلاك، إن كان أريب ذكر اسمي لكنت رفيقه الآن في سجنه، لا بد أنه لم يتحدث عني ولا بد من الإسراع من قتله.

داهمته فكرة واحدة وهي قتل أريب قبل أن ينطق اسمه على لسانه ويكون مصيرهما واحدًا وهو الإعدام.

_ ٥ _

يوم الاحتفال

جاءت الوفود من كل القرى المجاورة، مَن هي تابعة للحاكم وغيرها، ليس كل يوم يقام احتفال كهذا الذي سيقام، فُتحت البوابات على مصرعها ودلفت الجموع الغفيرة، تركوا عرباتهم ذات العجلات للحراس وتركوا من جاءوا على خيول خيولهم أيضًا للحراس ليعقلوهم. رجال ونساء وأطفال وعجائز وفرسان وعمال، امتلأت ساحة القلعة الفسيحة بالناس من كل الطبقات وما فتئت الناس تتوافد على المكان.

***

كان يجلس أمام منزله كعادته ويرى صورة مماثلة من مدينته القديمة، نفس القلعة مع تغيير بسيط، حاكم كحاكم، الظلم دربهما والعجرفة طبعهما، الناس كالناس، الجهل يملأ عقولهم والطيبة تسكن قلوبهم، وهو قليل الحيلة وضعيف، فقد تقدم في العمر وتأخر في المناصب بعدما استقال من مكانته في القلعة وخسر علاقته بصديقه هذام ماذا يفعل وماذا يقول؟ لم يعلم أحدًا يريد أن يغير شيء إلا رسلان ولكنهما لوحدهما في مواجهة الطوفان الزاحف ناحيتهما، الباقون راضون مع إنهم غاضبون، لقد حاولا معهم وكان رأيهم وأكثر جملة رددوها: "نحن أفضل حالًا من غيرنا"!

كيف أفضل حالًا؟ إنَّ غيرهم من شعوب القرى والمدن التي يعرفونها يعانون الفقر والجوع وفقد الأحباب أحيانًا ولكنهم لا يعانون فقد الكرامة، إنهم لا يقبلون بالظلم ووجود من يسلبهم حريتهم ولكن شعب مدينتنا راض! مدينة الحكيم لم تعد فيها من يثور كسابق عهدها، رحمك الله يا حكيم، أنفر أنا ورسلان منها ونتركهم؟ ولكن إلى أين؟

أخرجه صوت بكاء طفلة في عربة يجرها حصان بصحبة والداها من بركان أفكاره، لا يعلم لماذا الآن بالذات فكر في هذا الأمر، لقد تقدم به العمر ولم يفكر في الزواج، لا بد لأحد أن يرعاه ويرعى والده ميمون.

راح ينظر للطفلة التي تبدو أنها تبلغ من العمر عام واحد وهو يبتسم فهدأ صراخها وبادلته ابتسامات خفيفة ثم ازدادت فانفرجت شفتاها الورديتان الصغيرتان ونطقت بكلمات مبهمة غير مفهومة معانيها ولكنها وصلت لقلبه وترجمها، كانت تمد له ذراعها وتشير إليه بالاقتراب. اقترب عمرو بن ميمون واستأذن والداها وحملها وهي تبتسم فقبلها من جبينها ثم ضمها إلى صدره وعينيه تلمع بالعبرات الحارقة، أعادها لمكانها وشكر والداها ثم عاد لمنزله وجلس وحيدًا فلقد ذهب والده للحفل، وكيف لا يذهب وهو عضو في فرقة المحاكمة؟.

***

ارتفعت الشمس في كبد السماء واتقدت وغرقت قرية الحكيم بالهرج والصخب، هناك من ذهب للقلعة حيث الاحتفال وهناك من آثر المكوث في داره ولكنهم سرعان ما تركوا ديارهم لتناقلهم أنباء تفيد بأن العاقبة ستكون شديدة لمن لا يحضر، سيعتبره الحاكم عاصيًا وثوريًا، من لم يشارك اليوم في الاحتفال سيثور غدًا ويندد بزحزحة الحاكم عن حكمه، هكذا تصور هذام. اقترب الاحتفال من نهايته، الحاكم في الأعلى وبجواره زوجته ثريا وأبناءه باسل والمغيرة وراجح بن درغام القطامي وخزاعة بن النضر قائد الجيوش، كانت الناس كثيرة، أكلوا وشربوا وشاهدوا الألعاب البهلوانية في فرح مصطنع، كثير منهم يمقت الحاكم ونفسه لحضوره الحفل، لكن ما باليد حيلة.

فجأة انتفض الحاكم هذام واقفًا وقد تذكر شيء فوقف كل من معه في الأعلى ثم تحدث مع راجح:

- أين عمرو بن ميمون يا ابن درغام؟ إنني لا أراه بين الحضور، ألم يأت؟

تنحنح راجح ثم قال بوجل:

- لا أدري يا سيدي، لربما يكون قد حضر وانصرف أو مختفي بين العامة فكما ترى الأعداد كثيرة.

جلس الحاكم ثم قال بعبوس وهو يفكر ويعبث بإبهامه في ذقنه:

- ربما... انزل يا راجح وابحث عنه و... .

تنحنح خزاعة قائد الجيوش فبتر الحاكم عبارته وتوقف عن الكلام ورنا جيدًا لخزاعة الذي قال:

- إني أقترح أن توكلني بهذا الأمر يا سيدي، سآمر الجنود بالبحث عنه وسأبحث بنفسي أيضًا ولكن... إن لم يكن هنا ماذا أفعل؟

فهم الحاكم ما يريد أن يقوله خزاعة فأشار إليه بيده وهو يومئ برأسه أن نفذ.

لم يهتم خزاعة بأمر ابن ميمون ولكنه أراد أن يترك مكانه في الأعلى ويهبط للأسفل حتى تحت الأرض حيث السجون ليقم بأمر قد فكر فيه كثيرًا وأرهقه.

لم يدر الحاكم شيء عما ينوي خزاعة فعله فإنه لم يكن يومًا موضع شكوك فأرسله لتقصي أخبار عمرو دون الإنتباه لنظرات الرهبة في عينيه وتغير نبرة صوته وتهدجه.

وصل خزاعة لصحن القلعة وكانت هادئة وفارغة ثم سار طويلًا في ممر ضيق إلى أن وصل لبوابة ضخمة من الحديد فأمر الحارسان بأن يفتحاها ففعلا، كان قد أخذ في طريقة شعلة نار ليضيء سرداب ضيق مظلم سيسير فيه، تقدم نحو بوابة أخرى أكبر ضخامة واسمك وأشار للجندي القابع أمامها ففتحها وهو يتحاشى النظر لعيني قائد الجيوش المتقدتين وقد قرأ الشر فيهما.

ما زال أمامه دهليز أكثر ظلامًا إلى أن يصل للغرفة القابع فيها أريب بن برهوم غذ الخطى وهو يدس يده في جيب سرواله ويخرج مفتاح كان قد أخذه من الحارس الأخير الذي قابله، كان يحس من قرارة نفسه بشعور وخيم، شيئًا مثل الخزي والعار، وربما فطرته كانت تأمره بالتراجع وأحس لوهلة بأن ضميره يؤنبه لما هو قادم عليه، فتوقف للحظات أمام الباب إلّا أنه طوح بتلك الأفكار بعيدًا وأدار المفتاح في القفل وفتح عدة مزاليج وأدار مقبض من الفولاذ على شكل دائرة فأرسل أزيز قوي جعله يضطرب ويزداد حنقًا وما إن ولج للداخل حتى تنهد ابن

برهوم وبدا عليه بأنه توجل أيضًا عندما سمع وقع أقدامه في الممر ووصله صوت المقبض الفولاذي فتنفس بعمق ثم قال بسعادة وهو يسير نحوه:

- كنت متأكدًا من أنك لن تتركني هنا، هل... هل اكتشف الحاكم الأمر أم أمر بسجني لشيء آخر؟

ارتسمت على ملامح وجه خزاعة ابتسامة مفتعلة وقال بخبث:

- لا، لم يكتشف شيء. والآن أخبرني كيف كان يومك هنا.

وبدأ ابن برهوم يقص عليه ويحدثه عما لاقاه في سجنه وشعر به واسترسل في الحديث. وكان خزاعة يستقوي على مشاعر الرأفة التي تملكته، أخذ يحرك أنامله ويكور قبضتيه ليشد ذراعاه الذان شعر بتخدرهما، كان كلما التقت عيناه بعيني أريب أحس بعاطفة نحوه، شيئًا من إنسانية ينبض بها قلبه، فسرعان ما يبعد نظره عنه كي لا يتراجع، في لحظة بعينها لم يرى أمامه سوى نفسه، حدثه خاطر بأنه إن لم يقتل أريبًا فإنه سيكون القتيل، ووقتئذ فقد تلاشت بداخله أية مشاعر ألفة وتبدلت عاطفة الحب التي كان يشعر بها تجاه أريب لعداوة ليس لها مثيل، وفي ثوان تمثل له موته هو مقابل حياة أريب، فتجسد في جسد أريب الموت ففاضت مشاعر البغض بداخله فأوقفت تدفق الأفكار وتوقف عقله عن نشاطه لوهلة فسدد لكمة قوية للموت الذي أمامه، سدد لكمة في عينه اليسرى جعلته يهوي على الأرض ويضع يده فوقها وهو يتأوه ألما ويصرخ، تفاجأ أريب وحدق متعجبًا لا يفهم ماذا يحدث، عمق المكان وبعده عن الأرض كفيلين بأن يحجبا أي صوت، كما أن القلعة في عالم آخر، لغط وصخب وضوضاء منتشرة بالخارج وإن صرخ ألف عام لن يسعفه أحد، أما عن الحراس بالخارج فسوف يتدبر خزاعة أمرهم.

أغمض عينه اليمنى من فرط الألم ومد يده الأخرى أمامه ليثني خزاعة عما يود فعله ولكن خزاعة لن يوقفه شيء.

سحب خزاعة خنجر من الشريط القماشي الذي يلف خصر أريب بن برهوم ودبه في صدره وظل بجانبه إلى أن تأكد من أنه قد مات، قتله بخنجره ليحكم خطته التي هو بصدد اتمامها. جفل قليلًا ثم عدل من هيئته بعدما أفاق من هذيانه وحالة الفوضى التي اجتاحته وطرق بباطن يده جبينه كأنما ليتذكر شيئًا ما، أو ليكبس ذرًا ما في عقله ليواصل نشاطه مرة أخرى، استجابت أفكاره وقد هدأ خفقان قلبه قليلًا واستعاد شيئًا من وعيه وبدأ في الحراك.

خرج وأعاد القفل كما كان والمزاليج وراح يخطو وهو يلهث ويزفر بقوة إلى أن وصل للبوابة القابع أمامها من الجهة الأخرى الجندي الذي أخذ المفتاح منه وعندما وصلها وجدها مفتوحة فولج من خلالها وأعطى المفتاح للجندي وهو يخبره بأنه وجد السجين قد قتل نفسه بخنجره، لم يصدقه الحارس ويعلم ذلك كما يعلم حق العلم بأن الحارس لن يتجرأ بالخوض في هذا الأمر، تركه وسار ناحية البوابة الأخرى ووجدها مفتوحة أيضًا، لم يتحدث مع الحارسان الذان تبادلا نظرات استفهام، وصل لصحن القلعة مرة أخرى ثم خرج للفناء حيث الاحتفال وقد خفت رهبته وهدأ روعه وراح يبحث بين الحضور عن عمرو بن ميمون فلم يجده فشرع في تنفيذ ما اتفق عليه مع الحاكم بالإشارات، أخذ بعض الجنود وخرج ينشد دار عمرو بن ميمون. كان يلهو في الرمال التي أمامه بعصى صغيرة حين لاح أمام ناظره مشهدًا تكرر مرارًا في الآونة الأخيرة واعتاده، خيول تأتي من بعيد، تهرول نحوه كأنها في رحى حرب طاحنة فتنثر الغبار في كل مكان.

تنهد واتكأ في جلسته وهو يعد كلماته التي سبجيب بها.

- ماذا تفعل هنا يا رجل؟ ألم تعلم عاقبة التخلف عن حضور الحفل؟

نظر لعيني المتحدث وكان خزاعة غير خزاعة الذي يعرفه، كان أضعف شخصية وصوت، فقال بهدوء وهو يعتدل في جلسته:

- لم أعتاد الكذب يا قائد الجيوش، كما لم أعتاد المشاركة في الظلم.

تنهد خزاعة ثم قال وهو يود لو أن يفصح لعمرو عما فعله وحاول أن يفعله، لربما يجد لديه حل للخلاص من الحاكم، فعمرو مشهود له بالحكمة وإن كان مكانه فمن المؤكد بأنه كان سيجد طريقة أكثر آمانًا وفاعلية للإجهاز على الحاكم.

- اعذرني يا ابن ميمون فإني مأمور بإحضارك للقلعة، تعلم مكانتك عندي وتعلم أيضًا مغبة عصياني لأوامر الحاكم.

قال عمرو وهو يستعد للذهاب معهم:

- لا عليك يا خزاعة واطمئن... إنَّ الظلم سيزول وإن طال والظالمون سيهلكون وإن عظمت سلطتهم، فسلطة الخالق أعظم ولن يرضيه ما يحدث.

تبسم خزاعة وازدرد ريقه عندما حدثه ابن ميمون عن الظالمين وخشي بأن يكن من ضمنهم، فلقد قتل روحًا قبل قليل. لم يكن متأكدًا من أنه ظالم أم مظلوم.

جال الحاكم بنظره وهو في مكانه بالأعلى فجاءت عينه على عمرو الذي كان يرمقه بنظرة سخرية ممزوجة بشفقة فالتقت عيونهما وتحدثا طويلًا وطال حديثهما الصامت، قرعه عمرو وهو يحدق إلى عينيه فلم يقو الحاكم على الصمود فرفع بصره عنه وأطرق برأسه قليلًا ثم انتبه لما يحدث فابتسم منتشيًا بالظفر وهو يعيد نظره إليه، يبعث له برسالة مفادها، أن إنني الحاكم ولا سلطة لك، تحضر أو لا تحضر بأمر مني وليس منك.

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

اختفاء باسل

نسي الحاكم أمر ابن ميمون وكل شيء ما عدا البحث عن ابنه باسل الذي اختفى. كان ينظر لعمرو، وزوجته تنظر لفناء القلعة حيث الاحتفال وولداها بجوارها ينظران بفرح طفولي، وكان راجح مشغول بأمور أخرى.

لم ينتبه أحد لاختفائه أو طريقة اختفائه، أشار الحاكم لراجح بوقف كل شيء حتى النفس إلى أن يعثروا على باسل الطفل الصغير.

بحث الجنود والعامة والجميع بمن فيهم عمرو فبادله هذام من الأعلى نظرة رفق وقد شعر بخيوط الصداقة وقد بدأت تتشابك من جديد ولكن القلوب تغيرت وتحجرت والخيوط المتينة ضعفت واهترأت وما فُقد مبادئ وقيم وثقة وليس شيء مادي يسهل تعويضه.

انقطع الحفل ولملمت الشمس خيوطها لتعلن عن نهاية النهار وأرسل الليل خيوطه السوداء لتضفي على القرية بؤس على بؤس، تضفي على المشغولين شقاء ويأنس بها خالون البال من البسطاء أمثال ابن ميمون.

ذاع الخبر سريعًا وانتشر، وقبل أن يخرج أحد من القلعة حدث تفتيش بطيء للعربات وللحقائب القماشية، جرى البحث عن باسل الذي كان يرتدى لباسًا يليق بابن حاكم وعلى كتفيه شال من الحرير، طبق عدة مرات كي لا يمس الأرض. إلى أين يمكن أن يذهب؟ ومن يجرؤ على اختطافه؟ تسائلت الحشود والجنود وزادت الحيرة إلى أن حدث أمرًا خطيرًا أسكتهم وأزال آثار الدهشة والاستفهام عن الوجوه.

كان قد انضما والدا هذام للباحثين، فالمفقود حفيدهما ولكن دون جدوى، حتى ميمون وعمرو ورسلان كانوا يبحثون بجدية بالغة. فلا ذنب للصغير فيما يفعله والده.

توقف البحث داخل القلعة قليلًا عن باسل وذهب الجنود ليبحثوا عن قائدهم خزاعة فقد اختفى هو الآخر.

قال البعض بأن قائد الجيوش هو الخاطف، ولكن بماذا سيستفيد من خطفه؟ لا لا، إنه ليس هو... لا يمكن أن يكون هو، قالها الحاكم بتهكم عندما قالت زوجته بأن خزاعة هو الفاعل، طالت الحيرة إلى أن استأذن أحد الجنود بالحديث وكان قد دخل للتو للقاعة التي يمكث فيها القائد وزوجته وراجح وعمرو ووالدا الحاكم وبعض الجنود فأشار له الحاكم بالحديث:

- لقد رأيت القائد خزاعة يمتطي حصانه ويعلق في كتفه صرة يهيأ لي أنها تحوي ملابسه ويسير في إتجاه الغابة.

قفز الحاكم واقفًا وامتقع وجهه كمدًا، ففزعوا جميعهم ثم تحدث وهو يشير لراجح باللحاق به وقال بحنق:

- إنه هو... شريك أريب بن برهوم في فعلته، عرف أنه عاجلًا أو آجلًا سيُكتشف أمره ففر هاربًا، ولكن إلى أين؟ وإن غادرت هذا الكوكب سأعثر عليك أيها اللعين.

خيم الصمت على الجميع فلا أحد يعلم شيء بتلك الواقعة إلا الطاهي وهبه. قطعت الصمت زوجته ثريا وهي تقول بفضول:

- عن أي فعلة تتحدث أيها الحاكم؟

طال صمت الحاكم وارتسمت على وجهه الحيرة ثم جلس وهدأ وقص على الحضور ما صار فانتفضت زوجته وارتاعت ثم هدأت وحمدت الله على سلامة زوجها.

بعد سويعات قليلة عاد راجح والجنود وأخبر الحاكم بأنه بحث في كل مكان ولم يعثر له على أثر:

- لقد بحثنا في الغابة وعند النهر وفي شوارع المدينة حتى في الأحراش، وبعثت فرقة من الجنود للصحراء، فلربما يكون قد ذهب في ذاك الطريق، ولكن دون جدوى.

كان يستمع لراجح بامتعاض، فسأل:

- أين يكون قد ذهب؟

ما معنى هذا؟ أيكون تبخر في الهواء؟ أو أن الأرض انشقت وابتلعته!، شيء عجيب. لقد قرر خزاعة الرحيل بعدما فعل فعلته، كان يخشى من أن يقص أحد الحراس الذين قابلهم قبل قتله لابن برهوم ما صار للحاكم فيعرف على الفور بأنه من عاونه في حادثة السم فيأمر بإعدامه معه، فحمل ما استطاع حمله من ملابس وأموال وامتطى جواده وخرج من القلعة، كان قد فكر في أن يسكن إحدى القرى البعيدة التي ليست تابعة للحاكم هذام. ويعيش بقية حياته هناك كرجل عادي.

أشار إلى الجميع بالإنصراف وأبقى على ابن ميمون:

- مكانك محفوظ يا عمرو يمكنك العودة ومزاولة مهامك.

تفاجأ عمرو من طريقة حديث الحاكم معه، لقد تغير، حادثة السم ومن بعدها ضياع ابنه كانا لهما الفضل في ذلك.

قال بخجل:

- اعذرني أيها الحاكم، لم يعد في إمكاني ذلك، إن الأمور تغيرت وساءت وازدادت سوء، كنت قد اتخذت قراري بناء على متغيرات كثيرة وأظن أنني لن أرجع فيه إلا إن عادت الأمور كما كانت.

كان ينظر لعينيه الخجلتين بنفور، إنه لا يهابه، عيناه تقول ذلك، تغير لونه واخشوشن صوته وقال بلهجة حادة:

- يبدو أن المعاملة الحسنة لا تجدي نفعًا معكم، يمكنني أن أزج بك في السجن الآن بسبب عصيانك لأوامري، ولكني لن أفعل ذلك لسببين؛ أولهما أني لم آمرك بذلك بل اقترحت، والثاني لأن بالي مشغول بأمر ابني الذي شغلك أيضًا وهذا يشفع لك عندي.

سكت برهة ثم نادى على جندي وأمره باصطحابه لخارج أسوار القلعة وجلس يفكر والشرر يتطاير من عينيه.

حين حل الليل، جلس ينظر من النافذة التي تطل على الغابة، يرى أشجارها العتيقة من بعيد وهي تبدو صغيرة الحجم، يراها تهتز وتتمايل كأن أحدًا يهدهدها، كانت الرؤية لتكون منعدمة ولكن القمر بضوءه الخافت مكنه من مشاهدة ذلك المشهد في صورة شاعرية، سمع الأصوات وقد عادت من جديد، أزيز ثم طنين ثم هدير قوي كالرعد أفزعه وأفزع الجميع، وها هو الضوء الأخضر يظهر من جديد في سماء الغابة المخيفة وتلك الجملة تُسمع ثانيةً.

"أنت السبب في هلاكك"

تلبط في أمره ثم جلس يفكر ويفكر، كانت العربات التي تجرها الخيول تعكر صفو مزاجه وتعبث بتركيزه، ما زالت الناس الوافدة تغادر، لقد انتهى الحفل قبيل الغروب بقليل، منهم من غادر مباشرة ومنهم من ذهب يتجول في المدينة يبتاع أغراضًا وطعام وشراب ويتزود لرحلة عودته، منهم من قَدموا من القرى التي يمر مسافروها من جانب الغابة ومنهم من جاء من ناحية النهر ومنهم من سيمر بالصحراء.

دوى صوت القضم مجددًا، كأن أحدهم يأكل شيء ويهشم عظامًا، اتجهت جميع الأنظار صوب الغابة وما يحدث فيها، خمن رسلان وهو يقفل النافذة لتحجب عنه الأصوات المزعجة قليلًا بأن ذلك الشيء في الغابة يأكل ابن الحاكم، قالها لزوجته وجدان وجلس يشرح لها الأمر ويعيد عليها كلماته التي قالها لعمرو بن ميمون عندما حكى له عن توقعاته بشأن الكائن الغريب الذي يسكن الغابة، كان يحدثها وتهز رأسها نفيًا، إنها لا تصدق ما يقوله وقد ذهلها ما تفوه به زوجها ولكنها في غداة الغد ستمارس عملها كامرأة ثرثارة وتحكي كل شيء.

***

لم ينم عمرو بعد، ظل متوجسًا مما حدث ومن نظرة الحاكم له فقرر الذهاب لدار رسلان ليقص عليه ما صار في القلعة وما طلبه منه الحاكم.

قبل أن يطرق باب دار رسلان ألقى نظرة على الطريق المؤدي للغابة وأخذ يسترجع ما حدث قبل قليل بعدما خرج من داره قاصدًا دار رسلان وأخذ يسير ببطئ في الطريق، حينها لمح عربة

يجرها حصان تسير في اتجاهها، فقال لنفسه لا بد أنهم من القرى المجاورة وظل يتمتم لنفسه ويقول باشفاق عليهم: ما الذي أخرهم لتلك الساعة؟ ألا يعلمون ما يحدث في الغابة؟ إلى أن انقطع خيط أسئلته عندما رأى طفلة تشير إليه بيدها الصغيرة فدقق النظر فوجدها هي ذاتها الطفلة التي حملها وقبلها وضمها لصدره فابتسم وشيء في قلبه يدفعه للهرولة خلفهم وتنبيههم من مخاطر الرحلة وحثهم على المكوث والمغادرة في الصباح، لكنه عدل عن ذلك وتجاهل نداءات قلبه حين رأى العربة قد تجاوزت منطقة الغابة وابتعدت وصارت مثل نقطة سوداء في الصحراء المقفرة الصفراء، لكنه سأل نفسه: لماذا تباطئت حركتها فجأة إلى أن توقفت ثم سارت ثانية؟ وكان ذلك قبل ظهور الضوء الأخضر في سماء الغابة.

استعاد تركيزه وطرق الباب ففتح له رسلان.

تحدثوا ثلاثتهم عن الكائن الغريب، كان عمرو ووجدان الأكثر تصديقًا لكلمات رسلان حول ذاك الكائن وإن كانت لديهما بعض الشكوك، فما يقوله يشبه الأساطير، كانت أنظار عمرو تدور باستمرار حول حبيبة ابنة رسلان الذي كان يبتسم حين يراه يحملق فيها وكأنه يلتهمها بعينيه، فقال له بجدية:

- ما الذي يحول بينك وبين الزواج يا عمرو؟

قال عمرو وقد فاجأه السؤال:

- لا شيء.

واستطرد:

- لقد فكرت فعليًا فيه يا رسلان وعليك أن تجد لي عروسًا.

أشرق وجه رسلان وتهللت أساريره وقال بطوية صادقة:

- مبارك لك من الآن، ولتطمئن لهذا الأمر.

هدأت الأصوات التي تنبعث من الغابة قليلًا ولكن طنينًا خفيفًا يصاحبه صفيرًا لا يزال يدوش الآذان ويبث الرعب في النفوس، أوصدت الناس أبوابها عليها وقبعت بداخل دورها قلقى،

تنشد سلامًا داخليًا وأمنًا وأمانًا خارجيًا، الأخبار تناقلت وتداولت الناس أقاويل متداخلة، لا أحد يعلم الحقيقة من الأكاذيب، يقال بأن مجموعة من الرجال تسكن الصحراء تهاجم الذاهب والغادي، إنهم مجموعة من قطاع الطرق أبوا أن يعملوا وفضلوا العيش كسلى معولين على غيرهم ممن يعملون، صارت الناس تغلق أبوابها عند نهاية النهار وتقبع في دورها، ناهيك عن الغابة وما يحدث فيها ويخفى عن الجميع والحاكم مشغول بأمر ابنه المجهول مصيره وغيره من مشكلات حدثت في القلعة.

راحت وجدان تحكي لجاراتها عما يقوله زوجها في شأن الكائن في الغابة وما فعله في باسل ابن الحاكم هذام أسهبت في الحديث عن وحش مفترس ليس ببشري أو حتى حيوان، هو أشباح أو ما شابه، يرقب الظالمون ويؤذيهم في أحبائهم أو الأشياء الغالية على قلوبهم فيصطاد فرائسه على حين غرة ودونما مقدمات ودون أن يترك أثر وراءه، إنه محترف وموهوب في التخفي.

وصلت الشائعات للقلعة وانخرطت ثريا في البكاء وزوجها يثأثأها ويعزي نفسه في ولده الصغير، فلقد سلم للأمر وآمن بمقتل ابنه وكف عن البحث، وزاد حنقه على الشيء في الغابة وعزم أمره على الإمساك به، فلقد أعد له خطة، بما أنه يخطف الظالمون فله ذلك، سيظلم ويزداد في الظلم كي يأتي له ويظهر ومن ثم تنقض عليه جنوده وتمسك به. وإن دخل القلعة لن يخرج منها إلا وقد أرديته قتيلًا. دمدم لنفسه في غضب حقيقي وقد راح عن باله بأنه صوت أو شبح، وأن جنوده لن تستطيع صده إن دلف للقلعة، بل لن تراه.

اهتم بابنه المغيرة وأخذ يدب في أوصاله الشجاعة والجلدة وفي قلبه القسوة والجبروت، كي لا يجندله أحد في نقاش أو معركة، كأنه يجهزه لأن يكون الحاكم من بعده.

تأجل زواج عمرو بن ميمون والفتاة التي عثر عليها رسلان بسبب الأوضاع التي شهدتها القلعة والبلاد، فقد توفى والد الحاكم وتبعته زوجته بعده بأيام لتقام لهما جنازة كبيرة سار فيها الكثيرون عن رضى ودون أدنى ضغوط، فهما كانا خير مثالًا يحتذى به، لم يشعرا أحدًا يومًا بأنهما والدا الحاكم بل على العكس لطالما اختلفا مع ابنهما وسلوكياته.

مرت الشهور وتزوج عمرو من فتاة اسمها سليمة طيبة ومن أسرة متوسطة الحال، يعمل والدها في الزراعة ووالدتها تساعده أحيانًا بجانب أعمالها في دارهم وأنجب طفلًا أسماه عادل تيمنًا وترجيًا في إقامة العدل من جديد في بلاده.

- سأسميه عادل يا سليمة.
- إنه اسم جميل.
- ليس مجرد اسم، بل حلم يراودني.
- كيف يا أبا عادل؟
- أحلم بأن يمتطى ولدي جوادًا وهو الحق ويحمل سيفًا حادًا وهو العدل ويصول ويجول ينشر القيم ويحقق الأمن والرخاء.
- تقصد بأنك تريده أن يصبح الحاكم؟
- ليس هذا ما أعنيه، ما أريده فقط أن يتحقق هو العدل، على يديه أو على أيدي غيره لا يهم.

راح عمرو يعمل في صناعة السيوف وغيرها من الصناعات الخاصة بالحديد، قويت علاقته برسلان فلقد أصبحا صديقان مقربان وزميلا عمل في ورشة واحدة، ورشة الراحل سلامة.

_ ٢ _

المساواة في الظلم عدل!

تناسى الحاكم أمر طفله باسل لأيام وشهور بإنجاب زوجته لطفلة جميلة فقام بتسميتها أميرة أميرة؟ سألته زوجته. نعم ومعناه حاكمة من أسرة حاكمة، أي سيدة بنت ملك. عادت القلعة تشهد الأفراح وتقام فيها الاحتفالات ولكن لا أحد يأتي من الخارج بسبب تلقيهم أنباء مخيفة بعدما ذاع صيت قُطاع الطرق والكائن الذي يتخذ الغابة مسكنًا له.

مرت سنينًا كبر خلالها الحاكم هذام وأخذ عقله وسلوكه مسارًا آخر، اشتاق لطفله الذي قتله الكائن كما اقتنع بذلك هو والجميع، طغى حنقه على الكائن على طيبته التي انقرضت رويدًا رويدًا وطغت رغبته في الانتقام على رجاحة عقله وذكائه، فشرع في تنفيذ خطته التي أرجأها لسنينًا، فقد كان يأمل أن يعود ابنه ولكن فراقه طال.

بعث برجاله تجوب المدينة وتلقي القبض على الضعفاء ومن يعارض ذلك. ثم بدون محاكمات زج بهم في سجونه المعتمة الغائرة، غضب عمرو الذي نال الكبر منه أيضًا ولم تعد لديه القدرة على القتال حتى بالكلمات، كما أنه بات يخشى على زوجته وولده الذان كبرا أيضًا. ولقد قال لنفسه وقتئذ:

- أحيانًا خوفنا على القريبون من قلوبنا يدب الخوف في أوصالنا فيتَملك الجبن منا رغمًا عنا، وكيف لا والمتربصون بنا من الظالمون ينتظرون لحظة ثورة حتى يوقعون بنا، كما يعلمون أننا لن نثور خشية على من يهمنا أمرهم ويهمهم أمرنا فيأخذون هذا الأمر نقطة ضعف ويلوون أذرعنا بها.

إنَّ عادل أصبح شابًا فتيًا، دربه والده على الفروسية والقتال فأتقن اللعب بالسيف ورمي السهام والحراب، كان فارع الطول مثل والده ونحيل قليلًا وكانت له جبهة عريضة تنتهي بشعر رأس

أسود كالليل وناعم ومسترسل على كتفيه وكان شجاع مقدام. أخذ والده يتردد كثيرًا على دار رسلان وتطول فترة مكوثه عنده، تدور الحوارات الكثيرة بينهما بينما تنصت زوجته لتتزود بالمعلومات منهما وفي الصباح لا تقو على الصمود مع تكرار تحذير زوجها لها من هذا الأمر فتبدأ بالثرثرة.

غضب عمرو ورسلان وبعض الرجال الشرفاء، وكان جزء لا بأس به من الناس ممن لم يؤذوا في عزيز أو شيء مادي لا يبالون بما يصير حولهم حتى مع جيران لهم وما تتناقله الألسن من ظلم وجور، كانوا يقولون عندما راح عمرو ورسلان يسألاهم وهما يطوفان المدينة ويبثا روح الثورة في القلوب:

- إننا مرفهين ودورنا آمنة، فلماذا نثر على الحاكم؟ لا يهمنا إن كان ظالم أو لا، فإن ظلمه لا يطولنا، ثم إن أغلب الحكام هكذا، فإن انقلبنا على هذا وأزحناه عن مكانه، سيأتي ألعن منه.

اختلفت جموع الشعب بكل طوائفه في هذا الأمر، ما بين مؤيد ومعارض، منهم من بذل روحه لمحاربة الجور والظلم والفساد ومنهم من حوطه الجبن وألم به فآثر الصمت ومنهم من خشي على عيشته الهنيئة من أن تتأثر بما سوف يحدث فبدأ بثورة عكسية، كان يثبط من عزيمة من يفكر في كلام الثائرين.

كان في اعتقادهم أن من يجب عليهم الثورة هم المحتاجين فقط أو من فقد عزيزًا أو عانى بسبب سلوكيات الحاكم، أما هم فيحظون بحياة مطمئنة مرفهة هادئة، فلما الثورة إذًا؟!.

زاد الاضطراب في المدينة وأخذ في الازدياد إلى أن تسربت الأنباء للقرى المجاورة وتسللت مجموعات من ساداتهم لمناقشة الأمور المتعلقة بهم مع الحاكم، فبينهم معاهدات ومواثيق على الحماية مقابل دفع مبالغ من المال، كان في سابق الزمن يستخدم الحاكم هذه الأموال في التعمير وإقامة الجسور والطرق لتسهيل عملية الترحال، أما الآن فقد اهترأت بعض الجسور وسكن اللصوص الصحاري والوديان وتعقدت سبل السفر وتعرقلت.

إنَّ أولئك السادة يمتلكون خيولا سريعة وقوية تستطيع الركض لساعات، كما أنهم لديهم مجموعة لا بأس بها من الفرسان يصطحبوهم معهم في كل مرة يسافرون فيها. إنهم في منجى عن المخاطر. ولكنهم يهتمون لأمر العامة من شعوبهم.

قابلهم راجح بن درغام الذي أصبح مسؤول عن الجيش بجانب انشغاله بالعلاقات الخارجية، رمى الحاكم على كاهله مهمة مقابلة الوافدين والتحدث معهم، فإنه غاضب وإن قابلهم ستتعقد الأمور أكثر. تمكن راجح من صرعهم في النقاش فجندلهم وغلبهم في الحديث لكن القلق تسلل لقلوبهم وارتابوا وفكروا وهم في طريقهم وتحدثوا حول ضرورة تكوين جيوش لهم والكف عن التبعية لمدينة الحكيم وأرجأوا ما فكروا فيه لحين يروا ما سيفعله الحاكم في الأيام القادمة.

مع انشغال الحاكم بأبنائه غرقت المدينة في المشكلات، وتبادل الناس السباب واللعان والقتال فألقت جنود الحاكم القبض على الكثيرين وزجوا بهم في السجون لكي يحاكموا فيما بعد، قضايا كثيرة تعلقت وطالت مدة سجن المقبوض عليهم، بينهم من يستحق السجن وبينهم من أتوا به ظلمًا، فلقد كان مار أو واقفًا يبيع شيء في أرض الواقعة فحسبوه متهم أو لم يحسبوه، انقضوا عليه وأمسكوا به ورموه في سجونهم النائية عن العدل.

تململ ميمون في أمره وقلة من الشرفاء في لجنة المحاكمة والجيش ورجالات القلعة، طلب من الحاكم الاستقالة وفضل المكوث في الدار على المضي قدمًا في منصبه والمشاركة في الظلم، ساعد ذلك ضعف نظره وبطء حركته، فقد نال الكبر منه عتيا.

إلا أن الحاكم لم يصدق له على الأمر، بل ظن وغالبًا الظن يكون سوء، بأن ولده عمرو هو من دفعه للاستقالة فرفض رفضًا قاطعًا مما جعل ميمون يسرع في تنفيذ قراره بالاعتزال عن المنصب واجتناب الآثام، فمكث في داره لا يلوي على شيء مما قد يفعله معه الحاكم. فغضب الحاكم واشتاط غيظًا وأرسل جنوده وألقوا القبض عليه كالمجرمين وزج به في السجن.

***

كان قد سبقه للورشة وشرع في العمل بكد واجتهاد، يضرب الحديد بالحديد بقوة مصحوبة بحنق، يشعر بالعجز فتزداد قوة ضرباته فيتطاير الشرر من حواليه، فجأة توقفت الطرقات عندما وقع بصره على رجل في الخمسون أو أكثر يهرول في اتجاهه، رفع كف يده لجبينه وجعلها أفقية لتحجب عنه أشعة الشمس حتى يتبين من هوية الزاحف نحوه، أرسل زفيرًا وزالت علائم الدهشة التي ارتسمت على وجهه وسكن قليلًا إلى أن وصله القادم فبادره بالسؤال:

- ما الذي حدث يا أبا عادل؟ زوجتك أو عادل أصابهما مكروه؟

كان قد وصل لعتبة الباب فتوقف يلتقط أنفاسه وهو يمسك بجانب من البوابة الحديدية وجذعه مائل قليلًا للأمام ومطرق الرأس، رفع رأسه ببطء وتقدم نحوه والعبرات تتسابق لتخرج واحدة تلو الأخرى دون أدنى مقاومة منه لمنع هطولها.

ابتلع رسلان لعابه وتقدم خطوتين وأمسك بذراعي عمرو وسأله بصوت مخنوق:

- ما بك يا عمرو إنطق بأي كلمة يا رجل.

تحدث عمرو بهدوء لا يعكس الصورة التي هو عليها فقال:

- أعلمت بما فعله هذام مع والدي؟

زوى رسلان ما بين حاجبيه وضيق عينيه وقال باستغراب:

- لا، ماذا فعل ذلك الأرعن؟

- لقد أمر جنوده بالقبض عليه وهو قابع الآن في سجون القلعة ولا أعلم عنه شيء.

لمعت عينيه بالدموع وهو يقول:

- إنك لا تدري كم هو متعب، جسده لم يعد يحتمل الحركة والتنقلات، لا بد وأنه منهك الآن من الجهد الذي بذله وما زال يبذله، أخشى عليه من المرض يا رسلان أخشى عليه من المرض فجنود الحاكم لن تلحظ شيء من ذلك وحتى وإن لاحظوا فلن يرأفوا به، إنهم ينفذون الأوامر دون أدنى تفكير فيها كما تعلم.

أفلت رسلان المطرقة من يده وأخذ يناقش الأمر مع عمرو بهدوء، حاول ثنيه عما هو مقدم عليه ولكنه عجز، كان يشعر بالخطر من تلك الزيارة ولا يرى فيها أي منفعة، كان خفقان قلبه ضعيفًا بالنسبة للمرات السابقة كيوم مقتل سلامة لكنه حاول بكل ما فيه منعه من أن يذهب للحاكم إلا أن عمرو كان مصممًا وتركه وخرج ينشد القلعة.

جلس ليأخذ قسطًا من الراحة بعدما انتهى فريق الطهاة من الطعام، لا تزال أمامه ساعة ليبدأ في الإشراف على تحضير الطعام للحاكم وأسرته ثم تقديمه لهم على الطاولة المخصصة لتناول الطعام في إحدى غرف القلعة الواسعة، لم ينعم بالراحة في ظل ما يحدث في الخارج، تناهى لسمعه صوت عمرو بن ميمون وكانت نبرته مكتومة مكدودة، لوهلة خفق قلبه وأحس بنبرة تهديد ووعيد، كان صوته مرتبك قليلًا، وكيف لا وهو يقف أمام هذام جديد غير هذام الذي عهده وعرفه، إنه يعلم حق العلم بأن في استطاعته القبض عليه في أي وقت وربما قتله، فلا يستبعد ذلك بتاتًا.

خيل إليه أنه استمع لمثل هذه الكلمات من قبل أو الطريقة التي يدار بها الحديث وينطق بها المتحدث، شرد بفكره قليلًا ونبش في ذاكرته وفتش فيها عن نبرة مشابهة وطريقة حديث مثلها فتذكر حواره الذي أقامه مع أريب بن برهوم يوم شك فيه وبعدها كشف مخططه، ولكن طريقة حديث ابن ميمون قوية بعض الشيء، فإنه يتحدث بالحق وعن الحق والحق يقوي صاحبه، من له مظلمة لا يخشى الظالمون فهو يعلم بأن الله سيسدد خطاه وسييسر له دربه. استرق السمع جيدًا فإلتقطت أذنيه هذه الكلمات:

- يكفي هذا القدر يا هذام ولتكف عن أفعالك وتبدأ في إصلاح ما أفسدته، لقد تغيرت كثيرًا يا أبا المغيرة وتبدلت حالك، أهذا ما تعلمناه من الحكيم رحمه الله؟! توقف عن الظلم أرجوك وإلا ستلقى عقابًا قاسيًا من الله ومن الشعب، وإن أمهلك الله لميعاد لا يعلمه غيره، فأعتقد بأن عقاب شعبك لك لن يتأخر.

ضحك الحاكم بقوة ثم قال ببرود:

- عقاب شعبي! هيه... ماذا سيفعلون يا عمرو؟

بإمكان هذام أن ينهي هذا النقاش بسهولة بأن يأمر جنديًا بأن يصطحبه للسجن مكبل بالسلاسل أو أقل ما فيها إصطحابه لخارج أسوار القلعة، إلا أنه أحب ذلك ولطالما أحبه، ينشرح صدره حين يتحدث مع عمرو ويسهب معه في الحديث حتى وإن خسر الجدال، يتذكر في الدقائق القليلة التي يقضيها معه ماضيهما معًا وما كانا عليه، لا يزال يتخذه صديقًا وإن كان يعلم بأنه بات مكروهًا لديه، تسكن روحه عندما يرى وجهه الوضاء كما تحيطه هالة من الألفة في حضرته وإن كان يشعر بالخجل أمامه ويعرف قيمة نفسه التي دنستها أفعاله الشائنة. عاود سؤاله بصيغة أخرى بعدما صمت عمرو؟

- سأنتظر عقاب شعبي يا عمرو لأرى ماذا سيفعلون؟.

زم عمرو شفتيه وهو يهز رأسه وقال بصوت ضعيف وبشفقة:

- إعلم يا هذام بأنك ما زلت لك مكانًا في قلبي برغم ما أنت عليه، لن أنسى ذكرياتنا معًا وإن حاولت ذلك، كف عن ظلمك لذاتك ولغيرك واتعظ مما صار لملك مدينتنا القديمة وارجع إلى الله.

نظر الحاكم في عينيه بوجوم ثم قال:

- المساواة في الظلم عدل يا عمرو. ولم أعدل في ظلمي حتى الآن، فدعني أساوي بين الناس في الظلم.

زفر ابن ميمون وهو يرى نظراته التي تنطق سخريةً واستهزاءً وعجرفةً فارغة، فهو يعرفه جيدًا ويعرف أنه يخادع نفسه، إنه يعلم أن طريقه الذي يسلكه مليء بالمخاطر ونهايته الهلاك ويستمر بتعمد وتزنت أن يتخذه طريقه ويسير فيه بسعادة.

قال له عمرو برفق وهدوء:

- صاحب مقولة "المساوة في الظلم عدل" هو ظالم يريد تبرير ظلمه الآتي. لقد نبهتك يا هذام.

تغيرت نبرته وتحدث بترجٍ فقال:

- على كل أريد منك بحق صداقتنا التي كانت وإن كنت أشغل حيز ولو ضئيل في قلبك بأن تفرج عن والدي، فهو ضعيف ولن يحتمل مشقة.

هز الحاكم رأسه موافقًا وأومأ لجندي يقف عند مدخل القاعة فأتاه مهرولًا فأمره بأن يخبر راجح بضرورة الإسراع من فك أسر ميمون وإخراجه ليذهب مع ولده عمرو.

شكره عمرو وأرسل له بنظرات امتنان على الرغم من غضبه منه، فتبادلا الابتسامات إلى أن حضر والده واحتضنه عمرو برفق ثم سار معه بصحبة أحد الجنود وخرجا من القاعة المنمنمة ومنها إلى بهو ثم صحن القلعة ثم الفناء حتى خرجا بمفردهما للجانب الآخر من أسوارها وغادرا المكان الحصين المخيف واتجها صوب الدار.

أحس وهبة بسعادة تغمره، فلقد تقلبت حال الحاكم في موقف بسيط، ثم تمتم لنفسه: ليس ثمة ما يغير مزاجه غير عمرو بن ميمون، يا له من رجل.

بدأ عادل في الذهاب إلى ورشة صناعة السيوف مع والده ورسلان كما كثرت جلساته في دار رسلان. منذ نعومة أظافره وهو يذهب مع والده ويلعب مع حبيبة. أصبح الأبناء عادل وحبيبة قريبان من بعضهما بصورة رهيبة، أنشأت بينهما عاطفة ألفاها وفضلاها، عاطفة الأخوة، التقت خيوطهما معًا وتشابكت وتضافرا معًا على بناء علاقة خاصة تجمعهما ولا ينفصلا إلا بموت أحدهما، كانت قلوبهما مرهفة وتربيا معًا.

جمعت أواصر الصداقة بين وجدان زوجة رسلان وبين سليمة زوجة عمرو بن ميمون كما هي الحال بين أزواجهما ولطالما تمنيا أن يتزوج عادل من حبيبة إلا أنهما أحبا بعضهما بطريقة أخرى لا تصلح للزواج، فلقد تحدثت معه والدته في هذا الشأن وهو يصحبها لتملأ الجرار من النهر وبين لها ما كان مبهم، فسلمت للأمر وصرفت عنها تلك الفكرة وأخبرت وجدان بها فسلمت لها أيضًا.

_ ٣ _

توبة الأيام الأخيرة

شهدت المدينة تطورات عصيبة في الأمور، قلت حركة التجار القادمون من القرى والمدن المجاورة فقل معها البيع والشراء، فلقد شحت السلع وتسابق الناس على تخزين ما يكفيهم من حبوب زراعية ومحاصيل لتكفي حاجاتهم ويتذرعون بها مما هو آت، فلقد كانت تقول المعطيات بأن سنينًا قاحلة وجافة سوف تأتي وتوقع الكثيرون بأن الأيام القادمة ستكون قاسية ومجدبة.

عاشوا عام أربد، سطى فيه بعضهم على بعض وكثرت الشكاوى والحاكم هذام لم يستطع فعل شيء، فلقد مرض وبات طريح فراشه، ترقد زوجته بجواره طيلة الليل وتسهر على راحته، بينما يتدرب المغيرة في فناء القلعة بالسيف مع الجنود وقد بدأ يمارس عليهم سطوته تدريجيًا، وكانت الأميرة المدللة الجميلة أميرة ذات التاسعة عشر ربيعًا تؤنبه من حين لآخر على تهاونه في الأمر وتعسفه، تحثه على البقاء بجانب والده إلى أن يتعافى فكان يستجب لإلحاحها بعد عناد طويل.

إنه لم يكن يبغض والده إنما كان كأنه يتوقع موته في أي وقت فأسرع من التدريب وكثف جهوده في ذلك، كان قوي البنية ذو شخصية مؤثرة وقيادية مثل والده ولم يكن يتجرأ أحد على عصيان أمر له بمن فيهم قائد الجيوش وكبار رجالات القلعة.

ذات ليلة أعاد سيفه لغمده بعد قتال دام لساعات مع أحد القادة الأقوياء ثم اتجه رأسًا لغرفة والده، ما إن ولج حتى تبسم الحاكم هذام وطلب منه الجلوس عند رأسه، مثل المغيرة لطلبه وانحنى له إحترامًا وعقد ذراعيه على صدره تأدبًا وقال له بحنان حقيقي وهو يمسك براحته بين كفيه ويقبلها برفق:

- كيف حالك يا والدي العزيز؟

انفرج ثغر الحاكم هذام وارتسمت على محياه علائم الرضى والسعادة برغم ألمه ومرضه فقال لابنه:

- أحمد الله يا ولدي، اسمع يا بني، إنَّ جل ما سمعته ورأيته لن يكّون لديك صورة حقيقية وواقعية لما كان أو تنبؤية وتخيلية لما هو آت، هذه المدينة في يوم من الأيام لم يكن لها أثر، كانت فلاة مقفرة مجهولة، صحراء مخيفة يسكنها كل شيء إلا الإنسان وبفضل ساكنيها الأوائل وبعضًا ممن موجودين الآن تحولت لما تراه عيناك من حولك.

بفعل الظلم يا بني فكر رجل عجوز وكان حكيم في أن يرحل عن بلاده، بلاد ولد وترعرع فيها وأحبها ودافع عنها بدماءه، لكن جسده لم يسعفه للاستمرار بسبب تقدمه في العمر، كما أن الآخرين خزلوه وحجموا عن الجهاد إلى أن اشتد الكرب وكثر البلاء فقرر بعد تفكير عميق أن يرحل إلى أن يدبرها الله من عنده ثم يعود بالفارين عندما يكونوا مستعدين لأن يخوضوا غمار الحرب، إلا أنه ألف الحياة هنا كما تغيرت الأمور وتقلبت وتفكك حكم الملك في بلاده القديمة وانتشرت الأوبئة ورحلت الناس عن تلك البلاد واستقر بهم الحال هنا، هنا يا ولدي بدأنا حياتنا بالعدل وكنا أسعد الناس ولكن...

صمت برهة ونظر للجهة الأخرى ثم أدار رأسه ثانيةً ونظر لابنه واستطرد:

- ولكن بوادر الظلم ظهرت وازدادت فتسلل الخوف والجبن والحقد بين القلوب وعدنا كما كنا، مطاردون ننشد السلام والأمان، إننا ما زلنا محتلون يا بني، لم نتحرر بعد من قيود الشهوات والبغض والشر، تطاردنا اللعنات متى تعاملنا بالخبث والتصنع والنفاق.

شعر بأن المغيرة يريد أن يقول شيء فصمت وأشار إليه بالحديث:

- لماذا تقص عليَّ ما مررتم به أيها الحاكم؟ أنا أعلم تلك القصة جيدًا، فهي تاريخنا الذي يجب ألا ننساه.

- أعلم بأنك تعلم، ولكن الحكمة تخفى عليك، ما أود أن أظهره لك وأرجو ألّا يغيب عن خاطرك وذهنك هو إن قدر لك الحكم والاستمرار فيه فلتعامل الناس بالعدل ولا تنسى الله أبدًا، عله ينجينا من ذلك الكائن الذي يسكن الغابة، بالرغم من قوتي وكثرة أعداد جيشي إلا أني لم أتمكن من منعه من التسلل للقلعة الحصينة، فلقد سرق مني أخيك باسل بطريقة تشبه السحر بل أشد غرابة، لا أعلم كيف تسنى له ذلك.

آمل ألا يكون التهمه في تلك الليلة كما آمل أن يتلاشى قريبًا لتعود المدينة لسابق عهدها. وذلك قريبًا إن مد الله في عمري، فسأبذل قصارى جهدي لإعادتها لوضعها التي بدأت عليه، هناك إصلاحات كبيرة تنتظرني ولا بد من الإسراع.

بعدما تجاذبا أطراف الحديث لدقائق طويلة غادر المغيرة حجرة والده ليتركه ينعم بالراحة قليلًا إلى أن يزوره الطبيب كعادته، وراح يخطو باتجاه غرفته ثم ذهب في سبات نوم عميق.

ما يزال شابًا في ريعان الشباب، قويًا مندفعًا ولم يفكر في الحياة من الزاوية التي يفكر منها والده.

وصل نبأ مرض الحاكم للناس فتعاطفوا معه برغم اختلافهم مع تصرفاته التي سبقت مرضه ودعوا الله مخلصين النية بأن يشفيه ويعيده صحيحًا معافى ويهديه. كثرت زيارات عمرو للقلعة ودارت بينه وبين هذام أحاديث طويلة، وجده عمرو قد تغير للأفضل وعاد هذام الذي يعرفه. طالت فترة مرضه وعلم بأن نهايته قد قربت فبدأ في الإصلاحات وهو طريح الفراش، كان يلقي على ابنه بالتعليمات وينقلها عنه كما هي لقائد الجيوش وكبار المسؤولين مما أكسبه خبرة وحنكة في الحكم.

أول شيء قام بفعله أن أسرع بإقامة المحاكمات وشد على يد ابنه أن تقام بالعدل، مع التهاون في العقوبات فلقد مضوا شهورًا كثيرة في السجن.

ثم بدأ في إرسال الرسل للقرى المجاورة يدعوهم للقاءات عاجلة لبحث سبل التواصل من جديد والتعاون المشترك لقهر الأعداء الخارجية والداخلية والنظر في شأن قطاع الطرق. كان المغيرة هو من يستقبلهم فألفوا وجهه وارتضوا كما هي حال الجميع بأن يكون حاكمهم الجديد.

أعلن المنادي في مدينة الحكيم الخبر وراح يتنقل بين المدن والقرى المجاورة ويعلن عن حفل قريب في القلعة بأمر من الحاكم. إنه يريد أن يودع شعوبه بدعوته لهم في القلعة، هذا ما تناقلته الناس أما الحقيقة فهو كان يريد أن يرضي شعور ما بداخله، بعدما طالت فترة مرضه وأحس بأنه اقترب من أن يغادر الدنيا تذكر ابنه الذي يُقال بأن الكائن قد التهمه فخفق قلبه بشدة كأنه يخبره بأنه على قيد الحياة فأمر بإقامة حفل سريع، بدون مناسبات، إنَّ عاطفة الأبوة جعلته يتصرف بعفوية وانطلاق، أحب أن يجمع الناس كي ينظر في وجوههم ويستشعر بحسه الأبوي وجود ابنه، خُيل إليه أنه حي ولربما تربا بين أُناس طيبون ولكنهم لا يعلمون عنه شيء فلذلك لم يأتوا به إليه إلى الآن.

أقيم الحفل وأخذ الحاكم المشتاق لولده يتفحص الوجوه ويحملق في عيونهم بنظرات حادة وقلب تعصف به مشاعر الرقة واللين. طالت وقفته وجال بنظره في كل مكان ثم حل الليل وانتهى الحفل وغادر الجميع وأغلقت البوابات ثم انفردت به زوجته تسأله لماذا كدت أن تسقط على قدميك أثناء مشاهدتك للحفل؟ فقد لاحظت زوجته تقلب مزاجه فجأة وتبدل ملامح وجهه. ولكنه لم يجيبها ويبدو بأنه أجل الإجابة لحين تأكده مما خطر بباله وشك فيه.

_ ٤ _

وفاة هذام وميلاد أمل

لم تطل فترة صمود الحاكم هذام وسقط فريسة للمرض. كانت تجلس على كرسي وثير، أسندت رأسها إلي ظهره وغفلت قليلًا حين كان يتأمل قسمات وجهها العذبة، هي من أحبها حبًا جنونيًا جعله يتبدل ويتقلب قلبه مرات ومرات، بسبب هذا الحب تنازل عن مبادئه وتغافل عن ظلم أبيها لسلامة ولغيره من الناس وارتضى بأن يكون زوجًا مخلصًا وحاكمًا خائنًا، خان شعبه ونقض وعوده مع عمرو ومع الحكيم.

لم يفطن في بداية الأمر بأن حبه لها كان سببًا في ذلك، إلى أن بدأ يعتاد على وجودها بجواره وقد ضمن بقاؤها فبدأت علائم الزهد فيها تظهر عندما كبرت معه وأخذ حسنها يتبدد شيئًا فشيئًا، إلى أن زهد في كل شيء حتى في الحكم، وخصيصًا بعدما مرض وانفض الناس من حوله، برغم أنه يحكم إلا أنهم نفروا منه تدريجيًا، على عكس ما صار مع الحكيم، كانت القلوب تتوق لرؤياه حتى بعد موته، ولقد سالت خلفه سيول من الدموع على رحيله، وكان هو واحدًا من أولئك الذين بكوه بحرقة، تذكر حديثه مع عمرو وبكى، عمرو الذي لم يسلم من أذاه هو ووالده.

- إنها لم تفارقني منذ بوادر مرضي إلا حين أطلب منها ذلك، إنها حقًا وفية كما كنت معها، أنا لا أبغضها وأحقد عليها، بل أبغض نفسي الدنيئة التي تملكت الشهوات منها، لا ذنب لها في تبدل حالي واتخاذي الظلم طريقًا، الذنب كل الذنب لي.

كان يحدث نفسه في نفسه فرآها تفرك عينيها برفق وتفتحهما. عندما رأته يتأملها استكانت ملامحها وابتسمت له فبادلها الابتسامات ثم طلب منها ورجاها بأن تسرع من دعوة عمرو بن ميمون للقلعة.

- أسرعي يا ثريا، أريد أن أودعه قبل ذهابي، وأسأله إن كان يريد أن يبعث للحكيم برسائل. دفن وجهه بين كفيه ونظر للجهة الأخرى، لا يريدها أن تراه على هذه الحالة.

خرجت مهرولة وهي تبكي بمرارة، تعلم حق العلم بأن زوجها لا يكذب فيما يقوله، متبقية لديه ساعات فقط ويفارقها ويجب أن تسرع من تلبية طلبه الأخير.

ومع انتشار خبر مرض الحاكم الشديد وتأخر حالته، انتشرت أعمال العنف والقتل بين الناس، عم الفساد وساد، ومعه أطبق على المدينة اضمحلال وكساد، تغلغل الكره في القلوب وفرق بينهم، كل يسعى لأن يكون أفضل من الآخر حتى ولو على حساب إغضاب ربه، في هذه الآونة كثرت الأصوات الآتية من جهة الغابة، لقد قدموا له وجبات وفيرة، التهم منهم بعد تحذيرات عديدة عدد لا بأس به.

زاد يقين رسلان وتأكددت شكوكه، فكيف يفسر اختفاء الظالمون واحدًا تلو الآخر؟ إنه يمهلهم فرص ليرجعوا عما هم فيه ويتوبوا لكنهم لا يتوبوا فيختطفهم بإسلوبه العجيب ثم يلتهمهم ويبعث للآخرين بأصوات مخيفة هي بمثابة تنبيهات وتحذيرات وعبارته التي باتوا يحفظونها وتأنسهم في ليلهم البائس.

"أنت السبب في هلاكك"

وذلك الضوء الأخضر الذي كرهوه. كيف للمرء أن يكره لونًا لهذه الدرجة إلا إن كان مرتبط بحدث ما يسهد عيونه ويدمي قلبه وينهك جسده؟.

إنه كائن ولد من الظلم ونبت عليه حتى ترعرع وأخذ يلتهم الظالمون ويتغذى عليهم كي تستمر حياته، إنه يألف دماؤهم الفاسدة. تصور رسلان بأن الحل الوحيد لقتله هو أن يسود العدل، وقتئذ لن يجد ما يأكله وسيموت ببطء إلى أن يختفي وجوده، فإنه لا يقرب الصالحون الذين يتخذون العدل مسارًا لهم برغم ما يحدث حولهم.

لقد انتبه الحاكم لما يحدث ورق قلبه ولان من جديد وحكم عقله ورجع وتاب وأخذ يصلح ما أفسده بأن أمر بإقامة المحاكمات العادلة وإقامة الجسور وبناء السدود وربط القرى ببعضها من

جديد وتطهير الصحاري ممن يدنسوها من قُطاع الطرق، لكن كيف سيصلح ما أفسدته أفعاله في قلوب الناس؟ إنَّ من أصعب الأمور أن تثني فاسدًا عن عمل يريد فعله، لقد تسلل الحقد للقلوب ولن يخرج منها إلا بتغيير نظام الحكم والبدء من جديد والحرص على المساواة والعدل. إنّ فساد الرعية من فساد الحاكم، فإن كانوا ينعمون بحياة كريمة لما ارتضوا بأن يتحولوا لمخلوقات متوحشة، خالين من المشاعر متبلدين الإحساس، يسعى كل منهم لافتراس من يقف في طريق تقدمه. إنهم ضحايا سنين فساد قبل أن يكونوا جناة، فالظلم يدفن القيم الجليلة والأخلاق الحميدة في أعماق أعماق القلوب ويطفو بمساوئ الأخلاق وأسودات الظنون والتفنن في التخريب لأسطحها. والجهل بالدين والعلم يحول المجتمعات لما يشبه الغابات، لا تضافر ولا تجمعات إلا للقتل وافتعال المعارك والمشكلات.

***

ما إن وصلته الخيول المسرعة وأخبرته زوجة الحاكم بالأنباء السيئة حتى بادر بإرسال رسول من جنود الحاكم الذين اصطحبوا زوجته في موكبها لرسلان يحثه على الحضور في الحال، حضر رسلان متوجسًا فذهبوا جميعهم، عمرو ورسلان وعادل وزوجة الحاكم ومن معها، اتجهت أنظارهم صوب القلعة، أسرعت الخيول وأسرعت معها دقات قلوبهم، تلتمع الأعين الصادقة قلوبها بالعبرات وتهمس الشفايف وتتمتم بكلمات رجاء ودعاء للخالق بأن يخفف عن الحاكم ويشفيه. حتى رسلان أخذته الشفقة به ورأف بحاله لما لمسه من تبدل في حاله وسلوكياته الأخيرة.

لقد تاب من ذنوبه وعاد لربه فسلم من عقاب الكائن وأدعوا الله أن يعفو عنه وينجيه من عقابه. كان رسلان يحدث نفسه وهو على صهوة حصانه متجهًا للقلعة بصحبتهم. قلقة هي القلوب، صامتة الأفواه، ترتجف الأطراف وتسري في ظهورهم رعشة خفيفة تخبرهم بقرب حدوث حدث يخشون منه.

وصلوا للقلعة فرأوا تجمهرات وأعداد لا بأس بها من عامة الشعب أمام البوابة، جالسين على الرمال يفترشون أغطية رؤسهم لتقيهم الرمال الملتهبة من أثر أشعة الشمس ويعتمرون القبعات المصنوعة من الخوص لتحجب عنهم حرارة الشمس، تتوق قلوبهم لرؤية حاكمهم الذي طال بعده عنهم بأفعاله وأخيرًا عاد، عاد هذام كما عهدوه من قبل، كان كبار السن منهم أكثر قلقًا وخوفًا على الحاكم وأكثر حبًا له وسعادة بعودته، فلقد هاجر معهم واجتهد في إقامة مدينة تلمهم وشارك في تعميرها.

بل هو من عثر عليها يوم أرسله الحكيم يبحث ويختار أرضًا. أما حديثي السن فكانوا أقل منهم في توجسهم، لم تكن مشاعرهم ثائرة مثل الأقدم سنًا، فإن من يسمع ليس مثل من يرى ويعهد ويعاشر.

نزل عمرو من على ظهر حصانه فنزلوا جميعًا، تقدم خطوات وراح يمر من بين المتجمهرين عند البوابة، أحب موقفهم تجاه حاكمهم وزاد خوفه عليه كما زادت رغبته في رؤيته للمرة الأخيرة مع كرهه لأن يراه هكذا، مريض وضعيف. فتح الحراس البوابة الرئيسية فدلفت زوجة الحاكم والملتفون حولها من الجنود ثم دلف عمرو وعادل ورسلان ثم أوصدت البوابة لتجعل الأعداد المتجمهرة في الخارج تجلس ثانيةً وهم يزدردون ريقهم ويمسحون العرق المتصبب من جباههم بأطراف أكمامهم.

ولجت زوجة الحاكم من باب غرفة زوجها فالتفت لها ببطء وهو مبتسم وينظر خلفها ليرى عمرو ثم زالت الابتسامة من على وجهه شيء فشيء لعدم التقاط عينيه لصورة صديقه.

أخذت قسمات وجهه شكلًا آخر، اختفى العبوس لتحل محله البهجة. تقدم عمرو بوجل وهو مطرق الرأس، إنه أكثر شوقًا منه لرؤياه ولكنه لا يحتمل أن يراه هكذا، لم يعهده بهذا الضعف، لطالما كان أقوى منه في مشاعره، لقد أظهر قوة في احتمال المصائب حين مات الحكيم، كان يفكر بحكمة ويتصرف بشكل سليم حتى استطاع أن يجعل طوائف الشعب تتوحد وتلتف حوله، كان بارع في اخفاء مشاعر الحزن وإن كان يموت كمدًا حين يختلي بنفسه، يخلع قناع

الشجاعة وبرودة الأعصاب لتظهر ملامحه العذبة الباكية وتلتهب مشاعره وتتخدر أعصابه وينخرط بالبكاء.

كانت عينا هذام تقرأ ما تقوله عيناه، ينظر له بابتسام وحب، يريد أن يحتضنه لولا ألم صدره الرهيب، فكر في ضمه رغم ذلك فلربما طيب جروحه وخفف من آلامه ولكنه عدل عن ذلك حين اشتد به الألم، وخزة قوية تفتك به وتعصر صدره عصر.

قرأ في عينيه عبارة "كيف حالك يا صديقي" لطالما أحب سماعها وهو يلفظها بلسانه، نعم إنه صديقه الأول والأخير، حبه له ضخم يكاد يملأ هذه القلعة وما حولها، لم يكرهه يومًا حتى وهو في أوج سطوته وظلمه وإن شعر تجاهه بشيء قليل من نفور وبغض، إنما كانا شعورين مؤقتين، كان حبه في قلبه قديمًا وساكنًا كالذكريات القديمة والدار الأولى التي يهجرها صاحبها، يهجرها بجسده وتظل روحه قابعة بها، يسكن ما يسكن بعدها ويقابل من يقابل وتظل تلك الدار في قلبه بذكرياتها وناسها.

يتذكر أوقاته بها ويبتسم ويعبس، يضحك مقهقه على مشهد تذكره ويبكي بدموع لتذكره. إنَّ الذكريات بقدر ما تسعد بقدر ما تحزن، تترك في القلب شعورًا بالفقد ما حيي المرء، إنَّ الحنين لها يقتل أسرع من السم الفعال ومن طلقات الرصاص، من هم مرهفون الحس، كثيرون التفكير في الماضي، من يتمتعون بمشاعر الرقة يتمزقون وتتثقب قلوبهم حين تومض ذكرى في أذهانهم، يا لسعادة متبلدي المشاعر، فإنهم في منجى من الحنين إلى الذكريات ووجعها.

نظر إليه مطولًا وقد ارتسمت على محياه البسمة فملأت الغرفة بهجة، ابتسمت زوجته حين شاهدته يبتسم وتأثرت فبكت بصوت خفيض، ثم نظرت باتجاه الباب وأخفت وجهها بين كفيها وهي تهتز من أثر البكاء، تهتز فتتساقط الدموع لتفضح أمرها، أحست بأن الحاكم يرقب تصرفاتها وإنه يرهقه ما يراه، يتعبه أن يشاهدها هكذا، ضعيفة حزينة وباكية ولا يستطيع أن يفعل شيء، بل إنَّ ألمها منه وعليه، هو المُبكي والمَبكى.

أراد أن يبعدها عن صورته لتكف عن البكاء، كما أحب أن يختلي بصديقه ليتعانقا بالنظرات ويتعاتبا إن كان ينفع العتاب، ولكن العتاب لن يغير شيء من الواقع ولن يرجع شيء مما فُقد. ناداها بصوته الخافت أن أخرجي قليلًا يا زوجتي، فلدى صديقي كلمات تقتله، دعيه يلفظها خارج قلبه ليبقى حيًا.

مثلت زوجته للأمر وهي تبتسم، فإنها تحتاج لهدنة مع الحزن، فترة استراحة كي تستطع استكمال رحلتها النائية الموغلة في البؤس معه، خرجت مبتسمة وباكية، تهز رأسها موافقة منفذة لطلبه، تترقرق العبرات في عيناها معبرة عن حزنها وقلقها تجاه زوجها.

ما إن خرجت وأوصدت الباب خلفها حتى أخذ هذام نفسًا عميقًا ثم أخرجه ببطء وهو مغمض العينين، كان عمرو يراقبه بقلب مرتجف، فتح هذام عينيه ورفعهما ليرى صديقه الواقف قبالته وتلتمع عيونه بالدموع. لم يخنه إحساسه، فقد قال عمرو بنبرة هادئة وإخلاص:

- كيف حالك يا صديقي؟
- الحمد لله يا صديقي، إنني الآن أفضل حالًا من ذي قبل، برؤيتك حزين من أجلي وليس حزين بسببي، لقد أذيتك كثيرًا ووالدك يا عمرو وتسببت بالأذى للكثيرين.

بدأت دموعه في الهطول، هو القوي قاسي المشاعر أحيانًا، فاقترب عمرو منه وأمسكه من يديه معانقًا أصابع يديه بأصابعه وقال له بتودد:

- لا تبك يا صديقي... لا تبك، ستكون أفضل وأقوى يا هذام، ستعد لنا قويًا معافى.
- همم... إنَّ الأمر سيان بالنسبة لي يا عمرو، لم أعد أهتم، كنت سأكون قلقًا إن تماديت في الظلم وبعدت عن الحق وضللت طريق الله، أنا الآن سعيد وسأذهب لخالقي مطمئنًا وفي كرمه طامعًا.

شد عمرو على أصابعه إلى أن أدرك أنه يتسبب له في الألم فأفلتهم ونهض واقفًا وهو يبتسم وتنحدر الدموع من عينيه:

- نعم يا هذام ستفرح بلقاءه سبحانه، إنَّ العدل يا هذام ينير الوجه والدرب ويثأثأ النفس ويهدهد الروح، إنَّ الأعمال الصالحة تنعش القلوب والعدل على رأسها، بدونه تتفرق قلوب شتى وتزول أمم عتية بقلاعها الضخمة.

أدار هذام رأسه للجهة الأخرى حيث لا يقف عمرو وقال بدموع:

- رحمك الله يا حكيم أبا منجد زرعت فينا ما لم تستطع المغريات اقتلاعه، لقد نبشت عنه وكادت أن تجتثه من جذوره، إلّا إنَّ جذوره كان ممتدة ومتفرعة وفي الأرض عميقة وغائرة.
- إننا الآن نحصد ما زرعه الحكيم في قلوبنا يا هذام وستحصده أنت حينما تلقى ربك، سيغفر لك الله وسيكافئك على اجتهادك في إقامة العدل وإخلاصك في توبتك.

أومأ برأسه وهو يغمغم بكلمات خافتة، فهم عمرو منها بأنه يدعو ربه. ثم ارتكز على يديه وشد جذعه للأعلى بقدر ما استطاع وقال بصوت رخيم:

- اقترب يا عمرو واستمع لما سأقوله بانتباه.

تجاوب عمرو معه واقترب بجسده وروحه:

- أتتذكر الحفل الأخير؟

أومأ عمرو برأسه بالإيجاب فأردف هذام:

- ذلك الحفل كان إشباع لرغبة سيطرت عليَّ وغلبتني، كان شيء ما بداخلي يحركني، شعور قوي يساورني تجاه إبني باسل، في ذلك اليوم وقع بصري بعد النظر في وجوه الكثيرين على رجل مسن مع زوجته التي تقترب من عمره بصحبة ابنة لهم وشابًا فتيًا، ذاك الشاب يا عمرو كان وجهه مألوفًا لي لدرجة جعلتني أشك في أنه ينتمي لهم، لقد سرت في جسدي قشعريرة وتصلبت ملامحي لبرهة وتثلجت أوصالي وكدت أسقط على الأرض من تخدر قدماي. ولكني برغم ذلك كنت سعيد، غمرتني البهجة يا عمرو. كأني وصلت لبئر ماء بعد سفر مديد وعطش رهيب، لقد روتني نظراته لي، راضيت

رغبة بداخلي ولكني لم أشبعها إلى الآن ويبدو بأنني سأموت دون أن أتيقن مما طرأ في ذهني.

كان عمرو أثناء حديث هذام يقطب جبينه ويعقد حاجبيه، إنه يفهم ما يقوله ولكنه يستبعده، كيف يكن باسل حي إلى الآن؟ إذًا من الذي التهمه الكائن في الغابة يوم اختفاءه؟ لا لا... لا أتوقع ذلك. كان يهز رأسه نافيًا ومندهشًا مما يقوله مما دفع هذام لأن يخرج هذه الكلمات:

- لا أريد منك إثبات على أنه هو الآن يا عمرو، فإنه لن يفيد، فساعات بقائي باتت قليلة، ما أرجوه منك أن تهتم بالقضية قدر ما تستطيع، تقتفي أثر ذلك الشاب وتجتهد لتعرف الحقيقة، هناك أمل يا عمرو، ولو كان ضئيلًا فإنه يبقى أمل.

مع تصديقه لما يقوله إلا أنه لم يعتقد بأنه سيكون هو. ولكنه رغم ذلك طمأنه بأن أقسم له بأنه سوف يبحث في الأمر بقدر ما يمكنه الله من ذلك.

حشرجت روحه في صدره وسرت في جسده رعشة برد لاذعة ومختلفة عن ذي قبل فأشار لعمرو بأن ينادي على زوجته، كان يحبها بصدق وأراد أن يراها قبل ذهابه، إنَّ الوداع شيء مرير ولكن الرحيل بدونه أكثر مرارة، تلك اللحظات القليلة والنظرات الصامتة كفيلة بأن تسد ولو جزء بسيط من الثقب الذي يخلفه وراءه من يرحل، إنَّ عذاب الوداع أقل وطأة على القلب من عذابات الفراق الساكت المجهول، أيها الراحلون عنا وخصيصًا من نفتقدهم للأبد، نرجوكم ونشد على آياديكم بأن ترأفوا بحال قلوبنا الضعيفة، لن نطلب منكم الكثير، امنحونا لقاء أخير فقط، تلتقي فيه عيوننا وتتصافح قلوبنا وتتصافى طوياتنا، فإن كان ينفع العتاب الآن والتصالح، فإنه لا يفيد يوم ندرك أنكم فارقتمونا للأبد.

هرولت ثريا ترفل في ثوبها وراء عمرو، تتبع خطاه بقلب تعتصره مشاعر الحزن وبوادر الفقد، تتبع درب ابن ميمون في طريقه لغرفة زوجها وتتبع دربه في طريقه للحزن، كانا مختلفان في الكثير من الأشياء والصفات ومتفقان على مشاعر البؤس التي ستحيطهما بعد قليل ويعلمان ذلك حق العلم.

ما إن وصلت بصحبة عمرو حتى تململ وأراد أن يتراجع ويغادر ولكن نظرات هذام المترجية أوقفته ولكنه انزوى في ركن بعيد قليلًا منهما وأسند ظهره للجدار ورفع رأسه يتأمل السقف ويصارع الدموع، أراد لمقلتيه بأن تطيعاه هذه المرة ولكن العبرات الحارقة كان تؤلم عينيه فترك لها العنان لتخرج وتحرق جبينه وتترك مكانها باردًا.

صمت رهيب دام لثوان إلى أن قطعه هذام بإجابة على سؤالها له يوم الحفل:

- كدت أسقط يوم الحفل يا ثريا لأنني...

تنهد بعمق ثم إستطرد بصوت مختنق:

- لأنني أشك بأن ولدنا باسل قد مات، أظنه حي إلى الآن وما حدث لي يوم الحفل لم يكن ليحدث إن لم تقع نظراتي على ذاك الشاب، فلقد رأيت شابًا انتابتني رغبة قوية في احتضانه، إستبد بي إحساس قاتل بأني سأموت قبل أن أعرف الحقيقة، لقد تحدثت مع عمرو وشرحت له الأمر، عليكما أن تجتهدا فيه من أجلي يا ثريا وهذه وصيتي لكما.

غصة في حلقها تفتك بها برغم السعادة التي ظهرت على ملامحها، تلبطت في أمرها وأخذت تزم شفتاها بنشوة وهي تهز رأسها ولم تستطع رغم محاولاتها أن تمنع ابتسامة خرجت من قلبها وتسللت لفمها وهي تقول بفرح حقيقي:

- هذا لا يعقل. أتمنى أن يكون صحيحًا، ابننا باسل حي!

اختفت ملامح البسمة لتحل محلها ملامح الوجوم وهي تقول:

- لماذا تذكرني به الآن؟ لقد جاهدت طويلًا لأن أنسى ما حدث له، وبرغم أنني لم أنساه يومًا، إلا أن الحديث عنه يؤذي قلبي، ماذا إن كانت طنونك ليست في محلها؟ لن أحتمل الصدمة مرتين يا هذام لن أحتمل.

كانت الكلمات تخرج من فمها بشكل آلي، كانت شاردة في عالم سحيق، تتذكر ملامح وجه طفلها الذي اشتاقت له وتسهب في الحديث ولم تلحظ زوجها الذي كان ينتفض من الألم

ويزفر بقوة، إلى أن وخزها عمرو من يدها فتداركت الموقف بوجوم وعجز ولم تكن حالتها بأفضل من حالة عمرو الذي انكب على أقرب كرسي وهوى باكيًا.

صدح صوت المنادي بنبرة مبحوحة متهدجة، تخرج الكلمات ببطء وتوأدة إجباريين، ذاع الخبر الحزين، رحيل الحاكم هذام الذي اتفقوا معه ثم اختلفوا إلى أن هداه الله واتفقوا أخيرًا وارتضى بأن يرحل وهم راضين عنه. شاع الخبر سريعًا وتناقلته الألسن بحزن وقابلته الصدور بألم وقبلته القلوب بشوق رهيب، أو لم تقبله فإن أمر الله قد نفذ.

طول فترة العزاء كان عمرو وابنه عادل بداخل القلعة ولم يفارقا ثريا وابنتها أميرة وولدها المغيرة الذي استلم مفاتيح القلعة والحكم بعد أبيه.

خيمت غيمة حزن قاتمة على القرية، سحب سوداء موحشة غطت سمائها وحجبت الأفراح عن الأهالي، رموز القرية يرحلون واحدًا تلو الآخر، قبل شهر رحل هذام ليلحق بالحكيم. ماذا تبقى لنا؟ تبقى لنا عمرو بن ميمون يا هذا.

كان رسلان يمشي بين الناس حين سمع أحدهم بالقرب من النهر يقول بحزن باد ماذا تبقى لنا؟ وكان جليسه قد سبقه بقوله إنهم يغادرون بلا رجعة، من جالسناهم وحدثناهم وشاركناهم أوقات السعادة والبكاء يذهبون لحيث لا نستطع اللحاق بهم إلا ونحن موتى.

قالها بصرامة كأنه يعلنه حاكمًا بعد هذام، نظر الرجلان إليه بعيون أنهكتها كثرة الدموع على الراحلين ثم ابتسما له وعيناهما تلمعا بالدموع وذهب هو في طريقه للورشة.

_ ٥ _

المغيرة

مرت شهور على رحيله، لم تكن الأوضاع مستقرة كما ينبغي. لا بد من حاكم يخلف الحاكم هذام، نعم أحببناه ومازلنا نحبه وحزنا عليه، لكنه رحل والجميع متفق على ذلك ولن تتوقف حياتنا عند وفاته. الحي أبقى من الميت. قالها شاب في السوق وتناقلتها الناس سريعًا، بدت منطقية إنما نكئت جراح ثريا زوجته فبكته بحرقة.

- يجب أن نسرع من تنصيب حاكم يحمينا من الأخطار التي تداهمنا من الخارج ومن خطر الكائن الذي يسكن الغابة، فإلى الآن وبعد طول سنين لم نتعرف على هويته.
- ومن برأيك جدير بهذه المكانة يا رسلان؟
- هيه! عجيب أمرك يا ابن ميمون، ومن غيرك حليق بها؟

كانا يتجاذبان أطراف الحديث وهما في الورشة يمارسان العمل، كان عمرو كاسف البال والصمت هو حديثه ورسلان ينظر إليه خلسة بين الفينة والأخرى، إلى أن بادره بالحديث عن الحاكم الراحل ومن يجدر به خلافته في الحكم.

- لا يا رسلان، ما رفضته سابقًا وأنا شاب سأرفضه الآن وأنا شيخ تجاوزت الخمسون، إنَّ هذه المكانة لا تليق بي.
- يا عمرو، فلتفهمني، إنك تتمتع بالحكمة المطلوبة وأصبحت لديك خبرة في هذا المجال، كما أنك من أشد الناس حبًا للعدل ومدينتنا شبعت ظلمًا وجورًا، الناس ظمأى للعدل، لا أعتقد أن هناك شيء يربط بين القلوب كالعدل، إنه أقوى من رابط الحب ذاته، إنَّ المحبين يظلمون بعضهم بالفراق والعناد والمكابرة وغيرها من الأشياء، فيضطرون

مرغمين لعصيان مشاعرهم، ويتسلل الكره إلى قلوبهم حتى يطمر مشاعر الألفة تحت سطوته.

- ألا ترى يا رسلان أن المغيرة حليق بهذا المنصب؟ لا أتحدث عن فكرة الوراثة، ما أود شرحه بأنه في الآونة الأخيرة مارس الحكم فعليًا، في حياة والده كان يقابل الزوار ويتابع الأحداث عن كثب، واستطاع بذكائه أن يثني سادات بعض القرى عن أفعالهم، فإنك تعلم بأنهم كانوا يطالبون بالانفصال عن مدينتنا والخروج عن حكمنا، وعندها يا رسلان كانت ستكثر أعدائنا، كما أنه شاب وقوي وفارس مقدام.

سلم الجميع بعدما رفض عمرو للمرة الثانية أن يكون الحاكم وارتضوا غير مبالين بالأمر أن يكون المغيرة هو الحاكم، لقد اعتادوا الحياة مع العقبات وأصبحت لديهم مناعة ضد الذل، فإن بغى المغيرة كما كان يتوقع الكثيرون فلن يغير من الأمر شيء، لطالما عاشوا تحت وطأة الطغاة صامتين ويبدو أنهم فضلوا الرحيل واعتادوه، فمنذ فرارهم من أرضهم الأولى وهم يفرون من كل شيء حتى من مقاومة ما يؤذي كرامتهم.

خالف المغيرة كل التوقعات، استطاع أن يوحد صفوف القرى ويكسب ثقتهم ويضمهم إلى صفه، كما أنه نشر الأمان في جميع الربوع، فلقد خرج من قلعته بصحبة جنوده وزار المدن والقرى المتناثرة على خد النهر واجتمع بالسادة والأغنياء ودارت بينهم الأحاديث التي انتهت بالتصفيق لما قاله لهم، كما أنشأ صندوق أطلق عليه صندوق التعمير، تجمع فيه التبرعات والأموال التي كانت تدفع للحاكم مقابل حمايته لهم تحت إشراف مجموعة من الشرفاء وتوزع على الفقراء ومن لا مأوى لهم. وأقام دور جديدة ورمم دور كانت قد اهترئت.

جمع شتات الناس فالداخل والخارج وخاض عدة معارك مع من كانوا يهددون حكم والده من قبل وقهرهم أشد قهر. وكانت لعبارته التي قالها في خطابه في ساحة المحاكمة مفعول السحر على الجنود والعامة، فلقد كانت الناس تخشى خوض غمار الحرب وإشعال شرارتها إلى أن قال لهم:

- إنني من أشد المعارضين للحرب، لكن عندما تقوم، عليَّ أن أحمل سلاحًا أو كفن. والحرب قادمة لا محالة، إن لم نبدأها نحن ونباغتهم سيهاجموننا بكل قوة ونحن مشغولون بأمور أخرى وسيهزموننا، كما أنني لن أتمكن من إعمار الداخل وبث الأمان فيه ما دام الخارج ملبد بالمخاطر.

استتب الأمن بالداخل والجميع رضي بحكم المغيرة، كانت لا تزال ثلة قليلة من الأشخاص يرفضون حكمه إلى أن شغلهتم المعارك الخارجية التي خاضها مع جنوده وظلوا لفترة طويلة قلقين بشأن الخارج، حالما كانوا يفكرون أو يتطلعون لثورة قادمة كانت تطرأ على أذهانهم فكرة أن أرضهم من المتوقع أن تُحتل ويحيوا ما تبقى لهم من الحياة تحت حكم غزاة مستبدين، فكانوا يقارنوا بين حكم المغيرة وحكم المحتلون فيجدوا أن الصمت مناسب جدًا، ثورتهم عليه ستزعزعه وجيشه، ولربما ينتهزها المتربص فرصة ويهيئ جيشًا ويدخل أرضهم.

ومن ناحيته سعى المغيرة مخلصًا لأن يوفر لهم سبل الأمان على قدر المستطاع فأمر جنوده بمطاردة قُطاع الطرق إلى أن يقتلوهم أو يخرجوا من أوكارهم ويغادروها بغير رجعة.

واتجهت أنظاره للغابة وحار في كيفية بث الأمن فيها، لا أحد يدخلها أثناء الليل خوفًا من الكائن، وكانت أصواته كفيلة بأن تمنع أي شخص من دخولها.

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

ما بين الحب والخوف

سمعها تتحدث عنه مع خادمتها. لطالما نهرها عن فعلتها تلك، إنها أميرة! أخت ملك وابنة ملك راحل! كيف لها أن تجالس خادمتها لفترات طويلة وتحدثها عن شؤونها الخاصة؟

لم يعد يفهم شقيقته أم انشغل عنها بالحكم؟

كان في طريقه لغرفتها للاطمئنان عليها فور خروجه من غرفة والدته ثريا حين التقطت أذنه كلمات لا يحب سماعها، إنها أميرة شقيقته المدللة تجلس في غرفة خادمتها وتتحدث عنه كالعادة. ماذا فعل لها عادل؟ هل سحرها؟ توقف وسأل نفسه.

يبدو أنه شغل تفكيرها في فترة بقاؤه في القلعة مع والده، ويبدو أنها باتت مغرمة به وصارت صورته لا تفارق خيالها، كما أن السهاد عرف طريقه لعينيها الرقيقتين والأرق زار فراشها فتركت لقدميها العنان حتى استقرت بها الحال في غرفة خادمتها الكاتمة لأسرارها، فهي لا تخرج من القلعة ولا توجد لها صديقات. لا بد للمرء أن يبوح ولو لنفسه عما في نفسه، الكتمان فعل مرير وخصيصًا في أمور الحب، بعض الكلمات تتطلب الصمت وبعضها لا تطيقه الصدور فتبحث عن أي إنسان وتبدأ رحلة البوح والثرثرة. محظوظ من له إنسان يلقي عليه الكلمات التي تطبق على صدره فيقابلها بوجع كما هي حال محدثه، ثم يتمكن من إعطائه مشورة أو نصيحة سديدة تخفف من أوجاعه وترشده لدروب الاطمئنان الداخلي وهدوء النفس. وإن لم يعطِ فيكفي الإصغاء باهتمام.

توقف وضرب كف بكف فانقطع صوتها وأطبق الصمت على المكان، كان صوت ارتطام يده بالأخرى قويًا لدرجة أنهما سمعتاه من خلف الجدران فتوقفت أميرة عن الكلام على الفور بينما لطمت خادمتها خديها بصمت وخوف.

لم تكن أميرة بخائفة إلا من رد فعله، فمن الممكن أن يأخذه شيطانه لطريق وعر بأن يزداد حنقه على عادل عن السابق فيأمر بسجنه، لطالما خشيت من هذا الأمر منذ تبادلها النظرات والبسمات معه أثناء وجوده في القلعة تحت أنظاره وملاحظته لارتباكها في كل مرة يأتي فيها للزيارة مع والده، ما يقلقها حقًا أنه ومع شعوره بأن شيء غريب يحدث بينهما لم يتحدث معها في الأمر ولو بتلميح بسيط، كأنه بتجاهله للأمر يبعث لها برسالة فحواها أنه يتجاهله بالكلية.

وإن تقدم لخطبتها فلن يوافق أبدًا. أحيانًا يقسوا الأقارب علينا خوفًا وحرصًا، ليضمنوا لنا السعادة ولا يدرون أنهم بذلك يتسببون لنا بالحزن. فليست قراراتهم المتعلقة بأمور حياتنا بحصيفة دائمًا. لماذا هم كذلك؟ دارت في خلدها الأسئلة وهي قلقى.

لطالما عهدها أخيها شجاعة ولا تهاب المواجهة فلربما لذلك لم يتحدث معها في شيء ولكنها رغم ذلك ساورها شعورًا بالقلق والخوف، فهي لم تعتاد منه أن يتصرف هكذا بهدوء، إنه بذلك يدبر أمرًا ما، ربما يفكر في أذية عادل، شهقت وهي تضع يدها على فمها. من يبوح بما في داخله يقل خطره وإن كان ما يقوله خطرًا، الخوف كل الخوف ممن يصمتون وبالهدوء يتسمون. لا بد أن تجبن قليلًا وتتنازل عن كبريائها أمام أخيها كي لا تتسبب في أذية لمن دخل قلبها، هكذا هو الحب يسكن القلب ثم يشتعل فيأخذ القلب يتقلب ويتقلب لتنطفيء ناره فيتقلب معه المرء وتنقلب طباعه وربما مبادئه الراسخة منذ ولادته، فلا عجب من هادئ أصبحت العصبية طبعه بعدما أحب أو حليم انقلب حلمه لغضب أو العكس، الحب يلهب المشاعر ويجعل المرء أحمقًا أحيانًا، ومن الممكن أن يصنع منه بطلًا أو تافه. هذا يتوقف على كيفية فهمنا للأحداث وتصرفنا إزاءها.

لم يعد يرغب في رؤيتها. كيف وهي شقيقتي؟ وستبقى كذلك حتى وإن حاولت التبرأ منها.
أمسك رأسه براحتيه، فقد شعر وكأنما أحدهم يضربه بهراوة تألم رأسه وتعبث بتركيزه.
كان ينوي الاطمئنان على حالها غير مبال بالألم الرهيب في رأسه ولكنها أقلقته دون أن يسألها. تلبط في أمره، أيعود ولا يلقي بالًا لها وحياتها فيكفيه الحكم ومشغولياته، أم يستمر ويمارس عليها حقه كأخ؟ حسم أمره وأكمل سيره في اتجاه غرفتها، كان على يقين بأنها ستنهض به فتعمد قرع أرض الرواق قليلًا كي تعلم بأنه تحرك.

***

كانت تضع المطهاة على كومة من الأخشاب كان قد جلبها ابنها من طرف الغابة من ناحية القرية، لم يرد أن يدلف ويتعمق بداخلها اتقاء لشر ذاك الكائن الغريب الذي يسكنها، يقولون بأن شيء مخيف يتخذها وكرًا، يقولون. وإن قال رسلان الرجل الذي لم يعهده يكذب أو يلتقط من أفعاله فعل سيء بأنه رآه عن كثب، فيبقى كلام، لا بد للمرء أن يرى حتى يصدق ما سمعه، ولا تكفي الرؤية لاستكمال الصورة الحقيقية، فكثيرًا من الأمور تظهر لنا بشكل جميل وفي حقيقتها هي أقبح القبائح، لكل عالمه الخاص، المغلق والمنفتح، ولا يمكن للمرء أن يجزم بأن الذي أمامه ويراه ويسمعه مغلق أم منفتح، صادق أم كاذب، مخلص أم مخادع وماكر. تبقى الطويات لله، يعلم بشأنها وحده، أما نحن البشر فتكفينا المعاملة بما نراه منهم.
تمر من أمامه بهدوء، تلتقط ملعقة، متبلة، تضع الملح، تقلب، دون إحداث ضجة تخرجه من شروده، بدا لها بأنه قابع بداخل غرفة جدرانها من الحديد الفولاذي، بلا نوافذ ولها باب واحد مغلق بإحكام بقفل من الخارج ومفتاحه الوحيد معه بالداخل، كيف تفتحه وتولج منه له؟ كيف تدخل لعالم ولدها الوحيد لتكتشف أسراره؟ تعرف السبب وراء شحوبه وصمته. وإن حطمت القفل واستطاعت الدخول، كيف ستدلف لقلبه وعقله؟ وهو الذي تعرفه جيدًا، عنيدًا مكابرًا وخجولًا بقدر شجاعته ودأبته. إنه على حاله هذه وصمته منذ أيام وشهور، فكرت بأنه قد تغير مذ كانا هو وأباه في القلعة بعد وفاة الحاكم هذام. أيكون الحاكم الجديد قد قال له كلام

أزعجه؟ لا يا سليمة فعادل والمغيرة مثل الأخان تمامًا كما كان زوجي والحاكم، حتى وإن أصبح الحاكم فسيظل المغيرة صديقه.

تتمتم لنفسها وتنظر له، كانت من حين لآخر تختلس نظرات وتتمعن في قسماته، و لمَّ تختلس وهو على حاله تلك؟ وإن جلست بجواره فلن يشعر بها من شدة شروده. رأته يبتسم فابتسمت دواخلها وبقيت ملامحها جامدة، لعلمها بأن ملامحه ستتحول بعد لحظات ليحل محلها العبوس، فقد كان يبتسم ثم يحزن. خُيل لها بأن ذكرى طيبة تمر من أمامه فيسر لها، وأخرى تطرق بابه فتضفي على ملامحه علائم الكدر والهم.

فتحت غطاء المطهاة بحركة سريعة وبدون حائل بين يدها وبينه مع إنه كان شديد الحرارة، ولكن حرارة جسدها جراء قلقها على ابنها كانت أشد فلم تشعر بشيء، تصاعد الدخان للأعلى بشكل حلزوني وانتشرت الرائحة العبقة التي تثير اللعاب في أرجاء الدار، حتى إنها وصلت إلى ميمون بداخل غرفته فزادت من شعوره بقرصات الجوع. غمست الملعقة في الطعام وتذوقته واطمأنت لمقدار الملح والماء ثم أنزلت الغطاء وتطلعت وهي في موضعها على عادل وفكرت في أن تذهب إليه وتتحدث معه.

إنَّ دار ميمون تتألف من ثلاث غرف في ردهة واحدة، كل غرفة تبعد عن الأخرى مسافة ثلاثة أمتار، وبهو فسيح في صحنه يفضي إلى الرواق، كان ميمون جالس في غرفته، وكان عادل منكمش على حاله في زاوية في صحن الدار على كنبة من الخشب المبطن بالصوف الخشن، وفي الزاوية التي تقابله كانت تقف والدته سليمة وأمامها الموقد وأدوات الطهي.

تركت ما في يدها وتقدمت نحوه، جلست ولم يشعر بها، قبل أن تقول شيء أخذت تنظر إليه، كان مائل للوراء مستندًا إلى ظهر الكنبة بكتفه وذراعه الأيمن، كانت تجلس قبالته ويبدو أنه لم ينتبه لها.

أتحدثه أم لا؟ أحست بأن ابنها عائم في نهر أفكار جارف، يأخذه تيارها رغمًا عنه دون أدنى مقاومة منه، فإنه قد سلم نفسه لأفكاره تطوحه هنا وهناك، حتى أنها جمدت ملامحه كتمثال

من الحجر. بدا لها أنه مكدود وخشيت أن تحدثه فيغضب، وهي كأغلب الأمهات لا يحبن إغضاب أبنائهن. قامت واتجهت صوب الموقد وقد حسمت أمرها. سأتركه الآن وأتحدث معه بعد الغداء.

***

غادرت غرفة خادمتها وحافظة أسرارها بعدما اطمئنت بأنه قد سار ناحية غرفتها، إنها برغم ما حدث والقلق البادي على محياها، لا تحب أن تهان أمام أحد، دائمًا ما كانت تختلي بأحزانها وما يؤلم قلبها. كانت تؤمن بأن الأحزان محلها القلب، من الأفضل ألّا تطل من نافذته المشرعة على وجهها حتى لا تؤذي أحبتها بنظراتها الحزينة. إنها على يقين بأنه قد سمعها وكانت تعلم بأنه انزعج وسيعاتبها بقسوة وضراوة. ولولا والدتها ثريا لكان قتلها إتقاء لشر الفضيحة كما كانت تعتقد بأن هذا تفكيره.

سارت بخطى وئيدة ثم طردت عنها هواجس الخوف من ردة فعله وشعرت فجأة بدأبة تسري في جسدها وأن خاطرًا سريعًا مر بذهنها أمرها بأن تستقوي، فلم تجتهد في إخفاء رعب أو إظهار شجاعة، بل تقدمت بثقة ودفعت الباب.

كان جالس على طرف سريرها يرقبها بصمت وهي تولج من الباب وتغلقه وراءها.

وقفت قبالته وهي تبتسم ثم قالت بهدوء:

- كيف حالك يا أخي؟

هز رأسه للأعلى وللأسفل وجفنيه منسدلان ثم نظر إليها وحملق فيها وقال:

- حالي هو حالكِ يا أميرة، إن مسكِ مكروه فاعلمي بأنه سيمسني قبلكِ، لذلك إنني من يتوجب عليه السؤال والاطمئنان. فكيف حالكِ أنتِ يا شقيقتي؟

إنها تعلم حق العلم ماذا يقصد بالتحديد، فكرت قليلًا: حالي هو حالكِ، أممم، إنه يرمي لنفس ما أفكر فيه، يقصد بأني باستمراري بالتفكير والكلام عن عادل سأؤذيه هو قبل نفسي. إنه الحاكم ويخشى على صيته، ولكن مماذا؟ في زواجي من عادل فضيحة؟. نفضت رأسها

لتطرد عنها الأفكار ثم تقدمت وجلست على الطرف الآخر من السرير وقالت له بابتسامة عذبة:

- إنني بخير يا أخي.

ثم أردفت بمكر:

- مالي أراك حزينًا؟ كأن شيئًا أزعجك؟

إنها تعرف جيدًا ما أفكر فيه، فما من سبب يدعوني لإخفاء الأمر. تمتم لنفسه قبل أن يجيبها:

- ما الذي بينكِ وبين ابن عمرو يا أميرة؟ لطالما شغلتني تبادلكما النظرات أثناء فترة وجوده هنا، حتى إنني فكرت ذات مرة أن أفقع له عيناه لولا أني رأيتكِ أنتِ أيضًا تنظرين إليه وشعرت بأن الأمر يروقكِ! فكرت أيضًا مرارًا أن أحدثكِ فيه إلا أني انهمكت في تدبير شؤون البلاد.

امتلأ صدرها بالشجاعة لهدوءه، أفضل ما توقعته لم يكن هكذا، حسمت أمرها بأنها سوف تقول له بأنها تحبه حقًا، وهل الحب يعيب صاحبه لأخفي مشاعري؟ لماذا عليَّ التكتم والحذر؟ لو كان الحب خطيئة ما كنت أتيت للدنيا ولا هو أيضًا وأخينا باسل الذي لم أره، يقولون بأن كائن الغابة قد افترسه، وهذا سبب بغضي لذاك الشيء بدون أن أعرف ماهيته، لو لم يحب أبي أمي ما كان تزوجها وما كنا أتينا. إنه ليس عيبًا؛ إنما العيب في الخيانة. أن نتلاعب بمشاعر الآخرين باسمه فنؤذي قلوبهم التي وثقت بنا.

- ليس بيني وبينه شيء فعليًا يا أخي، كل ما في الأمر أنني منجذبة له، ولا أعلم مشاعره، إلا أني أعتقد بأنه يشعر بما أشعر به، ولكنه لم يصارحني بشيء من هذا ولا أنا صارحته.

تفرس في وجهها قليلًا وهو يزم شفتيه ثم قال بنفس نبرة الهدوء التي أربكتها:

- من الأفضل ألّا يصارحكِ.

قفزت منتصبة ورفعت رأسها شامخًا ثم اتجهت ناحية نافذتها وقالت بدهشة:

- لماذا؟.

إنها تعلم الإجابة حق العلم، لكنها كانت تعمل على سبر أغواره، لتجعله يبوح بما يكنه لعادل ويخفيه، برغم حبها له إنما فكرت في أن تتعمد الابتعاد عنه طالما أن أخيها واضعه في رأسه هكذا، لا تريد أن تتسبب له بإذى. تفضل التضحية بسعادتها مقابل سلامته.

قال باقتضاب قبل أن يغادر غرفتها:

- تعلمي الإجابة.

رمت بجسدها المتعب على سريرها ودفنت وجهها بين راحتيها وصدر عنها نحيب سمعته خادمتها ولكنها لم تفكر بالاقتراب من غرفتها مخافة من أخيها.

***

بعد الغداء استطاعت سليمة الانفراد بابنها وحومت نحو أفكاره كصقر يتابع فريسته، تريد أن تطمئن قلبها عليه.

- ما بك يا بني؟
- لا شيء.
- كيف لا شيء؟!

صمت ولم يجب.

- تكلم يا عادل.
- ماذا أقول؟
- ما سبب الحزن الذي يحيط بك؟ ما يشغلك هكذا؟
- لا شيء يا أمي.

ترقرقت عيناها بالدموع وقالت وهي تثب: كما تريد. أشفق عليها فوثب منتصبًا قبالتها وقد افتر ثغره عن ابتسامة واهية ثم ربت على راحتيها وأجلسها وقال بنبرة حزن لا تخلو من إحساس بالعجز:

- أريد الزواج من الأميرة أميرة شقيقة الحاكم.

شهقت سليمة وتتطلعت لعيني ولدها المكدودتين وقالت بنبرة عطف:

- لم تجد غيرها وتتعلق بها يا بني.
- لم أجد يا أمي. ولم تدخل غيرها قلبي.

هزت رأسها وهي تعض شفتيها والدموع تنحدر على وجنتيها. لا تحتاج للكلمات، حالها وصف ما في قلبها ووصله إحساسها.

تبسم لها وقال:

- عرفتي الآن لماذا أخفيت الأمر؟ لم أرد أن أراكِ هكذا. لا عليكِ يا أم عادل، لن أتسبب لكما بمكروه ولكنني لن أستسلم تحت أي ظرف، فما من سبب يجعلني أتخلى عن أحلامي. عليَّ أن أكون جديرًا بها أولًا، ثم سيأتي ذلك اليوم الذي أراه من موقعي هذا، ذلك اليوم الذي سوف يدلف فيه والدي للقلعة رافعًا رأسه ويطلبها من أخيها.
- هل تحدثت مع والدك في هذا الأمر؟
- لا.

صمتت لثوان وهي تتنفس بعمق ثم وقفت وسارت نحو غرفتها في هدوء. بينما راح عادل يتابعها ويعذبه إحساسه بأنه سبب حزنها. وينهك جسده المنهك فعلًا معرفته بأن عذابه سيتضاعف حينما يخبر والده بما يجيش في صدره، إنه يتجشم عذابين في آن، حبه الذي لا يعرف له نهاية محددة، وهل إن كانت أميرة تحبه أم لا، وقلق وخوف والديه الذان هما بسببه. لكنه وبرغم ذلك مصر بل عازم على المضي قدمًا في سبيله إلى مُعذبته.

_ ٢ _

صراع القوى

لم يكونوا لصوصًا أو قُطَّاع طرق، بل هم فرق استطلاع بعثها أيهم بن داغر حاكم مدينة قوية وقائد جيشها، كانت هذه المدينة قوية بما يكفي، مكتفية ذاتيًا وليست تابعة لأحد، لكن حاكمها لم يكن يعجبه حال البلاد الأخرى المتناثرة على خد النهر والتابعة لمدينة الحكيم، ولما التبعية لمدينة غير مدينته؟ ألهذه الدرجة يستخفون بي؟ كان يحدث نفسه وشعورًا بالضعف يجيش في حنايا صدره كلما علم بأن قرية جديدة طلبت اللجوء والحماية من المغيرة حاكم مدينة الحكيم، فقرر في لحظة ثورة وعصبية أن يجتر خلفه جيشًا جرارًا ويزحف ناحية النهر ويجتاح كل القرى التي تسبق المغيرة ثم يدخل معه في معركة مصيرية تحدد من الذي يجب عليه السيطرة.

فبعث تلك الفرسان في ملابس لصوص ليتجسسوا ثم يأتونه بالمعلومات، وكانت معرفتهم بالغابة وما يحدث فيها وخوف الناس من دخولها نقطة إيجابية، تصوروا بأنها سلاح قوي يحاربون به أعدائهم، فقرر قائدهم أيهم عندما علم بذلك أن يبث الرعب داخل النفوس أولًا ثم يهاجمهم، فهم سيعتقدون بأنهم أمام مخلوقات غريبة لما سيروه من ملابس لا تشبه ملابس البشر وهيئتهم ككل.

قبل أسابيع طاردت جنود المغيرة الجنود المتجسدون في هيئة لصوص وطردتهم من أوكارهم لكنهم لم يستطيعوا اللحاق بهم والإجهاز عليهم، فوصلوا لقائدهم يبشرونه بالمعلومات التي ستقرب له ما يرنو إليه، فأمر الخياطون من حياكة ملابس تعلوها من الخارج جلود حيوانات وريش طيور وأصواف الضأن وشعر الماعز، والصناع من الإسراع من إعداد مغافر من حديد

مختلفة عن المعروفة، خوذ صلبة تتصل بها قرون حيوانات وتتخذ شكلًا موحدًا مخيفًا، كما أوصى بتجهيز أحذية عالية لتظهرهم عظامًا في طولهم، كان يعمل على تهيئة شكلًا ضخمًا متوحشًا لا يبدو مثل البشر لإرهاب كل من يقابلهم. وقبل كل شيء إرسال مجموعة فرسان مهرة بأبواق ومزامير وصفافير إلى الغابة أثناء الليل لتهيئة جو مرعب بما أنهم يعرفون بأن كائنًا غريبًا يسكنها.

لم يكن المغيرة يكن في صدره حبًا لعادل ولكنه لا يكرهه أيضًا، فأرسل في طلبه هو ووالده فالأمر لا يحتمل تأخير.

- سيدي عمرو بن ميمون. إنَّ الحاكم يطلبك في قلعته على وجه السرعة، وعادل أيضًا.
- لماذا؟
- لست أدري.
- حسنًا.

لم يفكر بأن يقول له اذهب وسآتي خلفك، فالمغيرة مثل أبيه، لا يحب أن يعارضه أحد أو أن يؤخر له أمر يرجوه. كما أن علاقته به طيبة مذ كان بصحبة ولده في القلعة أثناء فترة مرض أبيه وبعد رحيله بأيام. فكر عمرو بأمر يشغله منذ فترة، وهو ما يخشاه حقًا ويتمنى أن يكون إحساسه خاطئ، كان فكر قبل أيام لما قرأه في عيون ولده عادل وما رآه على وجهه من علامات الكمد بأنه يفكر في شقيقة الحاكم وأنها تشغله وتسهد عيونه وتطيل من ليله، فهو لا يعرف فتاة غيرها، وإن كان يعرف حبيبة ابنة رسلان فإنه قد قال كثيرًا بأنها مثل شقيقته. إن صدقت تكهناته فسيضطر ممتعضًا على تنفيذ الأمر الذي وصل إليه بعد تفكير عميق.

اصطحب ولده وامتطيا جواديهما وانطلقا مع الجنود.

***

وقفا قبالته، لا تبدو عليه علائم الغضب وإن بدا عليه شرود غير مفهوم، عن يمينه فراغ وعن يساره يقف راجح بن درغام القطامي مسؤول العلاقات الخارجية. بعد هروب أو مقتل خزاعة -لا أحد يدري- قائد الجيوش، عينه والده مكانه، ومن يومها وهو قائدًا للجيوش وحاكمًا، لكنه يفكر الآن في تولية غيره ليتفرغ للحكم، كما تولية آخر ستمكنهما معًا من التفكير في الأمور العسكرية والخطط الاستراتيجية بروية، فرأي اثنين يختلف عن رأي واحد. كما أنه يريد أن يولي شخصًا في منصب مستشار الحاكم خلفًا لأريب بن برهوم.

لم ينظر لعادل، صب جام اهتمامه على أبيه وقال له:

- وصلتنا أنباء سيئة، إنَّ أيهم بن داغر يغير على القرى التابعة لنا، فلقد بدأت جيوشه تجتاحها واحدة تلو الأخرى وعلينا الدفاع عنهم، كما أنهم في طريقهم إلينا. وإني أرسلت إليكما لتعاونني.

استعرى عمرو بن ميمون شعورًا بالقلق، لم تكن الحرب تخيفه، بل لم يُعرف عنه يومًا بأنه يهاب المعارك ولكنه رغم ذلك غضب لتلك الأنباء، فغير إنه عدوان على أرضه فإنها ستضطره للعمل في القلعة مرة أخرى، وهذا ما لا يريده، فعودته لها بصحبة ولده ستعجل من أحداث تزعجه. لكنه لن يرفض، فهو الثائر منذ القدم، ثائرًا على الظلم والظالمين. سكت لثوان قبل أن يقول:

- إننا معك قلبًا وقالبًا أيها الحاكم.

لم يحس أحدًا من الواقفين بابتسامة قلب عادل، كان إحساسه مناقض لإحساس والده، لأول مرة لا يشعر بالكره للحروب، فتواجده هنا سيمكنه من رؤية أميرة التي لن يراها خارجها على الإطلاق.

قال عادل فجأة غير مبالٍ بتجاهل المغيرة لوجوده:

- جيوش أيهم بن داغر مقدور عليها، أما الأصوات المزعجة التي بثت الرعب في النفوس فماذا عنها؟ وما مصدرها؟ لقد زادت وتنوعت وأصبحت رقعة الغابة كقطعة من جهنم، لا يتجرأ أحدًا من الإقتراب منها.

حدق إليه المغيرة لبرهة ثم انتبه وهز رأسه وتنهد ثم قال بفتور:

- هممم... إن انتظرت لثوانٍ فقط.

وقف المغيرة فجفلوا جميعًا وسار على زرابي القلعة في قاعة عرشه وهم ملتزمون في أماكنهم، كان يعطيهم ظهره ثم استدار ببطء وطرح عليهم هذا السؤال:

- ماذا تعتقدون أن تكون تلك الأصوات؟

قال جملته بنبرة متمكنة وكأنه يعلم إجابة سؤاله سلفًا فوصلهم ذلك أيضًا.

نظر راجح إلى عادل وقد بدت عليهما الحيرة ونظروا جميعهم لعمرو الذي قال:

- هناك رجل يجزم أن تلك الأصوات القديمة لكائن غريب يسكن الغابة وأظنكم توقنون بذلك، أما هذه الأصوات التي نسمعها الآن فأظن بأنها ليست له.

ابتسم المغيرة وقال:

- معك حق يا أبا عادل، وهذا ما أفكر فيه، أعتقد بأن أيهم بن داغر قد بعث جنود من جيشه ليبثوا الرعب في النفوس، فهو يعلم حجم جيشنا وقوته، فعول على الحيل والخداع في حربه علينا.

عاد المغيرة لكرسيه ثم خاطب عمرو:

- سأترك لك مهمة إصلاح ما أتلفته جنود ابن داغر، أريدك أن تلقي خطابًا في فناء القلعة على مسامع الجميع، فستكون البوابات متفتحة وسنسمح لمن أراد الدخول أن يدخل، أريد أن تعود لهم الشجاعة من جديد، شعبًا وجيشًا، لا بد للجميع أن يساندوننا في هذه الحرب، فإنها مختلفة عن أي حرب خضناها.

أومأ عمرو بن ميمون برأسه موافقًا وخيل إليه بأن المغيرة يريده لأمر آخر فقال موجهًا حديثه له:

- هذا ما أرسلت لنا من أجله أيها الحاكم؟
- لا يا أبا عادل، لقد أصدرت أمرًا بتوليتك مستشارًا لي، مكان الهالك أريب بن برهوم.

سكت للحظات وازدرد ريقه ثم نظر لعادل نظرة تحد وقال:

- وأنت يا عادل، أنت أيضًا أمرت بتعيينك قائدًا للجيوش خلفًا لخزاعة.

_ ٣ _

حرب المشاعر

هذا ما كان يتوقعه، ولكن الأمور سارت على نحو لا يمكنه خلاله من مخالفة أوامر الحاكم، لكن فكرة خطرة ومضت في ذهنه، بل إنه قرار احتاج لوقت طويل كي يتوصل إليه، مذ شعر بتبدل أحوال عادل وهو يوقن بأنه وقع في غرام شقيقة الحاكم، فتراءى له بعد تفكير مرهق أن يرحل، الآن لا يشعر بأن الرحيل ضعف ووصمة عار كما كان يفكر يوم أخبره الحكيم بقرار الرحيل، تذكر الحكيم وبعد مرور السنوات التمس له أعذار كثيرة.

فكر بأن الحكيم أراد لشعبه أن يرحل تفاديًا للقتل والدمار، فكان حبه لشعبه دافعًا قويًا، فوجد عمرو لنفسه عذرًا، لا يريد ولا يحب أن يتأذى فرد من أسرته.

- ماذا تقول يا والدي؟!
- علينا الرحيل يا عادل.
- لماذا؟

ازدرد ريقه ونظر لزوجته سليمة التي تفهم كل شيء ومن الواضح من صمتها أنهما قد تحدثا حول هذا الموضوع ووصلا فيه لنقطة واحدة واتفقا عليها ثم نظر لعادل وقال:

- يعز عليَّ ترك هذه الأرض، وأكره الفرار كرهي للظلم ولكنني أخشى عليك إن نحن بقينا هنا.
- تخشى عليَّ من الحرب؟

هز رأسه نفيًا وقال برفق وهو يخبره لأول مرة عما يشعر به:

- أخشى عليك من الحب. أنت تكن حبًا لشقيقة الحاكم أليس كذلك؟

طأطأ عادل رأسه خجلًا ثم قال بتعلثم:

- أاااا... أعتقد ذلك.
- ولذلك لا أريد لك ولنا العذاب، فبعدك عن مكانها سيساعدك على نسيانها.
- ولكني لا أريد نسيانها، ثم هل حبي لها جرم أستحق الجزاء بسببه؟
- أنت تعلم يا بني ما أفكر فيه، لن يدخر أخيها جهدًا بإيذائك.

صمت عادل وتحطم جدار صموده أمام خوف والده عليه، ولكنه لن يرحل ولن يتعجل الأحداث.

ظن والده بأنه وافق على الرحيل إلّا أنه فاجأه، قال بذكاء وقد وجد له حيلة:

- ولكن من حق أرضنا علينا الاستماتة عليها يا أبي، إن هربنا سيلاحقنا العار أينما حللنا ولن يفهم أحد لماذا رحلنا ولن يلتمسوا لنا نصف عذر.

حملق فيه عمرو، هو محق تمامًا.

- يا أبي... سنظل هنا ندافع عن أرضنا، إن كنا في ظروف غيرها لكنت وافقتك برضى، ولا تشغل بالك بما هو في قلبي، فسيظل فيه إلى أن يأذن الله له بالخروج.

كان عمرو قد أوحى للحاكم بأنه موافق تمامًا على عودته للقلعة، إلى حين مناقشة الأمر مع ولده وزوجته، ولكنه سيرضخ لأوامر المغيرة بما إنه لمح حماس متوقد في عيني ولده ووصله مدى حبه للأميرة.

بعدما ذهب عادل لغرفته إنفردت سليمة بزوجها.

- هل ستقبل بالمنصب؟ وهل سيقبل عادل؟
- لا نعرف سبيل آخر نتبعه.
- وتتركه يتعلق أكثر بها!
- ما باليد حيلة، يدبرها الله من فوق سماواته.
- والرحيل؟
- لن نرحل، ليس ثانية يا سليمة، لا مناص من المواجهة.

- مواجهة ماذا؟ الموت؟!
- مواجهة القهر والظلم، إننا لم نرتكب إثمًا يدفعنا للهروب، يجعلنا نفارق أرضنا وأحبتنا ونهيم على وجوهنا لا نعرف وجهتنا، ثم... ثم إنّ ولدك لم يخطئ ولن يستطع مهما حاول أن يمنع قلبه من أن يهوى. سنبقى يا سليمة، سنبقى ليبقى العدل، إنّ هروبنا من مجابهة الجور معناه بأن الظلم والظالمين سيبقون.

تنهدت سليمة بعدما أرسلت زفرة ضعيفة وأومأت برأسها موافقة وهي تقول على مضض:

- حسنًا، لنعد أسلحتنا لحربين قادمتين، حرب مع أيهم بن داغر على الأرض وحربًا مع المغيرة وشقيقته ومشاعرنا التي في قلوبنا.

_ ٤ _

رسلان

لقد خط الشيب فوديه لكنه لا يزال قويًا، ولا يزال قلبه ينبض بالحياة ويشعر بالخطر الكامن في الغابة، نعم لقد هدأت أصوات الكائن الغريب، لكنها تسمع من حين إلى آخر وهذا معناه أنه حي كما أن الظلم حي، كان لا ينام مثل باقي سكان المدينة، ينام جسده ويظل عقله واعيًا، تسترق أذنيه السمع بحرص، تغمض عيونه وتظل بصيرته مستيقظة. لم ينتهى خطر الكائن إلّا بعدما ينتهي خطر الظلم، وما العمل؟ صحيح أنه لا يقرب الصالحون لكنه مع ذلك وبعد التهامه للطغاة الظالمين والمذنبين لا يقضي على الفساد. كم تمنى رسلان لو أنه يلتهم الفساد والظلم ويبقي على الفاسدين، فإنهم وهذا أمر لا يرقى إليه شك سيتوبون، غالبًا سوف يتوبون. وإن لم يتوبوا فلن يجدوا شيئًا أسمه فساد ليسيروا على دربه. ليته كائن بشري أو آلة بإمكانه السيطرة عليها وتوجيهها، لكان حركها كما يرى من الصواب تحريكها وفي أي اتجاه.

منذ أيام يسمع صوتًا مختلفًا، لا يشبه صوت الكائن الذي رآه في الغابة ينمو أمامه، إنه ألف صوته وأحيانًا كان يتلذذ به، يخالجه شعور بالفرح كلما شع الضوء الأخضر وتوهج في سماء الغابة وسمع أصوات الخضم وتهشيم العظام، يقول في نفسه: لقد التهم الكائن شخصًا ظالما وخلصنا من شره. لكنه سرعان ما يعاتب نفسه على مشاعره اليابسة، يعود له صوابه فيتمتم مسمعًا أفكاره لنفسه: لا يا رسلان، لا تترك لشيطانك مجالًا ليدخل منه إليك، إنَّ من يظلم يجد له سبب لذلك من وجهة نظره الضيقة، وإن كانت خاطئة وتقديراته للموقف مناهضة للإنسانية والفطرة، فيبقى بشر ذو نفس ضعيفة، يظن أنه سيخرج من محنته بذنب صغير ثم يتوب، إلّا أنه يضع نفسه في مأذق أكبر، وفيهم من يعتاد الأمر فيأخذ الظلم إسلوب يحيا به.

ولا تنسى يا رسلان أن هناك ظالمون لا يحتاجون الظلم في شيء ولكنهم ينتشون سعادة في أذية غيرهم، يحزنون لسعادة الآخرين، كما لو أن للسعادة مقدار معين وإن أخذ منها شخصًا فإنها ستنقص ولن يبق للآخرين شيء إلّا قليل، فيسعون جاهدين لإحزان غيرهم لتبقى لهم السعادة كاملة لا تنقص منها ساعة.

عرف رسلان أن تلك الأصوات الأخيرة ليست صوت الكائن، فلن يهدأ قبل أن يتحدث مع عمرو عما يجيش في صدره وعقله، فغذ الخطى نحو داره، وكانت خيوط الليل قد طوحت أثار ضوء الشمس بعيدًا ولاح القمر في السماء على استحياء، كأنه لا يريد أن ينير درب تلك الشعوب في تلك البقعة من الأرض، كان يظهر بنصفه ويخفي نصفه الثاني، نظر إليه رسلان وقال: لا ذنب لنا يا قمر لتبخل علينا بضوءك، لن ينتهي الظلم مادامت الحياة باقية، مادام البشر موجودين فهو موجود.

مرت سحابة سوداء فغطت نصفه الذي كان ظاهرًا فتجهم وجه رسلان وقال: أغضبت من حديثي؟ هذه هي الحقيقة، لا أحد بإمكانه إزالة الظلم من الوجود إلّا خالقك يا قمر، ولكن هناك حكمة مجهولة عنا نحن صغار العقول، نحن البشر المتهورون والمندفعون، نرى الأمور من ثقب بالكاد نراه، فنطل منه جميعًا باستثناء القليل، نتزاحم لننظر منه ونرى ونفهم فنتكاثر ونتدافع ونتقاتل ولا يفهم منا أحد لماذا نتقاتل ولا نعرف شيئًا عما وراء الجدار الذي فيه الثقب، فتبقى الحقيقة غائبة ويبقى الثقب لنتقاتل عليه. لو أننا نؤمن حقًا لما تسائلنا: لماذا يا الله؟ لو نسلم أمرنا لله لرضينا بما يقسمه لنا من خير وشر، فإن شره الذي نعتقد بأنه شر؛ إنما هو خير، لكننا نتعجل ونريد الفهم فتغيب عنا الحكمة ونحن في طريقنا للفهم، فنتعرقل في الذنوب وننحرف عن المسار القويم، فمنا من يصيبه الجنون ومنا من يصيبه مس من الجان ومنا من ينتحر ويمت كافرًا بالله والفهم والحكمة. ومنا من يحيا قانطًا زاهدًا في الإدراك والأمل.

انكشفت الغيمة السوداء فطل القمر من خلفها في خجل ثم توهج وازداد نورًا كأنه يقل لرسلان بأنه محق، وأراد أن يخبره بأنه في صفه.

خرج وسار بمحاذاة المنازل قاصدًا دار ميمون ولكنه توقف فجأة حينما سمعها.
كانت قوية بما يكفي، واضحة برغم النبرة الأجشة الغريبة التي يُخيل للمرء أنها أصوات أكثر من شخص.

"أنت السبب في هلاكك"

يا لهذه الكلمات المبهمة، ليته يتمكن من فك رموزها ومعرفة ما ترمي إليه. تطلع في سماء الغابة فرآه، ضوء أخضر كثيف يشع ويزيغ الأبصار، لأول مرة ينظر إليه بحزن، كان صديقه ولكنه بات يبغض صداقته، نازعه شعور بإنسانيته تُسلب منه، ربما كان الشيطان له دور في ذلك، لطالما جعله يعتقد بأن من الجيد والمفيد أن يموت الظالمون والمخطئون، إلّا أنه في هذه اللحظة لا يشعر بذلك، يحيق به إحساس بأن البشرية في طريقها للزوال، وأن ذاك الكائن في الغابة هو الظالم، يلتهم الناس دون أن يوعيهم ويجعلهم يتوبون عن أفعالهم، فسيأخذ يلتهم منهم ويلتهم إلى أن يقضي على البشرية. زاد حنقه عليه عندما دوت أصواته قوية فاشمأز منها ومنه ووضع راحتيه على أذنيه ليحجب عنهما تلك الأصوات، لكنها كانت تخترق يديه وأذنيه وتنفذ لعقله وقلبه، شعر لوهلة بدوار يلفه وكاد أن يسقط على الأرض، سقط بالفعل لكن جسده بقي مقوس ولم يمس الأرض، لامس الأرض بكفتيه وضغط بهما على الرمال وانتصب واقفًا يجاهد الإنهاك الشديد الذي سببته له أصوات الكائن والضوء الأخضر.

أكمل طريقه نحو دار ميمون وهو يسأل نفسه: من يا ترى الظالم الذي أكله الكائن ومن المظلوم؟ وهل الظالم كان يستحق إنهاء حياته هكذا؟ وهل المظلوم مظلوم حقًا ولا يستحق مصيره الذي آل إليه أم إنه من ساعد على ظلمه بظلم آخر خفى عنا أو حماقة أو غباء؟ فالغباء يقتل صاحبه أحيانًا، والحماقة قد تدمر ممالك.
سار بخطى حثيثة وقد هدأت أفكاره وقرر انتظار الصباح فإنه سيكشف عن المستور، لا بد أن تظهر جثة في مكان ما، ومن هويتها ستكتشف الناس الحقيقة والأحداث التي أدت لقتله.

كان رسلان متأكد من أن جثة ستظهر، لا بد من وجود قتيل، فذاك الكائن لا يلتهم هكذا إلا عندما يقتل أحدهم أحدًا، فهذا يكون قمة الظلم، أما عن الذنوب الأخرى والظلم الصغير، مع إنه لا فرق بين ظلم وآخر، فيكتفي برسائل إنذار، إلّا أنه في الغالب لا يحتذر أحد ولا يحترز.

لا يزال الوقت مبكرًا وإن كان الظلام دامس كجهمة الليل، يشاهد رسلان الحركة تدب في الطرقات ووجوه مشرقة وشاحبة، شخصًا مبتسمًا وآخر يعلوه الكدر، يبتاعون ويشرون ويمارسون أعمالهم بيسر وطمأنينة، وكأنهم آمنين وواثقين في آمان دائم، أإنهم تناسوا أمر كائن الغابة الذي أظهر شراسة ورعبًا قبل قليل ونبههم بوجوده؟ أم لا يعلمون بخبر الحرب التي على وشك أن تدار رحاها قريبًا؟ فكر رسلان بأن الناس يتناسون كي يحيوا ما تبقى لهم من أعمارهم، فقد قال لنفسه: إنَّ الحياة صراع دائم، مع الآخرين ومع الذات ومع الخير والشر ومع الشيطان، بل مع الطبيعة أحيانًا، وحينما يعي المرء الحقيقة فإنه يعد أسلحته لقتالها، يرفض تلك الحقيقة الساطعة ويريد تحديها.

سأل نفسه في حيرة: هل لو كان عقل المولود الطفل كما هو بعد النضوج وكان مخير آنذاك عند ولادته أيجيء للدنيا أم لا؟ ماذا ستكون إجابته؟ جاوب عن أسئلته بأنه يعتقد بل بدا واثقًا وهو يتحدث بصوت مسموع ويحرك ذراعيه بأنه من المحال أن يرفض الدنيا والحياة، كان سيوافق وبشدة، فالحياة مهما تكن متعبة فيبقى الموت التعب كله، تخيل رسلان ذاته ملقى في القبر، من فوقه ومن تحته ظلام، وأينما نظر وجد الظلام وسكون تام، ثم فكر في أمر آخر وهو أن لا موت ولا حياة، فإنه لم يكن ليولد من الأساس فوجد الأمر غاية في الصعوبة والتعقيد. ثم عاد يخاطب نفسه: إن سأله أحدهم عند ولادته تجيء للدنيا أم لا؟ لمَّ يكن ليختار الحياة؟ لا لا... سأتي، يجب أن أحيا لأن هذا قدرنا، كما أن الصراع الدائم قدرنا والراحة التامة قدرنا، فكل يصنع قدره كما يشاء، والله يعلم سلفًا ماذا سنصنع ولا يفعل بنا سوى ما نفعله نحن

بأنفسنا، فنحن الظالمون لذواتنا ليس الله وحشاه عن ذلك، فهو العدل، ليتنا نقتبس شيئًا من عدله.

شعر بوخزات خفيفة كأنها بوادر صداع فخف من أسئلته إلى أن توقف عن التفكير وكان وقتذاك واقفًا أمام باب دار ميمون.

طرق الباب وانتظر دقائق إلى أن فتح له عادل.

تبادلا التحية ثم اصطحبه لصحن الدار حيث عمرو وسليمة الذان ظهرا كأنهما كانا في حديث يشوبه الحزن والغم لما لمسه من لمعة عيونهما واقتضاب جباههما، فبدت وجوههما أكثر تغضنًا واضطرابًا.

تنهد عمرو عندما رآه وأقبل عليه يستقبله ويحيه بحماس، وشعر رسلان بأن وجوده رحم عمرو من حديث مجهد مع أسرته ولكنه رغم ذلك لم يقدر على الصمت فقال موجهًا حديثه لثلاثتهم وعيناه تتنقلا بينهم:

- لماذا وجوهكم شاحبة هكذا؟ يخيل إليَّ أنكم كنتم تتعاركون.

لم يكن رسلان غريبًا عنهم أو ضيفًا ثقيلًا، فرد عليه عمرو بنبرة حادة:

- أعلمت بشأن الحرب يا أبا حبيبة؟
- نعم، فالأخبار لا تهدأ قبل أن تنتشر. أتخشى أنت أيضًا من نتائجها؟ معك حق، فلقد أنهكت نفسي تفكيرًا في ذلك.
- لا يا رسلان، لقد بعث إلينا المغيرة وعندما ذهبنا إليه طلب منا معاونته كقائدًا للجيوش ومستشار، سيكون عادل قائدًا للجيوش وسيباشر عمله من هناك، من القلعة.
- زفر رسلان وأومأ برأسه في يأس، فقد فهم سبب شحوب وجوههم. وعرف أنهم تحدثوا طويلًا حول هذا الأمر. فكان عمرو قد حكى له عما يعتقد أنه يجيش في صدر ولده من مشاعر وقلقه عليه.

فجأة تناهى لسمعهم صوت ميمون يأن ويكح بطريقة أعلى من المعتاد، منذ أشهر طويلة وهو طريح الفراش لا يفعل شيء سوى النوم ملقى على ظهره يحدق إلى سقف الغرفة وتناول طعام خفيف يصمد به أمام المرض والإعياء وتنقله ما بين بيت الخلاء والسرير. لقد أصبح يناهز الثمانين ونحل جسده وضعف بصره.

دخلوا عليه فأمرهم بالجلوس وقال مخاطبًا عمرو:

- لا ترحل يا بني، إنَّ الإنسان منا عبارة عن لحم ودم وكرامة، ما تميزنا عن باقي الكائنات بخلاف العقل، هي الكرامة، إن سلبت منا فسنصبح حيوانات تفكر، نعمل ونتناول الغذاء وننام، ولا نفعل شيء غير ذلك، تمامًا مثل الحيوانات، لن نشعر بشيء، ففاقد الكرامة كالدمية، لا يشعر ولا ينبض قلبه بروح الحياة، إنما يدق ليحيا الجسد، يموت القلب وتتبلد الأحاسيس، إن تنازل المرء عن مبادئه وتهاون في أمر كرامته، فما الحياة بعد الكرامة إلا عادة قد اعتدناها، إنَّ المسلوبة كرامته إنسان وسالبها منه أيضًا إنسان، ألا يستحي ذاك المسلوبة كرامته من ذاته؟ فليقف أمامه ولا يخشاه وليوقف حياته قبل أن تهان كرامته، فليمت وهو إنسان وليس كائن لا يشعر ولا ينبض قلبه بروح الحياة والبشر.

كانت عينا رسلان تلتمعا بحماس متوقد إثر إستماعه لحديث ميمون ممزوج بإعجاب بحكمته، فكر قليلًا ثم قال في نفسه: ربما تكن شجاعته المتأخرة هذه نوعًا من عتاب الذات، فقد تكون ندمًا على عمره الذي قضاه في الدنيا ضعيفًا خائفًا، بداية من تواجده في أرضنا القديمة ومكوثنا فترة جبناء هناك وانتهاءً بهذه الأرض وما دارت عليها من أحداث، فقد تعرض لقهر وكان ضعيفًا ولم يقدر أن يفعل شيء غير الصمت والرضوخ والإذعان، إنَّ البشر هكذا، يتعلمون حين لا يفيد العلم ويدركون وقد مضى زمن الإدراك وأتى زمن الفعل.

كان عمرو يقف ساكنًا لكن عقله يروح ويجيء، لا يدري أحدًا من المتواجدين بأنه في صراع داخلي، هدير أصوات مدوي وأفكار ودوامات وأعاصير من الذكريات تلفه وتغرقه في أعماق

معتمة، يتذكر حديثه مع الحكيم يوم أخبره بالرحيل، وكيف كان ثائرًا وقويًا وعصبيًا وكيف ثأثأه الحكيم وأقنعه بالرحيل، لقد روضه وجعله لينًا يسمع ثم يحكم، لماذا هؤلاء الناس الذين هم أهلي لا يفهمونني؟ لا حرب ولا موت ولا دمار يخيفني؛ إنما فقد أحد أحبتي هو ما يرعبني، رحمك الله يا حكيم، لقد كنا جميعًا أهلك وأحبائك ففرت بنا من الموت والخراب. لم تكن تبالي بشيء يا حكيم ومع ذلك أنقذتنا، لم تكن لك زوجة ولا ولد وحتى أنت كنت قد شيخت وقاربت من مفارقة الحياة ولكنك ظللت لآخر نفس إنسانًا شريفًا نظيفًا وثائرًا.

- عمرو... يا عمرو.!
- هيم... ما الأمر؟
- ما الأمر! ما أمرك أنت؟

أخرجته يد رسلان التي قبض بها على ذراعه من شروده، فلقد طال صمته واغرورقت عيناه وهو يفكر.

- لن أرحل يا أبي، وأعلنتها سابقًا، وهذا سبب شحوب وجوهنا يا رسلان، إنني في صراع منهك مع مشاعري ومع زوجتي التي ترفض البقاء. ومعها حق فقلبي لا يريده أيضًا ولكنني يجب ألّا أطاوعه، يجب أن يحكم عقلي وأن يتصرف.

افتر ثغر ميمون بابتسامة صادقة وتنهد بقوة كأنه قد أنهى فترة بقاءه وجاءته لحظة المغادرة.

***

لقد بعث له الحاكم يأمره بالحضور، فالأمر لا يحتمل تأخير، جنود أيهم تعبث بالقرى التابعة لهم ويجب زرع الدأبة في قلوب الجنود وإعدادهم ذهنيًا وبدنيًا ليخرج بهم بصحبة قائدهم الجديد عادل ويقفوا جميعًا في وجه الإعصار الزاحف نحوهم. لا بد من مواجهتهم هناك، بعيدًا عن مدينة الحكيم، كي يخلصوا تلك الشعوب التابعة لهم من الدمار ويتفادوا بطش ذاك الجبار المغرور أيهم بن داغر. فأمر المغيرة بإحضار عمرو ليخطب في الجنود وفي العامة، لكنه لم يعلم

بما حدث في دار ميمون، لم يخبره أحد بأن والده قد فارق الحياة، فلم يمض سوى نصف نهار على موته.

انشغل رسلان مع عمرو في تسوية التراب على أبيه واستقبال المعزون وتجاهل حديثه عن الكائن والأصوات التي لا تشبه صوته وأكله لأحدهم في الليلة السابقة، فلقد مات ميمون في وقت متأخر من الليل وعاد رسلان بعدما استأذن من عمرو وعزاه وأخبره بأنه سيحضر في الصباح ليكون بجواره، وفي منتصف اليوم وأوار الشمس يلهب الوجوه الحزينة تمت مراسم الدفن وانتهى الأمر. وعاد رسلان يتذكر ما كان قد زاره لأجله ولكنه عاد لداره حزينًا على حزن صديقه.

***

حينما طرق الجندي المرسل من قبل الحاكم الباب عليهم وفتح عادل وقف مشدوهًا لا يدري ماذا يقول، لقد كان الأمر واضحًا وضوح الشمس، سواد يكسو الأجساد وتلتمع به العيون، صمت برهة ثم قال بتأدب:

- كيف حالك أيها القائد؟ لقد بعثني الحاكم إليكما وأمرني بضرورة إخباركما بالذهاب للقلعة في أسرع وقت.
- سنأتي خلفك.

بعد ذهاب الجندي وبرغم الحزن البادي على محياه والمستقر في قلبه شعر بالسعادة، فلام قلبه على ذلك الشعور المخزي، أيخالجه إحساس بالسعادة ولم يمض يوم على وفاة جده! فكر بأن لكل شعور مكانه في القلب ولا يتعدى أحدهما على الآخر وإن زاد واحدًا فلا يطمس الآخر تحته، للسعادة مكان وللحزن مكان، وحسب الأحداث يخرجا ليظهر أثرهما على قسمات الوجه ويتلون بهما. لكنهما لا يخرجا معًا. حدث نفسه وقال: ولما مات جدي خرج الحزن من قلبي ليصبغ وجهي بالهم والكدر وترك السعادة قابعة في ركنها وحين استمعت أذناي لكلمات الجندي وانتبه عقلي وعلم أن عيناي سوف تريا الأميرة شقيقة الحاكم أرسل إشارة لقلبي

فاضطرب شعوري بالسعادة وأراد أن يخرج وأحس به فؤادي وتنفسته روحي، لكنه لم يستطع الخروج لأن الحزن كان أكبر وأكثر ويسد عليه كل المنافذ.

***

لقد استكانت وبدت هادئة لكن قلبها تغلي حممه، تفور دواخلها كما فارت المياه في المطهاة التي أمامها ولم تنتبه إلّا حينما تشتشت النار فأسرعت تطفئها. كان وجهها كامدًا وقلبها حزينًا على فراق والد زوجها، لكن شيئًا آخر يشغلها، أخذت تفكر في طريقة تثني بها زوجها وولدها عما هما مقدمان عليه، كانا قد خرجا قاصدان القلعة حزينين، وتوقعت سليمة بأن الأيام القادمة لا تحمل بين جنباتها إلّا حزن وبؤس.

جلست تنتظر وما من سبيل أمامها غير أن تنتظر. وما أشقى الانتظار حين يكون المنتظر عزيز، وحينما يكون القلب مشغول وقلق ملتاع، فإنه يؤلف الحكايات، يرص الصور، يجمع الكلمات ويظن ويتخيل كل ما هو سيء، بينما إن انتظر وهدأ فمن الممكن ألّا تصير الأمور كما توقعها وتكون العواقب سليمة، كما يدعو القلق المتلبط في أمره، مثلما كانت تجلس متململة وتقول وهي تضرب ساقيها بكفتيها: اجعل العواقب سليمة يا رب. سليمة كانت تدعو وما في وسعها فعل شيء غير ذلك.

***

كانت تنظر له بشفقة ممزوجة بغضب، مذ مقتل أبيها سلامة وكلما كان فارغ اليدين لا يفعل شيئًا يجلس بجوار النافذة المطلة على الغابة بالساعات، واضعًا ذراعه الأيمن على حافتها ووجنته اليمنى على كفه، تعرف حق المعرفة أن ذاك الكائن يشغل معظم تفكيره، بل كله، لم يستطع أن ينساه يومًا واحدًا كبقية خلق الله. لطالما نصحته أن يتناساه كي يحيا مطمئنًا ويصب اهتمامه عليها وابنتهما حبيبة التي أصبحت عروسًا وما أحلاها من عروس، كما كانت تقل لها كلما رأتها منتصبة أمامها أو متهادية الخطو أو جالسة، فحبيبة نضجت وفار عودها وصارت ناهدًا وتوردت وجنتاها.

- يا أبا حبيبة.

لم تتلقى إجابة. رفعت صوتها كأنها تصرخ:

- رسلان.

إنه يسمعها جيدًا، وفي كل مرة تناديه كان يسمعها ولكنه يتأخر في الرد كي تفهم أنه يريد أن يطيل في تأمله وصمته، وفي كل مرة لا تفهم ولا تقطع نداءاتها له ولا تهدأ قبل أن يجيبها.

تنفس بعمق وازدرد ريقه وقال بهدوء:

- ماذا تريدي يا أم حبيبة؟

- أريد أن أتحدث معك في أمر هام.

- الآن؟

- نعم الآن.

زفر بقوة وترك نافذته واستدار واصطنع ابتسامة وقال لها:

- هيه... تحدثي.

- اصغى جيدًا يا رسلان.

لقد أحس رسلان من نبرة صوتها أن حديثها سيكون مختلفًا عن ذي قبل، ودائمًا ما كان يشعر بذلك من طريقتها الجادة وإصرارها على الحديث، لكنها تلف وتدور حول نفس الموضوع، زواج حبيبة، كان يقول: إنَّ كل النساء هكذا، لا يشغلهن أمر غير زواج أبنائهن، أما كيف وممن؟ فلا يهم، فالمهم هو أن يتزوجوا وحسب! وكان ذلك ما تحدثت عنه بالفعل.

- حسنًا يا وجدان، سوف أبحث لها عن زوجًا.

- أتستهزأ بي؟ تأخذني على قدر حجم عقلي!

لولا معرفته بأنها طيبة القلب ويحبها لكان هجرها منذ زمن، لكنه يعود يحدث نفسه: وفرضًا لا أحبها وطلقتها وتزوجتُ غيرها فلن يتغير من الأمر شيء، فأغلبهن مثلها ثرثارات ويجلبن الصداع، لكنه صداع يستحب، إنَّ حديثها برغم حدته وتكراره يستهويني، فإني أحمد الله على

أن رزقني زوجة مثلها تحدثني حالما تراني صامت وتشعر بأني حزين، فالصمت إن طال يعتاده اللسان والحزن إن لم ننشغل عنه لطبق على أنفاسنا وقتلنا.

- لا تفتحي عيون ابنتكِ يا وجدان. دعيها ولا تشغلي بالها بهذا الموضوع. وسيأتيها نصيبها حين يأذن الله، فلا تتعجلي واطمئني.

كانت حبيبة تسترق السمع وتبتسم ثم يتكدر وجهها. فمن ذاك الذي سيأتيها ليطلبها للزواج وهي ابنة رجل فقير يعمل سيافًا، نعم يكفي عائلته ولكنه يبقى سيافًا وليس قائدًا في الجيش أو ثري صاحب أعمال وأموال، ثم إنها كانت تخشى من نشوب الحرب فيتأخر زواجها لأجل غير مسمى، ولربما يأخذوها سبية وتباع في سوق الرقيق.

أومأت برأسها وقد بدا عليها الاقتناع وهدأت، وحتى ذلك الوقت الذي تتحدث فيه ثانية عن زواج ابنتها يكون دبرها الله من عنده. أما الآن فلا يريد رسلان أن يرهق تفكيره ويشتته، يكفيه أمر كائن الغابة الغريب.

_ ٥ _

عودة إلى القلعة

ظلا طوال الطريق صامتين، مذ انطلقت خيولهما وهما كاسفان البال، كان عمرو حزينًا على والده ومتوجسًا مما هو مقدم عليه، ينظر لولده خلسة يراه هادئًا ولكنه لم يخف عليه بأنه يبتسم من قلبه، صحيح أن وجهه الغض البض كان آخذ في الاحمرار وقد أرجع والده ذلك إلى خجله من رؤية أميرة، فقد كان يتمتم لنفسه: إنَّ المحب يستحي من محبوبه أكثر من أي شخص في الوجود، فيحاول على قدر المستطاع أن يبدو جميلًا في نظره ومتكاملًا مع أنه لا أحد متكامل. إلّا أنه كان يبتسم، كأنه يتخيل وقفتها قبالته وهو يتأملها، انشرح لما خمنه وأحس به تجاه عادل ولكز حصانه ليسرع أكثر وهو يحدث نفسه ويقول: لمَّ الخوف والترقب؟ يجب أن أجابه مخاوفي وبشدة، فأسوء ما قد يحدث لي هو الموت، ويا مرحبًا به، فهو المحطة الأخيرة التي ينشدها المرء، ومع أنها محطة غير مرغوب فيها، إلّا أنها نقطة النهاية التي سيصل إليها كل كائن حي، ومحتمل أن تكون البداية وليست النهاية، بل من المؤكد أنها البداية، بداية نهاية الحياة على الأرض وبداية حياة جديدة تحتها أو فوق السماوات، حياة يصب فيها المرء اهتمامه كله على نفسه، لا ينشغل بولد أو أهل، يكون شغله الشاغل هو ولا أحد غيره.

لكني لا أعتقد بأني سأنسى الأحياء، وكيف لي أن أنساهم؟ سأدعو لهم في مرقدي الخير، فليس ثمة شيء في يدي غير الدعاء، وليدعوا لي هم، فليس ثمة ما أحتاجه منهم وأنا في مرقدي الأخير غير الدعاء.

***

رفع رأسه فوجدها عالية تكاد تناطح السحاب، لونها الأصفر يلتمع مثل الذهب ولها بريق يكاد يكون مثله، لكن الذهب يخطف الأبصار والقلوب ويتمناه الجميع، أما هي بأحجارها

وألوانها وما يعتليها من بيارق وجنود وسلاح فترهب العيون والعقول وتجعل القلوب تخفق هلعًا، إنه يعود إليها كفرد فيها بعد فترة طويلة، بعدما استقال من منصبه فيها وفضَّل الحياة كبقية العامة، وها هو يعود ولا يصطحبه حراس، بل يجيء بإرادته وليس مجبرًا على ذلك، مع إنه كان يعلم أنه مجبرًا ورغم أنفه سيمارس عمل فيها، فأحيانًا الجبرية لا تكون بسلاح بقدر ما تكون بشخص عزيز على المرء، يتخذه الطرف الآخر نقطة ضعف ويمارس على المرء ضغوطاته وابتزازاته، ودائمًا ما يفلح في ذلك، في نيل ما يريده بالطريقة التي يريدها.

حينما أعاد تقليب أوراقه في رأسه ونظر وأمعن النظر وأطال، تبسم سخرية من نفسه ومن إرهاق كيانه في التفكير، وجد أن المغيرة فعليًا لا يمسك بيديه على شيء يمكنه من خلاله الضغط عليه ولا يدينه بتهمة ظاهرة، حتى إن فكرة القبض عليه بتهمة التخلف عن الدفاع عن الأرض لم تكن موجودة آنذاك، ليس لأنه لم يفكر فيها، إنما لأنه ليس ثمة قانون ينص على ذلك، وبرغم علمه بهذا الشيء وبعده عن آيادي البطش ظل يواصل طريقه إلى القلعة، فقلب ولده وما يشتهيه أعز عنده من قلبه هو وما يعتمل فيه.

كان يتمتم خلفه وهو يرى سترته تتطاير وراء ظهره: كل شيء يهون في سبيل إسعادك يا بني. في هذه اللحظة رأى أن عادل لم يرتكب إثمًا أو يقع في الخطأ، وما المعضلة في أن يحب؟ لماذا نقف كالحاجز أمام رغباته؟ حتى وإن كانت هي أميرة وشقيقة ملك فتبقى إنسانة ولها قلب ومشاعر وبإمكان المرء أن يقع في حبها، وكيف لا وهي ساحرة بطلتها وجسدها الممشوق طولًا وامتلاء خفيف؟ سأساعدك يا عادل في زواجك منها، فبدل من أن نفر هاربين سنعمل معًا على مواجهة العدوان والظلم كي تعود المدينة كبداياتها وتتزوج ممن تريد، فإن كنت غير جدير بها فمن ذا الذي سيكون جدير؟ فأنت قائد الجيوش وفارسًا عظيمًا ولا تخلو من وسامة وشهامة ونبل.

***

دلفا للفناء وترجلا عن خيولهما وتركاهما لجنديين صغيرين في العمر وواصلا طريقهما لبوابة القلعة الرئيسية، فتح لهما الحارس بعد أن انحنى لهما وسارا بداخلها، ينتهيا من رواق ويدلفا إلى غيره ويحييا الجنود وتنحني لهما إلى أن وصلا للركن القابع فيه الحاكم، فوجداه على كرسيه، عن يساره كالعادة راجح بن درغام القطامي وصفان من الجنود على جانبي القلعة.

من إن رآهما حتى قام من مقامه وحياهما، لا يدري لماذا فعل ذلك؟ صحيح أن لهما هيبة ولكنه أكثر منهم هيبة وجلالة، محتمل مرد ذلك لما تمر به البلاد من مخاطر، وهما ذا خبرة وقوة ويحتاجهما بضراوة إلى جواره، لام نفسه وأحس بالخجل وعاد يجلس ويرسم ملامح الحاكم المتمرس على محياه، كان لا يشعر تجاههما بذرة كره وفي المقابل لا يحبهما، كان إحساسه غريب متناقض وسريع التقلب. كان خاطرًا يزوره للحظات وهو يتحدث معهما يخبره بأنه وبعد الانتهاء من الحرب يجب عليه القبض عليهما، أو التخلي عنهما وخدماتهما.

لن ينسى ولم يتمكن من نسيان أن أميرة تحبه ورجح كفة أن يكون عادل لا يحبها وإنما شغلها به وجعلها تفكر فيه كي يتزوج منها ويطيح به عن الحكم بعد أن يعلم كل صغيرة وكبيرة في القلعة، ولربما يقتله أيضًا. لم يكن المغيرة بفقير الذكاء والحكمة، غير أنها خواطر عابرة تأتيه بسرعة وتذهب إلى غير رجعة بسرعة، وتأتيه غيرها وغيرها.

***

انتهى لقاءهما الصاخب الملئ بالعبارات الوطنية التي تبث الجهاد في القلوب والعقول، وبالمبايعات بالولاء والانتماء للأرض والتضحية مهما كلف الأمر. ثم تحدث المغيرة مع ابن درغام القطام الذي قام بأمر جنديًا أن يخرج ويخبر المنادي أن ينادي في الناس بالتجمهر في فناء القلعة لمناقشة أمرًا شديد الأهمية، ولسوف تُفتح البوابات الثلاث لشعب مدينة الحكيم وللشعوب التابعة لهم والتي لم يصلها بطش أيهم بن داغر بعد.

ما هي إلا بضع دقائق وإكتظت القلعة بالناس، يقف الحاكم في الأعلى بجوار والدته وشقيقته وراجح بن درغام القطامي، ويتوسط عمرو بن ميمون الناس، كان قد طلب من الجنود الوقوف

في صفوف منتظمة إلى جانبي الفناء وفي تلك اللحظة تجمعت الناس من العامة والتجار والصناع والزراع وتحلقوا حول عمرو الذي قال:

- أول ما جئنا إلى هنا لم نكن هكذا، لم نكن نخشى شيئًا سوى جنود ملك بلادنا القديمة التي قد تصل لنا في أي وقت، فكنا نموت خوفًا لظننا أن ما سعينا له سينتهي قبل أن يبدأ، لم نكن فارين كما كنت أعتقد آنذاك، لقد تحدثت مع الحكيم بشأن ثورة نشعل شرارتها ونتخلص بها من الملك وحاشيته، ولكن ذلك كان من المستحيل حدوثه، فقد كانت شعوبنا مستكينة مستسلمة للتيار الجارف المدمر، وإنَّ أفضل ما يمكن للمرء فعله ليأخذ في تدمير ذاته بذاته هو الاستسلام، الشعور بالخوف ليس خطأ؛ إنما الخطأ في الخنوع والإذعان لمصدر الخوف، يومها أخبرني الحكيم بأمر كان شاق عليَّ فهمه وفعله وهو الفرار من الأرض، ولكنه عاد يفسر ويوضح، كان في نيته الفرار لفترة غير محددة، نجتمع فيها بالخارج على قلب واحد وكلمة واحدة ثم نعود لنقهر كل ظالم يحول بيننا وبين أماننا. أما الآن فلقد بتنا نخشى أشياء كثيرة، مات الملك وانحل جيشه وظهر لنا ملك جديد، هو الكائن الذي يسكن الغابة، ظهرت لنا جنود جيش لا يُقهر وهي الكذب والخداع والغش في المعاملة والخيانة والقتل الذي انتشر والطمع وما مثل تلك الصفات والأفعال الدنيئة، وإن كُنت لا أرى ذاك الكائن إلّا انعكاس لذواتنا، جميعنا بلا استثناء يسكننا ذاك الكائن، وما من شيء انبته وجعله مصدر خوف لنا إلّا الظلم، فنحن من أوجدناه ونحن من سنقضي عليه إن أردنا ذلك. إنَّ الظلم والمداهنة والأنانية تغلغلوا في قلوبنا وتعمقوا كمثل ذاك الكائن الذي توغل في الغابة، حتى الفرد منا لا يمكنه الوصول لهم، وإن كان يسخر أحدكم مني الآن ويقول في نفسه ويظن بأنه خالي من تلك الصفات والأفكار الخبيثة فهو مخطئ يخادع نفسه، ما من أحد في هذا الزمان إلّا وبه طابع حب الذات، حتى عندما يحب غيره فهو يحبه ليكتمل لديه شعور ما، فالمحب يحب ليرضي ويشبع رغباته، إنَّ الغريزة هي التي تحركنا،

الشهوات هي مَن تدفع بنا للأمام وليس الأمل، حتى إننا لم نخرج فارين من أرضنا إلّا بدافع من شهواتنا، كانت رغباتنا هي من تجرجرنا وراءها، كانت رغبة البقاء والديمومة تسيطر علينا كما أن رغبة أو حلم الخلود والأبدية ينهش عقولنا وقلوبنا. مثلما لا نريد الموت، يجب أن نرفض البقاء مذلون ومهانون، فالبقاء مع الذل موت للروح وإن كان الجسد حي.

لدينا خطر حقيقي في الغابة يجب القضاء عليه، أما عن خطر أيهم ابن داغر وجيوشه فإنكم أيها الجنود –رفع ساعده الأيمن وأشار بسبابته إلى الجنود المنتظمين في صفوف فاشرأبت له أعناقهم– وإني متأكدًا من ذلك، ستبيدوهم وتسحقوهم كالحشرات المزعجة، فإنكم أقوى منهم وأمهر، وإن كانوا يفوقوكم عددًا، فإنكم تفوقوهم دأبة وشجاعة، ودافعكم أقوى وأعظم من دافعهم، إنَّ المحتل بقدر شراسته يفتقد لشعور الأمان، يفتقد للشجاعة وإن كان يصطنعها ليرهب من يقابلهم، وأنتم يا شعبي العزيز –كان يدور برأسه حول المتحلقين– منكم مَن هاجر معي قديمًا ومنكم من ولد وشب هنا، على هذه الأرض، فعلى هذه الأرض نشأ الصغير وعاش الكبير، وإن تطلب الأمر للموت عليها ومن أجلها فلن تتأخروا، أليس كذلك؟

قالها بصوت جهوري كالصراخ، فصاحت الجموع وعم صخب شديد، ارتفعت الأصوات وعلت بهتافات وطنية وتشجيعية فكان المشهد عبارة عن جموع متجمعة كالنمل وأياد مرفوعة تلوح في الهواء وضجيج لا يلتقط منه المرء إلّا بعض كلمات كالموت للأعداء وسنستميت من أجل الأرض ويحيا الحاكم وبوركت يا عمرو بن ميمون.

رفع ساعديه وأخذ يحركهما علامة الهدوء فسكت الجميع وحينها استطرد يقول:

- إنَّ كل طريق يؤدي إلى نجاح حقيقي شاق وتملؤه العراقيل والحواجز، فلربما يظن ظان أن النجاح يسقط من السماء، وأن الدنيا حظوظ، أو أرزاق مقسمة، وقول أرزاق مقسمة قد يجعل المرء يميل للتقاعس فيتواكل وينام ويهدأ، فيفشل ويأس ولربما والعياذ

بالله يكفر! لقوله لماذا غيري لديه وأنا لا؟ لمَّ فلان سعيد وأنا حزين؟ ولم يسأل نفسه ماذا عمل أو يعمل غيري الذي لديه؟ أو كيف توصل فلان لأن يكون سعيدًا وأنا حزين؟ لا يعلم أن غيره الناجح نجاحًا حقيقي ليس فيه ذرة غش قد تكبد المتاعب وسلك دروبًا غاية في الصعوبة والإنهاك، وأن فلان السعيد وإن كان فقيرًا مثله وهذا ما يثير حيرته وغيرته، راضٍ وقانع ومجتهد أيضًا. وليس كل مجتهد ثري وليس كل ثري مجتهد، فهناك حكمة في الكون لا يعلمها إلّا الله، ولربما يصل شخص ما إلى فهم القليل من أسرارها فيعمل بجد وتفان وإن لم يلاقي ما ييسر له حياته فعقله ييسرها ويجعله سعيد، لأنه قد توصل لشيء من حكمة ربه.

إنَّ الهِداية والأقدار لشيئان خفيان عنا ويثيران الكثير من الأسئلة، وفهمهما على النحو الصحيح يطمئن القلب ويزيده إيمان. وأخيرًا أيها الناس، لن نجبر أحدًا على القتال، فمَن يخشى على كرامته من أن تتبعثر على الأرض وتُداس بالأقدام، ومن يكره أن تُهان عائلته ويموت من فيها أو يُسجنوا ويُباعوا عبيدًا فلن يتخاذل ولن يتقهقر ويفر من القتال، إنَّ جيوش ابن داغر كثيرة العدد وجنودنا كما تعلمون أقل منهم، فلذلك نفتح الباب للمتطوعين الجدد من مدينتنا ومن حلفائنا، فمن أراد الانضمام ونيل شرف النصر أو الموت في سبيل الأرض والعرض فلينتظر هنا، أما البقية من الأطفال والنساء وكبار السن فليمكثوا في دورهم وليطمئنوا.

كانت الشمس بأوارها الحارق تلهب الوجوه الشاحبة، وكان العرق يتفصد منهم، امتلأت صدورهم شجاعة واتقدت عيونهم بألق وحماس، تقافز الصغار مستثارين وكأنها لعبة وليست حربًا مدمرة.

كان ينظر لهذا المشهد من الأعلى، لم يخب ظنه واعتقاده بأن أفضل من يخطب ويبث الشجاعة في قلوب الناس هو عمرو بن ميمون، لكنه أحس بالخطر من كلماته في بعض الجمل التي قالها، لقد اشتم رائحة تكاد تكون رائحة دعوة لثورة عليه أو ما شابه ذلك، لكنه ليس وقته، فكر

أن ينتهي من أمر أيهم بن داغر ثم يتفرغ لصراعاته الداخلية، صراعات من أجل البقاء على الكرسي، وفي خلال تلك الصراعات قد يرتكب المرء أفعال شائنة وهو يعتقد بأن له الحق في ذلك وأنهم من اضطروه لفعل ذلك، دائمًا ما كانت الشعوب مصدر خطر على الحكام وكانت الحكام مصدر إزعاج للشعوب.

الفصل السادس

ـ ١ ـ

التجهيز للحرب

انقضت ساعات على خطبة عمرو بن ميمون، دارت بين الناس محادثات وهمسات، الأهل يتضرعون أو يرجون أبناءهم الذين يقبضون على آياديهم كأنهم يمسكون بهم كي لا يسقطوا من على سطح بناية عالية، شعرت الناس تجاه أولادهم بعاطفة قوية، ربما لم يكونوا ينتبهوا لها من قبل، لم ينقبوا عنها وجاءتهم من تنقب عنها، من تخط جرحًا في قلوبهم وقبل أن يروم تنبشه بأظافر الفراق، وربما ينكتب لهم اللقاء القريب أو البعيد، مع الحياة وهم مكسورين، فإن الحرب إن لم تأخذ منهم شيئًا، ستعطيهم أشياء كثيرة، وكلها أشياء يكرهها المرء.

غادرت جموع كثيرة ممن ليس لهم أحد في الجيش أو سينضم للجيش، ممن لا يلوون على شيء إن هم خرجوا من القلعة، سيعودون لمزاولة نشاطهم بقلب سليم، وإن كان القلق والترقب سيقللا من راحتهم ولكن قلوبهم لن تكن ملتاعة هلعة على قريب لهم في طاحونة الحرب.

تبقت أعداد لا بأس بها من الشبان الراغبين في الانضمام للجيش، من مدينة الحكيم ومن القرى التابعة لها، وبرغم احتياجهم الشديد لكل فرد كانوا يتخيرون الجنود بعناية، ينتقون القوي، فليس كل شجاعًا يصلح للحروب.

كان ينظر للحشود المتفرقة في فناء القلعة الفسيح، طرقت على أبواب عقله ذكريات، رأى قطعة أرض واسعة تحيط بها الرمال من كل جانب وأعداد غفيرة تصل إليها بكد وفي قلوبهم تسكن آمال وتطلعات، لم يكن الموقف يختلف كثيرًا، ففي ذلك اليوم هاجروا أرضهم وسكنوا أرضًا غيرها يجهلونها لينجوا بحياتهم، واليوم في هذا المشهد المؤثر، تجتمع الناس ليضعوا حدًا

للمخاطر، وإن اختلفت الأسباب فإن المشاعر متشابهة ومتقاربة، إحساس الفقد لا يزال يحيق بهم ويبدو أنه لن يتركهم يهنئون ما داموا يحيون.

في أوج شروده وقع بصره على رجل يعرفه بصحبة زوجته التي يعرفها وفتاة ناضجة لا يعرفها وشاب يومئ لهم برأسه، كأنه يودعهم أو يقسم لهم على شيء، أو يقول شيئًا من هذا القبيل. فكر قليلًا قبل أن يتجه نحوهم، وما دفعه لذلك غير حنينه، فإنه في ذلك الوقت لم يعنيه كثيرًا أمر الأشخاص بقدر ما عنيَّ بأمر الزمن، في طرفة عين عاد سنينًا للوراء، تذكر يوم كان يفكر –وما أكثر أيامه التي يفكر فيها– ورأى عربة تسير في اتجاه الغابة.

لم يكن له سلطة على قدميه الذان أخذاه لهما. ويبدو أن الرجل تعرف عليه مذ رآه:

- أنت الرجل الذي قابلنا قبل ما يقارب العشرون عامًا، يومها لو تذكر حملت ابنتي وضممتها إلى صدرك وقبلتها. وأظنك يومها لم تكن مستشارًا للحاكم وأهم فردًا بين حاشيته كما أنت الآن. لقد عرفتك مذ كنت تخطب قبل قليل.

صافحه عمرو بحرارة وهو يهز رأسه مؤكدًا على كلامه وهو يتنقل ببصره بينه وبين الفتاة، ثم أشار إليها بحذر وكأنه يحترس من شعور ما يعلم أنه سيعتريه وهو يقول:

- هي؟

تبسم الرجل وقال:

- نعم هي.
- الطفلة التي حملتها؟
- هي نفسها، تغيرت؟

تفرسها عمرو ثم قال:

- نعم تغيرت، لكن شعوري نحوها لم يتغير، بيد أن الزمن بمقدوره أن يغير الصور والطويات والمشاعر، لكن تبقى بعض المشاعر لا يقربها أو يعرف لها سبيل، ويا ليته يصل إليها، سيخلصنا حينها من عذابات لا نعلم لها أسباب.

اكتفى الرجل بالابتسام، في الحقيقة أنه كان محتار في الرد فآثر الصمت ومشاهدة وجه الرجل الذي ينظر لابنته وتتبدل هيئته كل دقيقة، أشفق عليه مما تعصف به من ذكريات وأحداث يجهلها، قد تكون حدثت له أو عايشها مع أحدهم ويستحضرها الآن.

مد عمرو يده للفتاة مصافحًا ومبتسمًا وهو يقول بنبرة هادئة يشوبها الحزن:

- عمك عمرو بن ميمون.

صافحته الفتاة وهي تبتسم وتقول بابتسامة صافية:

- ميرام.. ميرام بنت عبدالله بن أنوف.

أحاط كفها براحتيه برفق وأطال، شعر كأنه تواصل مع الماضي وقتئذ، أفلتها بجفلة عندما حدثته والدتها:

- عندما كنت شاهدة على ما فعلته يوم قابلتنا خمنت أنك متزوجًا ولم ترزق بأطفال، هل تزوجت؟

لم تكن تهتم بأمر زواجه، ولكنها وجدت نفسها تتحدث هكذا تحت تأثير شعور بالخوف، لم تحدد مماذا بالضبط، إلّا أنها أحست بأن مجرد أن يتعرف عليهم أحدًا بعد مرور كل تلك السنوات سيفتح أبوابًا أرادت غلقها مدى الحياة وجاء اليوم من يدير مفتاحًا في أقفالها.

لم يلحظ عمرو شيئًا غريبًا في كلماتها فأجاب باقتضاب:

- لا... حينها لم أكن متزوجًا كما هي حالي الآن. سكت برهة ثم استطرد:

- من ذاك الشاب الذي كان برفقتكم؟

قبل أن يتلقى إجابة، تلفت حواليه كأنه يبحث عن شيء ثم قال:

- وأين ذهب؟

أجابه عبدالله وهو يشير إلى إبنه بنبرة حزينة وقد تغيرت هيئته فجأة:

- إنه ابني جاسر، وقد ذهب ليأخذ موافقة قائد الجيوش على انضمامه للجيش.

تطلع عمرو للشاب ثم للرجل وحجم عن سؤال كان يلح عليه، فمن الغباء سؤاله هل إن كانت هذه رغبة جاسر أم أنه من دفعه للالتحاق بصفوف المحاربين؟ فنظراته المستكينة ونبرته الحزينة بينتا كل شيء. صمت برهة ثم قال بهدوء:

- سيقبله ابني.

جفل عبدالله وحول نظره عن جاسر لعمرو بسرعة ثم قال:

- ابنك؟
- نعم.
- قائد الجيوش؟
- نعم قائد الجيوش. إنه عادل ابني.

لم تكن ملامح وجه جاسر واضحة من بعيد لكن كانت المسافة كافية ليلحظ عمرو جسده القوي ذو القد الممشوق وطوله المديد، عاد يقول لعبدالله:

- بارك الله في ولدك يا عبدالله، يبدو أنه قويًا.

رد عبدالله وهو يومئ برأسه موافقًا:

- وسترى شجاعته في ميدان المعركة، إنه تربى في الصحراء، وأنت تعرف أن حياة الصحراء مفعمة بالخشونة والشظف، وعيشة كتلك تيبس الجلد وتشده وتقوي القلب. إنَّ ابني كان لا يفوت يومًا دون أن يتدرب فيه مع أصدقاءه وجيرانه على استخدام السيف ورمي السهام والرماح.

صمت قليلًا وهو منكس الرأس ثم أردف:

- وإن قبله ولدك فسترى ما قلته لك.

لم يرد عمرو أن يعذب الرجل أكثر، إذ أنه تحسس حزنه وعرف حجمه. ولكنه ومذ أخبره عبدالله أن ذاك الشاب ابنه وهو اطمأن بعض الشيء، منذ رحيل هذام وهو يبحث عن الشاب الذي حدثه عنه ويبدو أنه هو. فإنَّ هذامًا حكى عن رجل وزوجته وطفلة صغيرة، ولقد مرت

سنينًا طويلة، فلا بد أن تكون ميرام هي تلك الطفلة وإنَّ هذه الأسرة هي من قصدها هذامًا، لكن عمرو احتار في شيء، يوم حمل الطفلة لم يكن جاسرًا موجودًا، فكر أنه قد يكون ولد بعد أيام أو ربما شهور من مقابلته لهم ورجح هذه الفكرة، هذا إن كان ابنهم وليس -كما يتصور- ابن هذام. وقبل أن يستأذنهم بالانصراف سأل عبدالله عن عنوانه وبعدما أخبره عبدالله قرر إن هو عاد سليمًا أن يبادر بزيارتهم في قريتهم.

وقف ليس ببعيد عنهم ينظر للشاب بتمعن، إنَّ فيه كثيرًا من هذام، نفس الطول وإن كان جاسر أقصر بقليل وأكثر امتلاء منه، اتساع العينان واتخاذهما نفس اللون العسلي، شعر بعاطفة تجاهه ولكنها ليست كافية، فالقلوب ترفق بأصحابها أحيانًا وترأف بحالهم فتهيئ لهم جوًا يستطيب لهم، توهمهم بمشاعر يحبونها كي تجعلهم يستريحوا.

أراد أن يحلل الأمر بطريقة أخرى فحدث نفسه وقد خطر بباله شيئًا:

- انظر يا عمرو لتشابه أسمائهما، فكلاهما له نفس المعنى تقريبًا، يدلان على الشجاعة والبسالة... ما معنى ذلك إذًا؟ لا أظن أنها مصادفة، يبدو لي أنهما يوم عثرا عليه عرفا أنه باسل ولذلك أسماه باسم شبيه باسمه، ولكن السؤال الأهم هو كيف لهما أن يأخذاه مع علمهما بأنه باسل؟ فلنفرض أنهما وجداه هنا أو هناك وتأكدا من أنه هو -حيث كان الجميع قد عرف مواصفاته وماذا يرتدي- لماذا لم يرجعاه للقلعة؟.

فكر عمرو بأنهما قد خشيا العودة به للحاكم لخوفهما من أن يعتقد أنهما من قاما باختطافه. ودائمًا ما تأخذ الأمور طرقًا أخرى بفضل توقعات وتخمينات يضعها المرء نصب عينيه ويتخيلها تحدث مستقبلًا، فتعصف به ظنونه تلك وتجعله يتصرف بذكاء محدود وربما حماقة وتأثر على قراراته، فيصرف عمره في أفكار سلبية تجعله يقضيه هاربًا من أشخاص أو أشياء لا تخيف إلا في خياله، فإنه يراها مرعبة بحسب نظرته الضيقة وتعجله.

وهذا هو التفسير الوحيد، فرجح وآمن بهذه الفكرة مع مراعاته بالتريس في الحكم، فقد لا يكون ابن الحاكم هذام من الأساس.

عاد عمرو لتركيزه، أوقف تسلل الصور والأحداث لرأسه وتوقف عن التفكير وصب جام اهتمامه على الحرب، انتظر حتى أكمل عادل اختيار الجنود الجدد وزودهم بالملابس والعتاد اللازمة وأوقفهم في صفوف منتظمة وأمر هو الأهالي بمغادرة القلعة إلى حيث ديارهم بعدما ودعوا أبناءهم، فكانت فكرته بأن يخرج المودِعون قبل المودَعين في محلها تمامًا اجتنابًا للبكاء. لا بكاء في هذا اليوم، قالها عمرو. فيجب ألّا يظهر أحد أي ضعف وهوادة، وإن كانت القلوب تتمزق من شظايا البكاء الحادة، البكاء المخنوق والمسجون بداخلها، فليس من الضروري أن تقره الوجوه، فلتبقى الوجوه كالحة وصلدة لترهب الأعداء، ثم إذا عادوا إلى ذويهم فليس عليهم شيئًا إن بكوا.

_ ٢ _

الحرب

دقت طبول الحرب ولم يعد الأمر مزحة، اصطفت الجنود، خرج الأهالي منذ برهة، حُملت البيارق والمزامير والأبواق والطبول وتبقت إشارة المغيرة الذي كان يتقدم الصفوف، عن يمينه مستشاره عمرو وعن يساره قائد جيوشه عادل، ما إن لوح بيده في الهواء وهو موليهم ظهره وبعدها جاءت التفاتة عادل لهم وإشارته بالتحرك حتى شد الجنود أجسادهم وبدأوا في السير خلفهم. تركت ثريا وأميرة الشرفة ودلفتا للداخل حالما خرجوا للحرب، لم يترك المغيرة القلعة بلا حراسة، فقد أمر راجح بن درغام القطامي بالبقاء فيها بصحبة بعض الجنود، تحسبًا لأي أحداث مغايرة.

لم تكن ثريا مثل غيرها من النساء، اللائي يخشن نتائج الحرب، يقولن إن هُزمت جيوشنا فسنكون عرضة للمهانة وما لا ترضاه الشريفة على حالها. وإن كانت تفكر في ذلك فإن قلبها لم ينفطر كما انفطر من مجرد فكرة مميتة ومضت في ذهنها، فلقد خرج ولدها المتبقي لها ولم تكن عودته مضمونة، فلن تحتمل فراقه كما تجشمت من قبل فراق باسل، وإن كان طفلًا حينها ولم تتعلق به مثل المغيرة، فيبقى ولدها.

***

انتهت الحرب وخلفت وراءها آثارًا لن تنمحي ولن تغادر المرء إلّا بنهايته، تركت ندوب لن تُشفى مثلما تُشفى ندوب الجسد، جروح عميقة في القلوب تجعل من خاض غمارها وإن عاد سليمًا يبدو مثل آلة، يمارس حياته بلا روح، جسد يتحرك بشكل آلي وكأنه مبرمج، تأتيه الكوابيس المفزعة في صحوه فضلًا عن نومه، من الجنود من أثر في الحرب ومنهم من أثرت الحرب فيه، فكيف لإنسان أن يقتل إنسان مثله ولا يشعر بضجر؟ ولا يوجعه قلبه؟ حتى وإن

كان يشعر من قرارته بأن له الحق في قتله فلا بد من أن يتأثر بما فعله. سُحقت جيوش ابن داغر وهُزمت شر هزيمة، قتلوا منهم أعداد كثيرة وفر الباقون ولحقوا بهم وأجهزوا عليهم، أظهر الجميع دأبة عالية، راح عمرو يصول ويجول كأنه شاب في العشرين، ربما لتخيله أنه يحارب جنود ملك بلاده القديمة، تلك الحرب التي كان يريدها ورفضها الحكيم، أو لكونه ظن أن لديه حق يدافع عنه، والحق يقوي صاحبه، كان يقاتل بشراسة، فيهجم هو ولا ينتظرهم أن يأتوه، حتى أن جاسر كان يكر ويفر كالمسوس، كأنه كان يحلم منذ صغره بحرب وحلمه الآن يتحقق، لم يكذب والده، يبدو أنه تدرب كثيرًا لتكون ضرباته بمثل تلك الدقة والقوة التي أذهلت الجميع.

عادت الجيوش للمدينة تحت أنظار الأهالي الذين كانوا يتقافزون سعادة بنشوة الظفر، التي هي وفي الحقيقة نشوة سعادة غامرة بعودة أبناءهم سالمين، والقلة القليلة التي فقدت أبناءها تقف جامدة، تبتسم لرؤية ثلة من الجنود قادمة، يتوقون لكي يروا بينهم ذويهم، ثم بعدما تمر الجنود تعبس الوجوه وتشحب ولكنها لا تيأس، تنتظر جنودًا غيرهم بنفس ذات الشغف إلى أن استسلموا في النهاية وعند عبور آخر جندي، لكن اليأس لم يدلف لقلوبهم، فكان خاطرًا يزورهم يجعلهم يبتسمون برغم الحزن، يخبرهم بأن ينتظروا ويتوقعوا خيرًا، فلربما عاد قريبهم يومًا ما، لربما فقد وعيه فقط وحسبته الجنود قُتل فتركوه، وحالما يستفيق سيعود، يجب أن يعود، لا نطيق فراقه. كانت الألسن تتحدث دونما صوت. لكن من يسمع ومن يجب النداء؟

دلفت الجيوش وهي تقرع الأرض وصرخات الأهالي وتصفيقهم وصافراتهم لا تهدأ. عرفت سليمة أن زوجها وولدها قد عادا، اصطحبت معها وجدان وحبيبة وقصدوا القلعة مع الأهالي، وحينما رأتهم سالمين سعداء بالنصر ابتسمت، ثم تذكرت وهي تعلم وترى أن غيرها ممن فقدت قريب لها تبكي، فتكدر وجهها ولم تعد تشعر بالسعادة، ودائمًا ما كانت هكذا، تحمل هم غيرها وتفكر: ليس عاقل من يفرح وغيره حزين، فإن الفرح لا يدوم، ولا بد أن يأتي الحزن يومًا ليطرق بابي، وسيتضاعف يومها إن عرفت أن غيري سعيد، فإن البشر، أغلب البشر يتمنون التساوي في الحزن عن السعادة، فيحبون أن يختصوا بالسعادة أنفسهم، لكني لا أحب أن أكون

مثلهم، فإن شعرت يوما بالسعادة فسأتمناها للجميع وأشاركهم فيها، وإن حزنت فسأكتمه حتى لا يحزنوا. كانت مع ذلك تسأل: لماذا السعادة دائمًا ناقصة؟ أو أن المرء هو من يشعر بذلك؟ يشك في أنها سوف تدوم، وهو محق تمامًا، وأفضل له أن يتخيل ويتهيء لزوالها كي لا ينصدم بنهايتها إن هي اختفت فجأة، إنَّ المفاجآت تكن جميلة إن كانت سعيدة مبهجة، لكنها تكون مفجعة مريرة إن كانت حزينة وقاسية.

***

لم تكن في نية عادل حينما تلقى الرمح بدلًا من المغيرة أن يستدر عطفه كما تخيل، لم يقدم على تلك الفعلة إلّا بدافع أنه من أهله المفترض عليه حمايتهم، ولم يفكر في كونه الحاكم وعمل كهذا لا بد أن يعد عليه بالخير الكثير، فلم يستطع المغيرة أن يتحكم في أفكاره ويؤد اعوجاجها فعصفت به الظنون وتمنى أن تكون صحيحة، فلقد ظن أن عادل فعل هكذا ليكسب عنده حظوة ويغدق عليه بالنعم، ولم يتمنى عادل نعمة كزواجه من أميرة.

يدرك تمامًا مثلما يدرك أنه يرى ويسمع أن عادل لا يفكر هكذا، يعرف أخلاقه ونبله، لكنه ربما اغتاظ لكثرة ثناء الجنود عليه، فلم يكن عادل قائدًا للجيوش وحسب، بل مقاتلًا من الدرجة الأولى، لم يكن في المعركة محاربًا مثله، إنَّ عادل شجاعًا ويعرف المغيرة أنه شجاع ويقدر ويحترم شجاعته ولكنه لم يستطع أن يحبه، ربما لنفس السبب.

قد تكون غيرة أو صفة حميدة فيه تجعله جذابًا، فكرهه بسببها، لأن ما قام بفعله بدافع من شجاعته وشهامته سيجعل شقيقته تتعلق به أكثر وهو ما لا يريده ولا يعرف لذلك سبب.

كان المغيرة يتوسط العشرات من جنود أيهم بن داغر ويقاتلهم ببراعة فيسقطهم أرضًا واحدًا تلو الآخر بعدما خرج من صفوف جيشه وجنوده الملتفون حوله ورفع سيفه في الهواء ملوحًا به بحركة دائرية وهو يصرخ بصوت غليظ قوي بحروف تشجيعية لا تكمل كلمة ولا توصل معنى، وكانت عيون عادل عليه، لا يريده وهو الحاكم أن يسقط قتيلًا، فقد يكلفه اندفاعه موته، ويكلفهم خسارة الحرب، فلن تستطع الجنود مواصلة القتال وحاكمهم قتيل.

وبينما كان يواجههم وتحت أنظار عادل، صوب إليه أحدهم رمحًا برمية قوية وحركة سريعة، لكنها لم تكن أسرع من حركة عادل الذي اعترض طريقه بعدما عرف أن المغيرة لم ينتبه لتحذيراته وتنبيهاته بتوخي الحذر، فرمى بنفسه من فوق حصانه فوقع الرمح في كتفه، ومع صرخة عادل رآه المغيرة وبعض الجنود فهبوا لنجدته قبل أن تنقض عليه جنود ابن داغر، واستطاعوا حماية جسده المسجى على الأرض ونقله للمعسكر لكي يتلقى العلاج.

وأكمل المغيرة الحرب بضراوة كما هي حال عمرو وجاسر ورسلان والجميع، فكرة أن عادل محتمل أن يموت جعلتهم كالمجانين، يضربون هنا وهناك بكل قوتهم وكأنهم يصارعون الموت وآخر نفس لهم في الدنيا. فكان رفضهم للهزيمة هو رفضهم للموت، وما أشد القوة التي سيكون عليها المرء عندما يقاوم الموت وهو يظن بأنه سيصرعه.

مع ذلك ظل وهمًا اسمه التحايل والتلاعب بمشاعره يستبد به، فكان يقول بين نفسه: إنه قصد أن يقابل الرمح بكتفه كي لا يموت، وبهذا يضمن كسب احترامي له وموافقتي على خطبته من شقيقتي، ولكن هذا لن يكون. ظل يظن ويتخيل، وما أكثر ما يتخيل المرء من أشياء خاطئة إن كان الأمر لا يروق له.

وبالرغم من ذلك لم يوافق على مغادرة عادل للقلعة حينما أخبره عمرو بأنه سيأخذه لداره ليتلقى العلاج هناك، فإن هذه رغبة والدته التي لم تكن تعلم أنه مصاب ساعة رأته شامخًا مبتسمًا فوق حصانه، وإن كانت رأت الضمادة حول كتفه لكنها ظنتها وشاحًا يستظل به من شمس أو نحوه لبعده عنها. كما أنه يحتاج لرعاية وهما سيقدماها له في أحسن صورة، كذلك لا أريد إزعاجكم أيها الحاكم. قال له عمرو بن ميمون، لكنه أصر ولم يبدِ تهاون في الأمر. فقد قال لعمرو:

- سيبقى في القلعة يا أبا عادل، يستحسن أن يبقى وهذا لصالحه.

لم يعلم المغيرة لماذا فعل ذلك وهو يكره تواجده في القلعة حيث سيكون قريبًا من شقيقته، ربما دفعته لذلك شخصيته المحاربة، فالمحارب الجيد غالبًا ما يتمتع بنبل وشهامة. لكن من المؤكد له بأنه لم يكن بدافع من عاطفة حب نحوه أو شفقة عليه.

أذعن عمرو لرغبته وعاد بصحبة زوجته لدارهما وكان هذا حال الجميع من الأهالي والجنود المتطوعين، ولكن قبل أن يعود التقى بعبدالله وأخبره بأنه سوف يزوره حالما يطمئن على عادل.

لم ترتاح سليمة، ظلت قلقة على عادل وطلبت من زوجها أن يعود للقلعة ليكون برفقته، حتى عندما أخبرها بأنه سوف يفعل ولكن في الصباح، فلقد كان النهار قد آد وبدأت ملامح الليل في الظهور انزعجت ولم توافق وبدت كأنها ستبكي فما كان منه إلّا أن طاوعها وعاد للقلعة، وأرجأ حكايا تملأ جعبته ومشاعر تعتمل في قلبه لغير الوقت، فلقد كان ينتوي زيارة رسلان والحديث معه حول أمور كثيرة، فبعد الحرب لربما تنقلب طبائع البشر وتختفي مشاعره وتندثر.

اطمأن عمرو على ابنه بأن بقى معه حتى الصباح ثم عاد لداره كي يطمئن على زوجته.

_ ٣ _

ندبات الحب والحرب

كانت روحها سعيدة لقربه وقلبها يتألم لألمه، تارة تظهر منطلقة حرة كعصفورة طليقة، تجري في القلعة وتمرح وتنشد وتطلق الضحكات، وتارة تقبع في غرفتها بالساعات لا تصدر عنها نأمة ولا وقشة وتخرج منها على فترات أنَّات وآهات، لم تسمعها والدتها لكنها أحست بها، شعرت بأن ابنتها وهي في قمة انطلاقها؛ أنما هي مكبلة، تصطنع البشاشة والهدوء كي لا تغضب أخيها، إنَّ أخيها هو مكبلها ومحررها في آن، لكنها حرية مزيفة، لا تكفي المرء أن يتحرك مطمئنًا فضلًا عن أن ينام بأمان.

في مساء اليوم التالي بعد عودتهم من الحرب حسمت ثريا أمرها وغادرت غرفتها وذهبت لغرفة أميرة، طرقت بابها برفق فهرعت أميرة تفتح لمعرفتها بطرقات والدتها الرقيقة، حالما رأتها ارتمت بين أحضانها وهي صامتة، تقطع قلب ثريا شفقة عليها وعلى قلبها الذي يرفض أن يبكي، بل مُجبر على ألّا يبكي، ولا وجود لفرضية أن يبكي طالما يمارس أحدهم عليه ضغطًا ما. تعلم أنها تعمل على أن توهم أخيها بأنها لا تفكر فيه كي لا يزداد حنقًا عليه، لا تريد فقده، وإن كان وجوده في الحياة لن يكون معها فيكفيها أو يعزيها وجوده حيًا يرزق، كونها ترى أو تسمع أنه يتنفس فهذا يرضيها، لا تأمل في أكثر من ذلك على الأقل حاليًا، إنَّ المغيرة قاسي الطباع متبلد الشعور، وتعرف جيدًا أن الحرب لم تزده إلّا قسوة وبلادة.

أمسكت ثريا بكتفيها وأبعدتها بهدوء عن صدرها ونظرت لعينيها، فلم ترى أميرة، رأت شبحًا لها، لم ترى ابنتها التي عهدتها متفتحة، رأت بحر من المشاعر ساج وهادئ ولربما يهتاج ويدمر نفسه قبل من يقابله فسألتها بحذر وهي تعيد تصفيف شعرها المتناثر على وجهها للوراء:

- ما هذه اللمعة في عينيك يا أميرة، وأين إشراقكِ؟

لم تجب أميرة وتحركت ناحية سريرها وجلست على طرفه، تقدمت منها والدتها وجلست بجوارها وقالت:

- إنه يروقكِ أليس كذلك؟

أجابت بالتفاتة سريعة ونظرة ثاقبة دونما كلمة واحدة.

عادت ثريا تقول بابتسام:

- أنا أعرف كل شيء، وتعرفين أني أعرف، فلقد أخبرني المغيرة بما لاحظه من تبادل للنظرات بينكِ وبين عادل وما دار بينكما من حديث حوله.

ارتاحت أميرة لكون والدتها تعرف وتبدو هكذا هادئة فاطمأنت وقالت بهدوء وهي تحملق في فراشها:

- نعم.

التفتت لوالدتها بحركة سريعة وأردفت بصوت متهدج:

- هل أنا مخطئة وأستحق العقاب يا أمي؟ لماذا أخي يفعل معي ذلك؟ تعرفين أن صمتي حبًا له وليس خوفًا، وإن كنت أشعر بخوف حقًا فهو على عادل، أخبريني يا أمي لماذا يكرهه لهذا الحد؟ لماذا؟

تنهدت ثريا وقالت:

- لا يا أميرة... يا ابنتي الحبيبة، أنتي لست مخطئة ولكنكِ قد تكوني متسرعة، نعم متسرعة، فهل باح لكِ عادل بمشاعره تجاهكِ؟ لا... أليس كذلك؟ فخطأ أن تحرقي نفسك هكذا وتذبليها وأنتِ تفكرين وتحللين، أنا معكِ وسأمنع المغيرة من أن يتسبب لكِ في الحزن، لكن انتظري فقط إلى أن يطلبك عادل وستري ماذا سأفعل.

ابتسمت أميرة وهي تخشى من داخلها ألّا يفكر عادل في خطبتها، لكنها كانت واثقة من أنه يحبها مثلما تحبه، فكانت تعلم أن القلوب إذا أحبت تخبر بعضها وإن كرهت لربما تنافق لتستمر

العلاقات، وإن كان الطرفان يعرفان ذلك إلّا أنهما يصطنعان العكس، أما الحب فهو كالسهم المنطلق الذي يتوقف فقط عندما يصدمه شيء، فإن صُدم المرء في حبه قد يتوقف عن المسير في اتجاه حبيبه ويسلك دروبًا عكسية، فوقتها فقط، عندما يحدث اصطدام، محتمل أن يغير المرء من أفكاره.

قالت ثريا عندما رأتها تبتسم:

- ارتاحي الآن يا أميرة، نامي يا صغيرتي ولتتركِ كل شيء لوقته.

أومأت برأسها في صمت ثم نادت على والدتها عندما رأتها توشك أن تغادر غرفتها فتوقفت ثريا فسألتها:

- هل يمكنني أن أطمأن عليه يا أمي؟

قبل أن تجب ثريا أسرعت تقول بتلعثم:

- أاا... من بعيد، من بعيد يا أمي.

أجابتها والدتها وهي تبتسم:

- لا يا أميرة... بل من قريب. ولكن في الصباح.

أومأت أميرة برأسها وهي تقول:

- نعم في الصباح، هذا ما قصدته.

هزت ثريا رأسها وقالت:

- حسنا.

افتر ثغرها وقفزت من مكانها لتحتضنها مرة أخرى بروح أخف غير مثقلة بهموم وأفكار. وغادرت ثريا واتجهت صوب غرفتها.

***

قبل تغلغل الليل امتطى عمرو صهوة حصانه واتجه للقلعة، كثير من الأصوات تدق رأسه، صخب وزحمة كلمات، توسلات زوجته بالفرار قبل أن تقع الفأس في الرأس ويتعلق عادل أكثر

بالأميرة، وتحليلات رسلان التي لا تنفك تزداد، وأصوات الكائن الغريبة والأهم هو صوت هذام، يسمع صداه في أذنيه كأنه آتٍ من مكان بعيد، وإنه لبعيد حقًا، عزم على أن يشرع في تنفيذ ما فكر فيه، فحالما يتماثل ولده للشفاء سيسافر لقرية جاسر ليضع حدًا لشكوكه التي كانت شكوك صديقه هذام.

وصل للقلعة ونفض رأسه من الأفكار كي لا يبدو مهمومًا فيغتم عادل، فيكفيه ما هو فيه، لم يستلزم الأمر حينما وصل للقلعة إلى جهد جهيد كي يعرف وجهته، فلقد جاؤه أحد الخدم كي يدله على غرفته التي من المفترض أن يبيت فيها، لكنه أصر على أن يقضي الليلة بجوار عادل ثم بعدها من الجائز أن يقيم في غرفة أخرى. وكان له ما أراد.

وكأن العصافير غريبة مثلهما، لم يسمعا أصواتها مع انطلاقة الصباح، إلّا أن حركة ما كانت تدور خارج الغرفة، بيد أن هناك أحد قادم نحوهما وقد بدا الأمر أكثر وضوحًا حينما تناهى لسمعهما وقع أصوات خافتة آتية من بعيد، إلى أن ازداد الصوت وارتفع وطُرق الباب فقام عمرو ليفتح.

لا تدري كيف قضت ليلتها، لم يشغلها سوى أنها كيف ستحتمل نظراته بدون ما يعتريها حرج وخجل؟ وكيف ستحدثه؟ أي بأي لهجة؟ لم تخاطبه من قبل، وقد بدا لها الأمر غاية في الصعوبة، ارتسمت على وجه عمرو علائم البهجة والسعادة وكأنه لم يكن حزينًا يفكر، بل وكأنه لم يحزن من قبل، وكيف لا وهو يستقبل والدة الحاكم وابنتها أميرة؟ انتحى جانبًا بعدما رحب بهما كيفما اتفق وسار تجاه عادل وهو يبتسم إليه، نظر عادل للقادمتين في خجل أقرب للعجز، يريد أن يقدم شيئًا، يقم بترحيب يليق بهما لكنه لم يستطع، ففي ليلة عودته من الحرب بات محمومًا حتى الصباح، ولولا تواجد والده لربما كان تفاقم مرضه.

شعر بحرج بالغ، كيف تدلف أميرة لغرفته لتراه وتحدثه وهو ممدد على ظهره هكذا؟ ما خفف من حياءه إلى أن تحول حرجه لمتعة هي حمرة خداها، فلقد تحمرا ما إن ركز في عينيها، أراد أن يرتكز براحتيه على السرير ليشد ظهره للأعلى كي يستقيم قليلًا لكنه لم يقو على ذلك

فاستسلم لعجزه، عندما أشارت إليه أميرة بيدها كي يكف عن إجهاد نفسه. كانت والدتها تقف عند الباب، اقتربت أميرة على استحياء وأشارت إلى مكان الجرح وهي تقول بهدوء:

- أمازلت تشعر بألم؟

ابتسم وقال بنبرة خافتة بالكاد سمعتها:

- لقد زال الألم لحظة دخولكِ إلى هنا، سيكون أحمقًا ذاك الألم إن ظل في مكان تتواجدي فيه.

حملق في عينيها المسبلتين فأطرقت للأرض خجلًا وقالت بابتسامة عذبة:

- حمدًا لله على سلامتك.

لقد اعتبرت أميرة كلمات عادل أعظم ما قيل في الغزل، وأنها اعتراف منه بحبه لها، لكن كيف ستتأكد من ذلك؟ إنها لا تدري. لقد بدت شاردة وهي تحدث خادمتها بعدما عادت لغرفتها عما دار بينهما، كانت روحها أخف من ريشة يحملها الهواء ويطوحها.

زاد إعجاب ثريا بعادل بعدما أنقذ ولدها، هو في الحقيقة أنقذها هي، فحينما خرج المغيرة للحرب لم تكف عن التفكير، كانت تسأل: كيف لي أن أحتمل فراقه؟ يكفيني فراق طفلي الأول، إنني غير واثقة من إن كنت سأرحب بالحياة من بعده إن أصابه مكروه.

تمنته زوجًا لإبنتها وعزمت على أن تجعل المغيرة يرضخ لأوامرها، لم يكن المغيرة يشكل فرقًا، أو يقف كحاجز أمام تلك الرغبة، ما كانت تحسب حسابه هو أن يخشى عادل من أن يتقدم لخطبتها فيصده المغيرة، فيستسلم. أما عن رغبة عادل في الزواج منها فلم تكن لديها أدنى شكوك فيها.

عرف المغيرة بأن شقيقته زارت عادل لتطمئن عليه، فامتقع وجهه وعلاه الكمد، فلقد قصت عليه والدته ما صار لعلمها بأنه سوف يعلم، فأرادت أن تسبق من سيبلغوه كي لا يزيد أحدهم عما حدث. بدا مخنوقًا ومنزعجًا واحتد صوته وعلا على والدته فصمتت وترقرقت عيناها فأشفق عليها وقلل من صراخه إلى أن كف عنه واعتذر، لكنه أصر على رأيه وهو لن يوافق

على عادل إن هو تقدم لخطبة شقيقته فأرجأت ثريا الحديث عن الأمر لحين قدوم عادل ليطلبها، لا تريد أن تدخل في نقاشات محتدة والأمر ليس إلّا محض توقعات.

_ ٤ _

الأمل

ثقل على عمرو بعده عن زوجته وافتقاده لصحبة رسلان، كما أنه أشفق على سليمة لكونها تقضي وقتها وحيدة وقلقة، فمنذ أن رأت عادل يوم جاء من المعركة مصاب وهي لم تره بعدها. كان قد مرت بضعة أيام حين تحدث عمرو مع الحاكم بشأن العودة، حيث أخبره بأن عادل شبه تماثل للشفاء ولم يعد بقاؤه في القلعة بالأمر الضروري، كما أن الأمور استقرت في المدينة ولهذا فلقد طلب منه الإذن بالعودة لدارهما لحين اكتمال شفاء عادل، كما أنه سوف يأتي للقلعة كل بضعة أيام ليباشر عمله فيها كمستشار.

فما كان من المغيرة إلّا أن وافق. بل فرح بقراره ربما أكثر منه، لأنه سوف يتخلص من صداع مزمن يسببه له وجود ولده بقرب شقيقته.

قبل أن يغادرا انتحى عمرو بثريا وحين انفرد بها واطمأن بأن لا أحد يسمعهما قال لها وهو يتوخى الحذر كي لا تصاب بهلع:

- أتذكرين حديث هذامًا رحمه الله عن الشاب الذي أخبرنا أن نقتفي أثره يا أم باسل؟

- نعم أذكر.

أزدرد ريقه ثم قال:

- لقد وجدته.

حملقت فيه وصمتت قليلًا قبل أن تقول:

- أين هو؟

قال عمرو:

- إنه يسكن إحدى القرى التابعة لحكم المغيرة، وقد حارب معنا، واتضح لي أني أعرف أهله من قبل.

احتقن وجهها فاستدرك: أو من يتخذهم أهلًا.

- وماذا تنوي فعله يا أبا عادل؟

تنهد قبل أن يقول:

- بدون شك، أنوي الذهاب لقريته لأكشف هويته.

زفرت وقد بدا عليها الإنهاك ثم قالت بضجر:

- حسنًا... إنه أمل، ويا لكثرة الآمال، ويا لندرة تحققها.

انصرف عمرو وتركها تعيش حلمًا كئيبًا بقدر ما يحمله بين طياته من سعادة، إنَّ ما قاله عمرو وقاله زوجها من قبل يعطيها أمل، والأمل بقدر ما يخبئه لها من مفاجآت كان قلقها حياله، فإنها ستحاول أن تنسى النتائج وتحيا في عالم من محض خيالها، ينسجه قلبها بخيوط مشاعرها الدافئة، البيضاء منها والسوداء القاتمة، سوف تتصور بأنه سيكون باسل وسيعود إليها، عادت تقول: لا... إنَّ هذا لأمر شاق، أن أنتظر عودته للقلعة كشاب في العشرين، وليس هذا ما يشغل تفكيري، إنَّ ما يشغلني، بل ما يعذبني أني سأعيش واقعي بحلم ضعيفة فرصة تحققه، وأمل واهٍ ليست له ملامح، ثم ماذا بعدما ينتهي كل شيء ونكتشف أننا كنا نهدر الوقت في لاشيء؟ ليست المسألة مسألة وقت، فليأخذ ابني كل سنيني مقابل رؤيته حيًا أمامي، إنَّ المسألة هي خوفي من كونه لا يكون هو. معرفتي بأن الأمل انتهى كفيلة بأن تسقطني قتيلة.

رغم ما تفكر فيه خالجها شعورًا بأن باسل سوف يعود، ودائمًا ومنذ اختفاؤه وهي تعيش على هذا الأمل، بيد أن هذا الأمل هو ما يحيي جسدها إلى الآن وينعش روحها.

غادر عمرو وعادل أسوار القلعة تحت أنظار المغيرة وثريا، حتى النظرة التي كان من المفترض أن تلقيها عليه لم تكن في استطاعتها، ولم يكن للمغيرة في هذه المرة دخل في ذلك، بل كان قرار نابعًا من بواطنها، فلقد كانت رغبتها في رؤيته قوية لدرجة أنها تعمدت عدم رؤيته، خشيت

أن تهرول نحوه من فرط اشتياقها أو أن تهتف خلفه باسمه فيغضب منها المغيرة وتظهر ضئيلة الحجم عديمة الكرامة. ففضلت أميرة المكوث في غرفتها إلى أن يغادرا. وبعدها سقطت طريحة الفراش وقد أضناها المرض.

عايشت ثريا في تلك الفترة أوقاتًا عصيبة، ابنتها مريضة وحزينة، وهي شاردة بفكرها خارج حدود المعقول واللامعقول، والمغيرة في عالم مغاير، لا يشعر بهما وإن أحس بشيء لا يأبه لحالهما رغم ذلك، لقد كرهت ثريا طريقة تربيته التي جعلته فظًا، كأنه دمية بلا قلب، وكأن قلبه ينبض بحياة أخرى في عالم وحشي.

_ ٥ _

الاشتياق

كانت مشاعره جامحة ولم يستطع كبتها، ولشد ما استصعب أن ينبلج الصبح دون أن يخرج من داره، فلقد فكر في ذلك لكنه وجدها فكرة شاقة. لقد طمأن زوجته واطمأن عليها بعدما لفهما سكون ارتفعت فيه أرواحهما واندمجتا وصارتا واحدة، كان قد مضى على وجوده في داره وقت كاف لإشباع رغبات كانت قد استبدت به، لكنه مع ذلك لم يرتاح بالكلية ولن يستطيع أن يتوصل لتلك الراحة الأبدية لمعرفته أنه في عالم غير مريح، إلّا أنه أراد المحاولة، فخرج نحو نهاية الأصيل باحثًا عما يسد رمق قلبه، ما يهدأ من ثورة مشاعره الهائجة فقصد دار رسلان ليتحدث معه.

سار بمحاذاة النهر في أحد المروج الخضراء وكان الجو لطيفًا حينها والشمس الزاحفة نحو الغروب تجبر السائر على أن يتأملها، فلقد خفت حرارتها وحدة أشعتها فكان ينظر إليها ولا تؤلم عينه، أي لا يضطر إلى أن يزيح بصره عنها فور أن يواجهها أو لأن يرفع كفه على جبينه لتحجب عنه أشعتها، كان يسير بخطى حثيثة منذ مغادرته داره، يهم ليلتقي بصديقه الذي غاب عنه عدة أيام، يحتاج لأن يتحدث معه حول جاسر وشكوكه نحوه وما يتجشمه من صبر، فلقد صار يستحضر وجه هذام كثيرًا وهو يحدثه عنه ولم يعد يطيق هذا الحمل الضخم، فتلك المهمة التي وضعها هذام على كاهله باتت ترهقه، حان الوقت أو قرب لكي يستريح ويريح ثريا التي تشترك معه في هذا الحمل.

كم تمنى أن يُطمئن روح صديقه ويفي بوعده وقد آن الأوان، فراح يغذ الخطى ولكنها أخذت في التباطؤ شيئًا فشيئًا إلى أن تقاربت وتثاقلت حينما تناهت لسمعه أصوات الكائن التي لم

يكن منتبهًا لها من فرط تركيزه فيما سوف يفعله كي يتأكد من أن جاسر هو باسل ابن صديقه هذام، جاهد عقله كي يجعله لا يتطرق للتفكير في كائن الغابة لكنه لم يستطع، لقد مر ما يقارب الشهر على آخر حادثة، مذ شع الضوء الأخضر في سماء الغابة وصدح صوته بجملة *"أنت السبب في هلاكك"* ولم تظهر أي جثة في مكان ما ولم يشتكي أحد فقد قريب له، راح يسأل وهو يسمع أصواته العالية التي ظن أنها من فرط جوعه الشديد، فإنه لم يلتهم أحدًا منذ ذلك الحين: أهو شيئًا محسوسًا يمكن رؤيته وقتله؟ أم ماذا يكون؟ وهل أصواته هذه مجرد عادة أو طبيعة تكوينية كالنَفَس بالنسبة لنا أم هي من شدة جوعه؟ لم يتوصل لإجابات.

نسى أمره ونظر صوب النهر، يحملق في صفحة مياهه ويقف ثم يكمل سيره، يترك ساعداه يتدليان على جانبيه ويتخبطا في ساقيه وكأنه ليس له حكم عليهما، توقف عند جسر وراح يتفحصه بدقة ويتفرس في حديده ويتفكر في طريقة صنعه، كأنه يريد أن يشغل ذهنه بشيئًا آخر غير ما يفكر فيه. فعل ذلك عدة مرات، يتوقف عند جسر ويكرر الفعلة ثم يرميه خلفه ويمضي ليكررها مع غيره إلى أن صاح الكائن صيحة مقززة جعلته ينظر صوب الغابة ويسير على الجانب الآخر من الطريق، واتخذت خطواته منعطف آخر إلى أن اقترب من أشجارها السامقة التي تتسلل أشعة الشمس من خلال أغصانها وأوراقها لترسم على الأرض ظلالًا متقطعة، أخذ قرص الشمس البادي من بعيد فوق الأشجار في الاحمرار وقد مال أكثر للغروب حتى انحسر تمامًا واختفى عن الرؤية وقد توارى خلف التلال البعيدة وهبت نسمات خفيفة هفهفت على وجهه، كان المنظر ليكون بديعًا لو انقطعت أصوات الكائن، لكنه لم يريد أن يُجمّل الصورة فوضع عليها لمسته ليشوبها بالحزن ويقبحها.

تلاشت ظلال الأشجار وتلونت السماء بلون داكن لكنه كان لا يزال يستطيع الرؤية، شعر أن الوقت يهدر في أفكار لا تعود عليه إلى بالآلام فأغمض عينيه كأنه لا يريد أن يرى أي أفكار تزعجه ثم فتحهما ثانية وتحرك باتجاه دار رسلان.

طرق الباب وهو منكس الرأس ولم ينتظر طويلًا وسمع رسلان من خلفه يقول: من؟ فرفع رأسه ببطء وعرَّف عن نفسه ثم فُتح الباب بسرعة ليجد نفسه بين ذراعي رسلان، أحاطه رسلان بذراعيه وهو يبتسم ثم احتضنه واصطحبه لصحن الدار.

لم يكن رسلان بأقل شوقًا منه، إذ بدا وكأنه يجلس على جذوة من نار، يتحرك في جلسته ويربت على ساقي صديقه الذي يجلس قبالته ويرحب به. قضى رسلان تلك الأيام السابقة التي تلت يوم الحرب بصعوبة بالغة، لم يكن يعلم أين يذهب ولمن؟ حينما كان عمرو وعادل في القلعة كان هو حزينًا وشاردًا كأن الهزيمة هي من لحقت بهم وليس النصر، لقد أوشكت الكلمات من أن تخنقه، طال تأجيله لمناقشة عمرو حول أصوات الكائن التي أطلقها قبل موت ميمون، فمنذ ذلك الحين وهو ينتظر ولكنه قرر ألّا يتحدث عنها الآن لأنه لمس الشرود على وجه صديقه، لكن عمرو هو من وخزه ليتحدث إذ قال له:

- لقد زادت حدة أصوات الكائن يا أبا حبيبة. أتظنه جائعًا؟ فإنه لم يلتهم أحدًا منذ فترة طويلة.

انفرجت أسارير رسلان لأنه سوف يخرج كلمات تنهكه منذ مدة طويلة وقال:

- من الجيد أنك تطرقت للحديث حول كائن الغابة يا أبا عادل، لا أعلم بالضبط بماذا أجيبك، لكنني أعتقد بأنه جائعًا، فكما حللنا الأمر من وجهة نظرنا بأنه يلتهم الظالمون الذي يقومون بقتل غيرهم وكما تعلم أن الأمور استقرت في الأيام الماضية ولم ترتكب جرائم قتل مما لم يدفعه لاختطاف أحد.

صمت قليلًا ثم قال:

- ألهذا الحد هو شريفًا وثابتًا على مبدءه يا أبا عادل؟ أم أنه يختطف ويلتهم دون أن يضطر لأن يخبرنا بأنه يفعل ذلك؟ فكيف لنا أن نعلم عن خبره شيء؟

وضع عمرو يده على ذقنه وهو يهز رأسه ويقول:

- ربما... كيف لنا أن نعلم حقًا؟ ثم ليس بالضرورة أن تكون أصواته هذه دليلًا على أنه جائعًا.

راحا الاثنان يفكرا ثم أطبق الصمت على المكان، اللهم إلّا أصواتًا خفيضة تأتي من المطبخ حيث تقف وجدان أمام النار ومعها حبيبة التان لم تلتقتا شيئًا مما قالاه وإن كانتا تأتيهما غمغمات غير مفهومة. زفر عمرو بقوة ثم قال:

- دعك من هذا الآن، سيأتي الوقت الذي تنكشف فيه الحقائق. أريد أن أحدثك حول موضوع آخر.

حدق إليه رسلان وقال بدهشة وهو يزوي ما بين حاجبيه:

- موضوع آخر!

مال عمرو على رسلان حتى اقتربت رأسه من رأسه فبدا له وجهه أكبر من المعتاد وقال بصوت خافت:

- نعم موضوع آخر... جئت لأخبرك بأني أحتاجك معيَّ غدًا. سوف نسافر لإحدى القرى التابعة لنا.

ثم عاد للوراء وانتظر رده، فقال رسلان بنبرة تعجب:

- نسافر!

- نعم يا أبا حبيبة.

- لماذا؟

تنهد عمرو وقال بهدوء:

- سوف أخبرك في الطريق، سأمر عليك في غداة غد، فلتكن مستعدًا.

قال رسلان بنبرة خافتة:

- لا... يستحسن أن نخرج من دارك، لأن زوجتي لن تكف عن طرح الأسئلة، فإني من سآتيك.

أومأ عمرو برأسه موافقًا ثم انصرف من عنده وعاد لداره وكان الليل قد صبغ المدينة باللون الأسود الداكن.

الفصل السابع

ـ ١ ـ

في دار ميمون

لقد قضت سليمة ليلتها تفكر وتقلب الأمور على دفتيها كأنها قطعة لحم تحمرها في زيت، لم يفعلها زوجها قبل ذلك، أن يسافر لقرية نائية تابعة لمدينتهم كي يتقصى أخبارها، رأت في ذلك عجبًا شديدًا، فمن متى وهو يهتم بذلك؟ فإنَّ هذه مهمة راجح بن درغام القطامي، فإنه مسؤول العلاقات الخارجية، هو من يبعث بالرسل للقرى ليخبروهم بما جد من الأمور ويبعث بجنود استطلاع كل حين، لم تقتنع بما قاله زوجها من أسباب، رأت أنه اختلقها ليبرر بها سفره، فأراحته واصطنعت أنها قد اقتنعت لتجعله يتمكن من النوم بسكون وعزمت أمرها على أن تستفسر منه بوضوح في الصباح وهذا ما صار.

كانت قد تركت فراشها بجواره مبكرًا لتعد طعام الإفطار وهذا ما لم تكن تفعله قبل ذلك اليوم، أن تستيقظ مبكرًا هكذا، ومرد ذلك يعود إلى أرقها الشديد جراء استرسالها في التفكير.

كانت قد انتهت من إعداد الطعام وجلست في صحن الدار تنتظر استيقاظه، وكان عادل لا يزال في فراشه، أفاق عمرو فانتظرت حتى فعل ما يفعله غالبًا كل صباح وجلس ينادمها على مائدة الإفطار ولم يمر كثيرًا من الوقت وجلس عادل معهما. فقالت موجهة الحديث إلى عادل قاصدة به فتح باب النقاش حول الموضوع مرة ثانية:

- والدك مسافر يا عادل.

جفل عادل وقال بدهشة:

- مسافر! إلى أين؟ ولماذا؟

زفر عمرو بقوة لعلمه بما تحاول إثارته من تساؤلات ثانية بتحايلها على الأمر ورمي الحوار ومهمة إدارته على عادل.

كرر عادل سؤاله بتوجيهه لوالده مباشرة تحت نظرات والدته المشجعة:

- إلى أين تنتوي السفر يا أبي؟
- إلى إحدى القرى التابعة لنا.

استطرد وهو ينظر لزوجته:

- لا تسأل لماذا. سوف أخبركما حين أعود.

طُرق الباب فاعتقد عمرو بأنه رسلان فقامت سليمة لتفتح فتسمرت لثوان لا تعلم ماذا تفعل. كانت سيدة شابة تحمل طفلًا على ذراعيها، حدجتها سليمة بنظرة متسائلة فبادرت المرأة تقول بارتباك:

- مرحبًا يا أم عادل... ألستِ زوجة أبا عادل؟

قالت سليمة وهي لا تزال محافظة على نفس النظرة:

- نعم أنا زوجته، ماذا تريدي... أاا أعذريني، مرحبًا بكِ.

أومأت المرأة برأسها متفهمة ثم قالت:

- هل أبا عادل موجود؟ أريد التحدث معه حول موضوع هام.

أحست سليمة أن وجود هذه المرأة له ارتباط وثيق بما ينتوي زوجها فعله وما طرأ عليه فجأة من تغيرات، زاد فضولها فقالت:

- نعم موجود، تفضلي أرجوكِ.

دلفت المرأة خلف سليمة وراحت تنظر حولها وتحدث نفسها: ليس هذا بمنزل يليق بمستشار الحاكم، فهذا يؤكد ما سمعته عنه من أخبار، يبدو لي هذا جيدًا.

كانت قد سمعت عن أخلاقه الحميدة وأنه متواضعًا وفقيرًا ورغم ذلك يتخذ من هموم غيره من الناس همومًا له ويجتهد في إزاحتها عنهم ولهذا فقد أتت إليه اليوم.

كان قد انتهى عمرو من تناول إفطاره وجلس على إحدى الكنبات التي لم تثر اهتمام المرأة، فكانت مثل معظم ما بالمنزل، تظهر بالية وقديمة. أما عادل الذي كان قد دخل غرفته وما إن سمع المرأة تتحدث حتى خرج، إذ قالت:

- كيف حالك يا سيدي المستشار؟

لم تروق لعمرو كلمة سيدي وبالرغم من ذلك لم يرد إحراجها فقال بابتسام ونبرة هدوء:

- حمدًا لله على كل حال، أبمكاني مساعدتكِ في شيء؟

كانت المرأة الشابة تقف بعيدة فدنت منه وقالت:

- نعم... إني أجيء إليك الآن كي أشكو فقد زوجي.

عرفت سليمة أن ليس ثمة صلة بين المرأة الواقفة في صحن دارها وبين ما يشغل زوجها فاقتربت أكثر لتسمع ما ستقوله السيدة. وكان عادل قد اتخذ له مكانًا بجوار والده وجلس ليسمع هو الآخر، بيد أن حكاية مثيرة على وشك أن تحكى.

قال عمرو وهو يشير بيده إلى المرأة:

- تحدثي، ماذا حدث؟

قالت باقتضاب:

- إنني زوجة تاجر شاب، حالنا ميسور بعض الشيء، قبل ما يقارب الشهر تفاجئت بزوجي صباح يوم من الأيام يتجهز لرحلة، ولم يكن هذا بشيء غريب، فلقد اعتدت على ذلك، على كثرة ترحاله وتنقله بين المدن والقرى بحكم عمله، حينها أخبرني بأنه ذاهب بصحبة أحد أصدقائه التجار لقرية نائية عن مدينتنا –تقصد مدينة الحكيم– ليبتاعا بضاعة من هناك ويبيعاها هنا، في مدينتنا.

توقفت المرأة عن الحديث إذ أنها رأت أن أبا عادل يقطب جبينه وقد فهمت أنه لا يطيق صبرًا، وكانت محقة، إذ أنه لم يجد فيما تقله شيئًا ذا أهمية، عرفت أنها يجب أن تلخص ما تود قوله وتسرع بالتفوه بالشيء الهام فأسرعت تقول:

- لقد جئت إليك يا أبا عادل أشكو فقد زوجي، فإنني أشك بأن صديقه قد قتله، فهو لم يعد منذ ذلك اليوم الذي خرجا فيه معًا، وكان قد أخبرني أن رحلتهما لم تتجاوز الأسبوع على أكثر تقدير. وها هو شهر كامل أو أكثر قد مر ولم يعد. و...

اختزلت المرأة حديثها حينما طرق رسلان الباب فقامت سليمة تفتح في تكاسل، لم تتفاجأ من كونه متهيئًا لشيء ما، إذ بدا عليه الإهتمام بمظهره، وهو الأمر الذي لم تعتاده منه، لا تذكر أنه تأنق هكذا من قبل، فكان لباسه مهندم تعلوه ابتسامة جذلة خالتها سليمة أنها ابتسامة من هو مقدم على شيئًا يحبه، كالرحالة الذي يحب عمله، فهو يسعد في كل مرة ينتقل فيها من بلد إلى بلد.

وقف رسلان مشدوهًا وفكر مثلما فكرت سليمة بأن تكون المرأة لها دخل في سفرهما. تطلع عمرو للمرأة وأومأ برأسه أن تابعي، فكانت فطنة وفهمت أنه يريد منها أن تعيد ما قالته كي يسمع رسلان فكررت ما قالته فقال رسلان تحت أنظار عمرو الذي كان يهز رأسه مؤيدًا لكلامه:

- ولماذا لا تتوقعي أن يكون الكائن هو من قتله؟ هذا إن كان قُتل.

أدارت المرأة رأسها لرسلان، إذ أنه كان يقف عن يمينها وكانت هي تنظر لعمرو الذي كان جالسًا قبالتها وقالت باقتضاب:

- لا... إني متأكدة من أن الرجل هو من قتله.

نظر رسلان إلى عمرو وهو يرفع حاجبيه كأنه ذهل من شيء ما وبادله عمرو نظرات مشابهة فشعرت المرأة بحرج شديد فازدردت ريقها وتنحنحت قبل أن تقول بوجل وقد اكتست ملامحها بعلائم الارتباك:

- الحقيقة يا أبا عادل أني كنت أعرف من الليلة التي سبقت سفره أنه مسافرًا ولم أتفاجأ كما قلت. كما أنه ليس صديقه، بل كان رجل عاديًا تعرف عليه زوجي في السوق، بل هو من تعرف على زوجي، وقد أخبر زوجي عن بضاعة في إحدى القرى البعيدة، وكما فهمت وحكى لي زوجي أن هذه البضاعة عبارة عن ملابس رديئة الصنع ولكنها بخسة الثمن، يحضراها على أنها من أفضل وأجود الملابس ثم يبيعها زوجي بأعلى الأسعار ويعطي للرجل حصته التي اتفقا عليها. فلقد أثر الرجل على زوجي وتلاعب به حتى طاوعه على ما يفكر فيه، ولكن زوجي لم يكن يومًا هكذا، لطالما عهدته رجلًا شريفًا لا يقبل أن يطعمنا بالغش والتحايل. إلّا أن... ما أود قوله أيها السادة أن زوجي قد أخطأ حينما قبل أن يسايره في الأمر. وأنا أيضًا قد أخطأت، لكننا لا نستحق ذلك الجزاء، كم دعوت الله أن يرجع لي زوجي وأبديت ندمًا على تشجيعي له بالذهاب مع الرجل.

قام عمرو من مكانه وقد ضاق ذرعًا، فالمرأة ثرثارة ولم توضح ما تود قوله بإيجاز، ولم تحدد بالضبط ما جاءت إليه فقال:

- لماذا تعتقدي أن الرجل هو من قتله؟

قالت:

- لأنه يعرف أن زوجي بحوزته مال، وهذا ما دعاه من البداية إلى أن يصحبه في رحلته، ويهيأ لي أيضًا أنه لا توجد بضاعة من الأساس وأن الرجل هو من اخترع وألف تلك القصة.

قال عمرو:

- إذًا ماذا تريدي؟

أجابت المرأة بنبرة مستكينة:

- أريد زوجي يا أبا عادل، أريد أن أطمأن عليه، يخبرني أحدهم بأنه حي في مكان ما وسوف يعود، أو... أو يقل لي أنه قد فارق الحياة لأكف عن بحثي. ما أرجوه منك هو أن تبحث عنه بقدر ما تستطيع.

كانت سليمة تنظر للمرأة وطفلها في شفقة فأسرعت تقول:

- فلتفعل ما في وسعك يا أبا عادل.

قال عمرو بهدوء:

- حسنًا... اطمئني، سوف أفعل.

شكرته المرأة واستأذنت ثم انصرفت وتركتهم في حيرة حيث قال رسلان:

- أتوقع أن يكون ما قالته المرأة في محله تمامًا وهو أن الرجل قد قتل زوجها وألقى بجثته في مكان ما، ثم اختطف كائن الغابة ذاك الرجل والتهمه. وهذا يفسر لنا ما حدث في الغابة قبل الحرب. أتذكر يا أبا عادل؟

لم يرد أبا عادل تحليل الحادثة في وجود المرأة حرصًا منه كي لا يشقيها أكثر، لكن لا حرج في ذلك وقد غادرت.

- نعم أذكر. ولكن أين جثة الرجل؟ أتعتقد أنه قتله في مدينتنا أم خارجها؟

فكر رسلان ثم قال:

- لا أعتقد بأن الكائن يلتهم أو يهتم بأحد خارج حدود مدينتنا، وإلّا لكنا سمعنا بحوادث مشابهة، ما أفكر فيه هو أن يكون الرجل قتل زوج المرأة بدافع سرقة ماله في طريق الغابة، ثم دلف لها وألقى به بداخلها، ولا أعتقد أنه تركه في أطرافها، بل في منتصفها لعلمه بأن الناس ترتعد من مجرد المرور إلى جانبها فضلًا عن دخولها، وبذلك يضمن ألّا تنكشف جريمته؟

قال عادل بنبرة تعجب:

- كيف تعتقد كل هذا، ولا تعتقد بأنه لن يفعل لكونه خائفًا من الكائن.

أجاب عمرو:

- لأن الذي يرتكب إثمًا يا بني ينسى وجود الخالق، فمن الطبيعي أن يلغي وجود أي أحد أو أي كائن، ما تستبد به حينها من شهوة أو رغبة في انتقام أو حقد وكره يجعله لا يفكر. أتفق معك تمامًا يا أبا حبيبة، وعلى الأرجح هذا هو ما حدث.

قالت سليمة بوجه مضطرب وصوت وجل:

- وماذا تنوي فعله يا أبا عادل؟

أجاب عمرو:

- كما قلتي يا أم عادل، سوف أبحث عن زوج المرأة.
- أين؟ وضعت يدها على صدرها متوقعة الإجابة فقال:
- في الغابة.

شهقت سليمة واكفهر وجهها بينما تبسم رسلان وأشرق وجه عادل لمعرفتهما بأنهما من الضروري أن يذهبا معه.

قال عادل:

- متى يا أبي؟

رد عمرو باقتضاب وإيجاز:

- عقب عودتنا.

ثم ربت على كتف رسلان الأيسر بيده اليمنى وقال:

- هيا يا أبا حبيبة.

لم ينتظر رسلان طويلًا وهذا ما أراده عمرو وحرص عليه، كي يتلاشى الحديث حول سفرهما مع زوجته. اختفى داخل غرفته قليلًا ثم خرج وقد ارتدى ملابسًا عادية ولم يسرف في الاعتناء بمظهره، فهو لم يكن يومًا معتد بنفسه ومتفاخرًا بمركزه أو ما شابه.

لم تتحدث سليمة ثانية فجلست لتستريح واكتفت هي وعادل بمتابعتهما وهما يخرجان من باب الدار فانتصبت واقفة وقد تذكرت شيئًا.

كانا يحلان وثاق خيولهما خارج الدار حينما جاءتهما سليمة بزوادتين لرحلتهما التي لا تعلم عنها شيء، أخذ كل منهما واحدة ولكزا حصانهما وبدءا في المسير، تابعتهما سليمة بعيون مستغرقة في التساؤل ثم دلفت لدارها.

_ ٢ _

رحلة البحث عن الحقيقة

لم تكن الشمس قد أرسلت كل جنودها لتستبد بهما، فإن أشعتها لا تزال ضعيفة وبعيدة، سارا متحاذيين ينظران للأفق البعيد حيث تلاقي السماء بالصحراء، لقد اختارا وفضلا طريقًا آخر غير طريق الغابة مع إنه أطول، كان هذا رأي عمرو كي لا يفكرا في أمر الكائن ولم يعارض رسلان، إنَّ رسلان يجهل ما هو مقدم عليه لكنه كان يثق في أن عمرو لديه ما يثيره، فكانت الرحلة بما تحمله أمر شائق يبعث على البهجة.

نظر رسلان خلفه فرأى أنهما قطعا مسافة طويلة وكانت الشمس قد توسطت السماء الصافية واستعرت واتقدت كأنها تلتهم نفسها، تفصد العرق من جباههما لينحدر على وجوههما ويشعرهما بالضجر والملل الشديدين فتحدث رسلان ليجدا ما يسليهما بعدما لم يتحدث عمرو كما قال له بأنه سيخبره في الطريق:

- لو أننا اتخذنا طريق الغابة... من وجهة نظري، لكان أفضل من ذلك، على الأقل كنا سنستظل بأشجارها مدة كافية.

ليس هذا ما يريد الحديث حوله ولا يهمه كثيرًا طول الطريق أو قصره أو حتى أن يتكبد مشقة من السفر في الصحراء المقفرة، لكنه أراد أن يجعل أبا عادل يخرج عن صمته.

قال عمرو وهو يهز رأسه:

- تريد أن تعرف سبب هذه الرحلة يا أبا حبيبة؟ فلتسمع إذًا ولتنتبه.

تبسم رسلان وأصغى جيدًا لعمرو حيث قال باقتضاب:

- هذه مهمة كلفني بها هذامًا رحمه الله.

حملق فيه رسلان بعينين شاخصتين متسائلتين، بينما كان هو ينظر للأفق البعيد وأردف:

- لقد شاهد هذام في آخر حفل أقيم في حياته شابًا قال أنه بدا مألوفًا له، وأن عاطفة الأبوة قد تحركت نحوه، وأخبرنا أنا وثريا بذلك، نعم ثريا تعلم كل شيء، أخبرنا أن رغبة غريبة قد انتابته، فقد شعر بأنه يريد أن يحتضنه حينها... باختصار يا أبا حبيبة، ظن أنه ابنه باسل، بل شك في ذلك وهذا أبلغ، فوصفه لي وعائلته وقد عرفته. ونحن الآن ذاهبان لنتأكد من شكوكه.

ارتسمت على وجه رسلان ملامح الفضول أكثر من الدهشة فقال باستغراب:

- باسل! أيكون حيًا إلى الآن؟
- لا تزال شكوك. ولا أحد يعرف بذلك غيرنا وثريا.

تمنى رسلان من كل قلبه أن يكون هو باسل، ولا يكون الكائن قد التهمه. وبهذا وبعد سماع قصة تلك المرأة وبعدما يتأكدون من صدقها يكون الكائن لا يقتل بريئًا حقًا، لكنه عاد يسأل نفسه: وماذا ستفيدني معرفتي بذلك؟ وأجاب على نفسه في تعجب: أخاف أن أرتكب إثمًا فيؤذيني كائن الغابة في شيء أحبه! أو يلتهمني إن أنا قتلت أحدًا! أهذا ما أحسب حسابه؟ يا لي من أحمق، أليس من الأجدر أن أحسب حساب الخالق؟ بلى... ولكن معرفتي بأنه لا يقتل بريئًا لها دلالة ما، ربما هي غائبة عني الآن، لكنني متأكدًا من أن السِتار سينزاح عنها لأراها واضحة كتلك الشمس التي تنير الأرض.

لقد قطعوا مسافات طويلة ولا يزال أمامهما متسع من الأرض والوقت كي يتحدثا ما يكفي لسرد تاريخ مدينتهما مذ رحلا عن بلادهما الأولى، إلّا أنهما لم يتحدثا، فعلت الشمس فعلتها في وجهيهما، فكانا يلمعا بالعرق وأخذا في الاحمرار، ينظرا أمامها وتخرج منهما زفرات وتنهيدات وأنفاس متقطعة كأنهما يهرولان مترجلان دون خيول.

لاحت في الأفق معالم القرية، نخيل أمام المنازل ومساحات واسعة بين كل منزل وآخر، اقتربا أكثر فبدت الرؤية أوضح، إذ كانت المنازل متباعدة عن بعضها ومتواضعة في شكلها ولها نفس

التصميم تقريبًا، منازل فقيرة كحال سكانها والشوارع مقفرة لا يمر أحد ليسئلاه عن دار عبدالله، إذ كانت الشمس قد اتقدت والجو خانق، ظهر رجلًا أمام داره يضع أو يأخذ شيئًا ما من بين النخيل فتقدما نحوه وحين اقتربا اعتدل الرجل في وقفته ورنا جيدًا، حيث أحس بأنهما غريبين، بل تأكد من ذلك لأن سكان تلك القرية يعرفون بعضهم البعض جيدًا.

قال عمرو وهو يشد لجام الحصان ليتوقف على مقربة منه:

- كيف حالك يا أخي؟
- أحمد الله.
- ألا تدلنا على دار عبدالله بن أنوف؟
- أأنتما غريبين؟
- نعم.

تمهل الرجل وتفرسهما كأنه يحفظ ملامحهما قبل أن يشير بيده إلى إحدى الديار ويقول:

- هاك هي.

شكره عمرو ثم استدار بحصانه وبدأ يتحرك باتجاه الدار التي أشار إليها الرجل وتبعه رسلان، بينما ظل الرجل واقفًا يرمقهما ببصره، بيد أنه كان يشك في أمرهما.

صهلت خيولهما أمام باب الدار وهما يترجلان عنهما فخرج عبدالله على إثر سماع الصوت، كانت مفاجأة شديدة لكنه كان يتوقعها، حياهما بحفاوة مرحبًا بهما وهو يبتسم ويتقدمهما ويشير بيده أن تفضلا بعدما دلف لردهة واسعة كانت هي مدخل الدار ومكان استقبال الضيوف في آن. اطمأن الرجل بعدما فهم أنهما أصدقاء عبدالله ثم أكمل ما كان يفعله.

جلسوا على حصير مفروش على الرمال مستندين إلى الجدار الذي كان خشنًا، تطلع عمرو حواليه وتذكر داره، كان يظن أنه أفقر الرجال أو أزهدهم، لكنه وجد من هم أفقر منه وربما أزهد، خرج جاسر من غرفته بعد سماع أكثر من صوت في صحن الدار، لم يكن أقل مفاجأة

من والده، إذ رأى عمرو بن ميمون مستشار الحاكم يجلس مع والده بصحبة رجل آخر لا يعرفه، رحب بضيوفه ثم جلس.

قال عمرو وهو ينظر إلى جاسر ويشير إلى رسلان:

- هذا صديقي أبا حبيبة، من أشرف الرجال الذين عرفتهم وأكثرهم حرصًا على إقامة العدل.

حملق فيه رسلان، لم يكن من الضروري قول مثل هذه الكلمات، لكنه كان متأكدًا من أن عمرو أراد أن يجتر بها شيئًا ما. قال جاسر:

- لقد شاهدته في الحرب لكنني لم أتشرف بالحديث معه، مثلما لم أتحدث معك يا أبا عادل.

ابتسم عمرو وقال:

- لقد حدثني والدك عنك، ورأيت منك وفيك ما قاله. صمت برهة ثم أردف والآن أيها السيدان دعاني أطلعكما على سبب هذه الزيارة. قبل أي شيء، أنتما على دراية بما يحدث في الغابة أليس كذلك؟

قال عبدالله: نعم. وأومأ جاسر برأسه مؤكدًا.

فعاد عمرو يقول:

- حسنًا، إنَّ ذلك الكائن يهدد أمننا، ولقد أتتني امرأة شابة تشتكي فقدان زوجها، فإنها تعتقد بأن أحدهم قد قتله وألقى بجثمانه بداخل الغابة، وطلبت أن نبحث لها عنه. وإننا عزمنا الأمر على أن ندخل الغابة لنرى إن كان هناك أثر له ونضع حدًا لتهديدات الكائن، فلقد طالت فترة بقاؤه بيننا.

اختزل حديثه ليرى مدى تأثرهما به وخصيصًا جاسر الذي كانت تدل إيماءاته على أنه يريد أن يسمع المزيد.

لم يفهم رسلان لماذا يذكر عمرو قصة المرأة، فكان يحدق به مستغربًا منتظرًا أن توضح الأمور. حيث استطرد عمرو:

- أعلم أن الكائن لا يضركما فهو، كما اعتقد، لا يقرب أحدًا خارج حدود مدينتنا ولكنني أعتقد بأنكما لا يرضيكما ما يحدث. أليس كذلك؟

قال عبدالله وقد فهم ما يرمي عمرو إليه:

- إنَّ الأمر لا يرضي أحدًا عاقلًا يا أبا عادل، ومتى قررتم دخول الغابة؟

أجاب عمرو:

- عقب عودتنا للمدينة.

قال جاسر:

- لقد سمعنا كلامًا كثيرًا عن ذاك الكائن يا أبا عادل، أخاله شيئًا يحدث في الخيال فقط.

تحدث رسلان مستفسرًا:

- تقصد بأنك لا تصدق أنه موجود؟

أجاب جاسر:

- ليس الأمر هكذا، إنني أصدق بأنه موجود وذلك لأن الناس تحدثت كثيرًا حوله، ولكنني مندهشًا لوجوده من الأساس، ما هو؟ ما شكله؟ كيف خرج فجأة بعد مرور أعوامًا على إعماركم لتلك الأرض؟ وكيف يسكن رقعة من الأرضة مأهولة بالبشر؟

أعجب عمرو بحديث جاسر، إنَّ له نظرة مختلفة عن شعب مدينة الحكيم، إنه لشاب حيي، يكاد يقول: أنتما السبب في وجوده لتماديكم في الظلم لكنه يستحي.

قال عمرو:

- أراك متحمسًا لمعرفة ماهيته يا جاسر؟

- نعم يا أبا عادل... مذ سماعي به وأنا أود رؤيته.

نظر عمرو إلى رسلان وهو يقول بهدوء:

- هناك من رآه بالفعل.

جفل جاسر وقال مسرعًا:

- هل رآه أحد؟ كيف؟ من الذي رآه؟

قال رسلان:

- أنا الذي شاهدته يا جاسر، منذ بداية ظهوره، ولقد أخبرت الناس عنه وكذبونني إلّا القليل منهم.

بدا جاسر متشوقًا لمعرفة المزيد، إذ أن ملامحه كانت أكثر راحة وطمأنينة وقد سعد عمرو لذلك، فما أثاره من حديث حول الكائن مهد الطريق لما سيعرضه عليه.

قبل أن يجيب رسلان قال عمرو:

- الأمر ليس مزحة أو شيئًا يجد فيه المرء تسلية، إنه لخطر حقيقيًا لا نعرف كيفية الخلاص منه. ولذا حسمنا أمرنا على أن ندخل الغابة بنية القضاء عليه. وإننا نختار أقوى الرجال وأشجعهم لهذه المهمة، وأنت من بينهم يا جاسر.

صمت برهة قبل أن يضيف تحت نظرات عبدالله المضطربة وقبل أن يتكلم، إذ أنه كان يتهيأ للحديث:

- لسنا نجبرك على شيء، إننا نأمل أن تأتي معنا لأننا نعرف شهامتك، أتوافق أن تأتي معنا؟

نظر جاسر لوالده ليطلب منه الأذن فأومأ عبدالله برأسه موافقًا ثم قام بتكاسل واختفى داخل إحدى الغرف ثم خرج ثانية وعاد لمكانه.

كان قد ذهب لإخبار رقية زوجته بأن جاسر سوف يذهب مع الرجلين، لكنه لم يخبرها عن السبب الحقيقي وراء سفره، بل قال لها ولابنته أن مستشار الحاكم يريده أن يطارد معهم مجموعة من اللصوص في الصحراء، وبينما لم يسمع أحدًا خبرًا عن قاطع طريق أو لص يهدد

الناس منذ زمن فقد شكت في الأمر ولكنها اصطنعت الاقتناع لعلمها بأن عمرو رجل صالح ولن يضيعه.

بعدما تناولوا طعامًا أعدته رقية بمساعدة ميرام، خرج عمرو ورسلان بينما ولج جاسر لغرفته ليتجهز للرحلة.

_ ٣ _

مشقة معرفة الحقيقة

امتطى عمرو ورسلان صهوة حصانهما ووقفا ينتظرا خروج جاسر، كان الفضول يطل من عيني رسلان والدهشة ترتسم على محياه فانتهزها فرصة وكان لا يطيق الصبر ليكتشف بنفسه ومع الوقت ما يخطط له عمرو فقال بصوت خفيض:

- لا أفهمك يا أبا عادل.
- أعلم في ماذا تفكر.
- لماذا تريد من جاسر أن يأتي معنا ويدخل الغابة؟

نظر عمرو للأفق البعيد وقال:

- لكي أعرفه أكثر.
- لماذا؟
- قبل أن نتأكد من أنه باسل ونعلن هذا يجب أن نعرف ونتأكد من عدة أشياء. ومنها صفاته وتطلعاته، هل هو من نوعية الرجال الذين يقدسون السلطة أم من الزاهدين فيها؟ وأنه يفعل الخير لأنه خير وصواب وشيئًا ينفع البشرية أم لتمدحه الناس ويقولون عنه أنه شجاع ورجل شريف.

قال رسلان:

- وكيف ستعرف كل هذا؟ ولماذا؟ أقصد لأي غرض؟

تنهد عمرو ونظر إليه ثم قال:

- سنعرف أخلاقه من خلال معاشرتنا له وقربنا منه، ثم إن دخول الغابة كفيل لأن نعرف مدى شجاعته، فإنها حربًا مع مجهول وليست كالحرب التي خاضها معنا ضد جنود أيهم بن داغر. صمت قليلًا ثم أردف:
- تريد أن تعرف لماذا؟ فلتنتبه لما سأقله، إنَّ باسل هو الابن الأكبر لهذامًا رحمه الله ولأن الحكم أصبح شبه وراثيًا فإنه سيكون الأحق بالحكم من أخيه، قد تقول إن هذا كلامًا ليس منطقيًا لأن المغيرة هو الحاكم الحالي والفعلي للبلاد وأنه يحكم منذ عدة أعوام، أتفق معك تمامًا، لكن كيف سيقتنع باسل بهذا؟ قد يتلاعب أحدهم به ويملأ عقله بالضغينة تجاه أخيه بحجة أنه يريد مصلحته، يجب أن نحسب لهذا حسابًا. فإنك تعرف طبع المغيرة العصبي وشخصيته القيادية والمتغطرسة، فقد يتقاتلا فيما بينهما وتدخل المدينة في صراعات داخلية ويحدث مثلما حدث في بلادنا القديمة. ولهذا أود معرفة في ماذا يفكر قبل أن نتطرق للحديث حول شكوكنا حوله، ولا أريد أن نخبره بشيء ولا أن نعرف من عبدالله ورقية إن كان جاسر هو ابن هذام أم لا. حتى لو اضطررنا إلى إخفاء الأمر مدى الحياة بعد تأكدنا من أنه باسل حرصًا منا على اجتناب الفتن والمشكلات.

انقطع حديثهما حينما صدر عن باب الدار أزيزًا وخرج جاسر ومعه عبدالله، امتطى جاسر حصانه وقبل أن يتحركوا جاءت رقية بخطى حثيثة تحمل زوادة كبيرة تكفي لثلاثتهم تساعدها ميرام في حملها، أخذها منهما عبدالله ورفعها عاليًا ليمسك بها جاسر ويضعها أمامه، في تلك اللحظة كان عمرو ورسلان قد تحركا ووقفا على مسافة ليست ببعيدة ينتظرا أن ينهي جاسر حديثه مع عائلته وينهض بهما. لكزا حصانيهما حين أقبل عليهما جاسر وهو ينظر خلفه ويلوح بيده لأفراد أسرته.

تحركت خيولهم قرب الأصيل وكان الجو لا يزال حارًا والهواء يحمل نسمات ساخنة تزيدهم اختناق، لم يتحدثوا فكل انشغل عن غيره بما يدور في رأسه، كان جاسر يتوسطهما وينظر

أمامه على امتداد بصره، راح عمرو ينظر إليه خلسة، استبد به شعورًا جامحًا نحوه أراد على إثره أن يحكي له عن كل شيء، يقل له صراحة دفعة واحدة أنه يحيا حياة أخرى غير حياته، ينادي على غير والديه بوالديه ويتخذ من فتاة ليست بقريبته حتى أخت له، لكنه فكر وعقل الأمر، قال لنفسه: لا تزال شكوك يا عمرو، ومن الجائز أن عاطفة هذام الأبوية قد هيأت له ما يتمنى حدوثه، ويتضح لنا أننا كنا نتبع وهمًا فنصطدم بواقع حجري يجعلنا نستفيق من خيالاتنا، تمهل يا عمرو.

قطعوا مسافات طويلة وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب والهواء أصبح باردًا والجو لطيفًا، تناهت لأسماعهم أصوات عرفوها في الحال، إنها أصوات كائن الغابة ولكنها تأتيهم ضعيفة لبعدها عنهم، قال جاسر:

- كيف تقضون أيامكم وأصواته لا تهدأ ليل نهار؟!

رد عمرو:

- لأننا إعتدناها يا جاسر.

هز جاسر رأسه وهو يقول:

- والتعود يجعل حركة المرء آلية، يفعلها دونما تفكير.

أومأ عمرو برأسه وقال:

- ولا تنسى أن التجاهل درب من لا حيلة له، من ينظر للأشياء والأحداث من حوله فيراها أكبر منه فيتعمد تجاهلها بغرض نسيانها كي يتمكن من أن يحيا، إنَّ التركيز فيما يحدث حولنا قد يجمد المرء في مكانه ويشل حركته وتفكيره، ربما يحدث ويصاب المرء بالجنون جراء انتباهه الشديد والمبالغ فيه لكل ما يحدث من حوله، فكرة أن يحيا الإنسان غير مبالٍ بالحياة نفسها تضمن له أن يخرج منها بقلب ليس فيه أثر لجرح وعقل سليم يعمل، ولكنهم نادرون... نادرون من يتمتعون بتلك الموهبة، فاللامبالاة موهبة وأكثر المواهب التي تعود على المرء بالمنفعة.

كان رسلان يسمع باهتمام وهو يصدق على كلمات عمرو بهز رأسه، لكنه توقف عن هز رأسه عندما قال عمرو أن اللامبالاة موهبة تعود على المرء بالمنفعة، تعجب مما قاله فتحدث وقال:

- ولكن يا أبا عادل ليس كل مبالٍ شقي، وإنه لشعور يستطيب أن يهتم المرء لشؤونه وشؤون غيره فيشقى جراء ذلك، أن يعتريك شعورًا بالقلق أو الهم لأنك منشغلًا بأمور أهلك أو أي أحد عابر، أن تكون مشكلتهم مشكلتك تلك هي المروءة، الفضيلة التي تنقص أكثر البشر، لقد تسلطت الأنانية على الكثيرين وصارت تقودهم، تسحبهم بعيدًا عما مفترض عليهم أن يتقدموا نحوه. أتفق معك أن أغلب المبالون مهمومون، ولكنها هموم تريحهم من تأنيب الضمير، فسيكون همهم أكبر وأعظم إن تجاهلوا ثم أنبتهم ضمائرهم، أقسم لكما أن ذوي القلوب المرهفة والضمائر المستيقظة لن يستلذوا بالحياة إن عاشوها غير مبالين، إن عرفوا أن عزيزًا أو قريبًا مغتمًا وتجاهلوا الأمر.

يبدو أن الخروج من الدار والبعد عن المكان الذي نشأ وتربى فيه المرء يفيد كثيرًا وأن الحياة على نطاق ضيق إنما هي في أصلها موت. كان جاسر يحدث نفسه وهو يصغى باهتمام لما يقولاه وحرص على ألّا يقاطعهما كي يزيداه من الكلمات التي أحب سماعها. عرف أن لديهما الكثير فأراد أن يعرف بعضه، وإنَّ كلماته التي سيقولها أنما هو يعرفها جيدًا.

قال عمرو موجهًا حديثه لرسلان وهو يضيق عينيه كأنه يغمز بهما:

- معك حق يا أبا حبيبة، فإن ما حملني على رحلتي تلك وقرار دخول الغابة هو هم الناس، ولا أخفي عليك هذا، إني أجد في الأمر متعة خاصة، أن أقدم لأحدهم خدمة ما، أن أساعده في تحقيق سعادته، حتى وإن كانت سعادته ستكلفني الكثير، فهذا لن يزيدني إلا راحة وطمأنينة.

قال رسلان وهو يبتسم:

- تقصد راحة الضمير. فإن الإنسان السوي لا يحتمل الحياة مع عذابات قلبه وتأنيب ضميره.

رد عمرو:

- نعم نعم. وأحيانًا يقدم المرء على عمل ما بسبب وعد قطعه لأحدهم، أو لحبه الشديد له، فإن هذا الحب وتلك المعزة التي يكنها له قد تجعله يتجشم الكثير من أجله، وكلما احتمل مشقة أكثر كلما ارتاح واطمأنت دواخله.

أومأ رسلان برأسه موافقًا وفضل الصمت، فلقد أحس بأن عمرو يسترجع ذكريات تؤلمه، فلقد قرأ ذلك في التماعة عينيه التي بدتا وكأنهما ستدمعان وهو ينظر بهما لصفحة الصحراء التي لا تزال ممتدة أمامهم.

نظر عمرو إلى جاسر وأراد أن يجعله يشارك في الحديث، فإن كل كلمة سينطق بها ستكشف عن شخصيته، وطالما لن يطلعاه على السبب الحقيقي في صحبتهما له فإنه سيقول الحقيقة، سيتفوه بما في قلبه ولن ينافق أو يجامل ويتجمل. قال عمرو:

- ما رأيك يا جاسر في التجاهل؟

كان السؤال مفاجئًا لكنه لم يسبب مشكلة لجاسر حيث قال باقتضاب:

- التجاهل يكون مطلوبًا إذا لم يضر ولا يسبب ألما عكسيا، أي لو أنه بتجاهله لم يساعد في عذاب شخص كان يأمل في مساعدته. متى يكون التجاهل مطلوب؟ حينما يتجاهل المرء همومه هو، هذا يجعله لا يفكر كثيرًا فيحيا حياة طبيعية لا يشوبها حزن باد، بالتأكيد لن يتمكن المتجاهل من نسيان همه بالكلية، لكنه سينشغل عنه بالتجاهل، وذلك سيساعده في أن يمارس حياته بدون توقف، فإن التفكير في المشاكل يسبب ألما والألم قد يجعل المرء لا يفعل شيئًا غير أن يتألم، يتفرغ له فيشتكي ويتذمر. وعلى العكس، إن هدأ المرء سيفكر بروية وفي الغالب سيجد حلولًا لمشاكله.

رشقه عمرو بنظرات إعجاب وهو يبتسم ثم تباطأ بحصانه قليلًا ونظر إلى رسلان من خلف ظهر جاسر فوجده يبتسم وهو ينظر له ثم لكز حصانه ليحاذي جاسر من جديد.

_ ٤ _

جاسر

كان يفعل مثلما تعود والده أن يفعل عندما يكون منشغلًا بهم أو نحوه، يجلس أمام الدار ويفترش الرمال ويعبث بها بعصى صغيرة في يده فرأى أجسامًا تأتي من بعيد، أمعن النظر فعرف أنهم ثلاثة رجال، لم يهتم وظل جالس مكانه، نظر ثانيةً وقد اقتربوا أكثر وبدأت ملامحهم في الظهور فعرف والده ورسلان من ملابسهما، انتصب واقفًا واضعًا يديه على خصره وانتظر.

أقدم عليهم وهو يدقق النظر في أوسطهم فعرفه، أخذ بلجام حصان والده وساعده على النزول ثم عقل الحصان وحمد الله على سلامتهم وهو يمد يده إلى أبيه مصافحًا ثم إلى رسلان ثم إلى جاسر الذي احتضنه بقوة.

راح يحملق في الجدران والسقف والأثاث بعدما دلفوا للدار، لم يجد حصيرًا أو زرابيًا يفرش الأرض، بل رمال، لا أثر لغنى أو حتى شبحًا له، منزل فقير لا يختلف كثيرًا عن منزله، يقطنه مستشار الحاكم وزوجته وابنهما قائد الجيوش! تعجب جاسر وزاده ذلك إعجابًا بعائلة ميمون.

لم يطل غيابهما، لقد خرجا أول هذا النهار وها هما يعودان في آخره، ليست منشغلة بطول أو قصر الرحلة، بل إنَّ كل انشغالها قد انصب على ما كان في الرحلة، ما ذهب من أجله زوجها، تعلم أنه ينوي دخول الغابة وإن كان هذا سببًا كافيًا ليجعل قلبها يرتجف وعقلها لا ينقطع عن طرح الأسئلة، إلّا أن ذلك الشاب الذي رأته من النافذة حينما كان يصافح عادل جعلها تتلبط في أمرها، من يكون؟ ولماذا عادا به؟ أيكون له صلة بسفرهما لتلك القرية؟ يجب أن يكون كذلك. نفضت رأسها لتطرد عنها الأفكار ثم خرجت مبتسمة وهي تحمد الله على سلامتهم جميعًا وترحب بالضيف الشاب.

بعدما استراحوا من تعب الرحلة خرج عمرو من الدار وانطلق بحصانه صوب القلعة ليخبر الحاكم بأنهم سيدخلون الغابة ويأخذ موافقته على ذلك، لأن خطته لن تكتمل إلّا بعلم الحاكم، فإنه ينوي اصطحاب عددًا من الجنود معهم.

عاد ثانية وقد حصل على موافقته، جلسوا يتسامرون حتى أطبق الليل واستأذن رسلان وانصرف إلى داره وغط جميع من في دار ميمون في النوم، هنأ به بعضهم ولم يتمكن منه البعض الآخر ثم مرت الليلة على الجميع لتعبر بهم ليوم جديد لن يكون أقل شقاء مما سبقه.

ذرت الشمس، "ظهرت في أول شروقها" فخرج تحت أنظار سليمة عمرو وعادل وجاسر قاصدين دار رسلان، حيث كان اتفاقهم أن يمروا بداره بحكم أنه في طريقهم لينضم إليهم ثم يذهبوا إلى القلعة. هذا انتظار آخر لها، تأكدت سليمة من أن الحياة بأكملها عبارة عن انتظار طويل، والكيس من فهم هذا وأقره وعمل له، وإنَّ الإنسان منذ ولادته وهو ينتظر نهايته ويعلم بأنها آتية وليس بإمكانه فعل شيء يؤخرها، ما عليه فقط إلّا أن ينتظر. تململت في وقفتها حتى تواروا عن أنظارها ثم دلفت لدارها وهي تضرب ساقيها بيديها وتزم شفتيها.

***

ليس في وسعها فعل شيء، منذ أن أخبرهم عمرو بن ميمون بأنهم سيدخلون الغابة وهي ترتعد خوفًا، أيذهب إليه بقدميه؟ يدخل الغابة يبحث عن حتفه! منذ فقدها باسل واعتقادها بأن الكائن هو من اختطفه وهي تنظر للغابة على أنها قبر واسع ومظلم، لا تفيد مساحتها وكبرها بسبب الظلام الدامس فيها، وفيها كائنًا يعادي الآخرين ويهاجمهم، فكيف لا يقاتلهم وهم ذاهبون إليه ليقاتلوه؟ إنها تتأثر بمجرد ذكر الغابة وتبكي، عرفت أن الحديث معه لن يجدي نفعًا فلم تحدثه في الأمر، كل ما قالته: انتبه على حالك يا بني. ضحك المغيرة وقال: لا تقلقي يا أمي، فأنا الحاكم. كيف تقنعه بألّا يكن مغرورًا؟ وأن الغرور يجعل المرء أحمقًا يتصرف بحماقة. تركته يفعل ما يريده رغمًا عن إرادتها، فعناده لن يجعله يسمع لها فضلًا عن إجابتها.

***

لم تظهر له اهتمام وهي تروح وتجيء في الدار، تضع جرة ماء أو طعامًا أو تحمل شيئًا من أمامهم وتذهب به للمطبخ، ولكنه شغلها، مذ رأته يدلف للدار خلف عمرو وعادل ويستقبله والدها بترحيبه: أهلًا بك يا جاسر، أضأت الدار بقدومك. وهي تسأل من هو؟ من هذا الشاب الغريب الذي تراه لأول مرة؟ إنه يبدو مثل أولئك المحاربين الأقوياء ذوي البأس، ويبدو مثل أبطال القصص الرومانسية التي تصنعها في خيالها، كانت تتخيل شابًا مثله، شاب طويل وعريض، بملامح منحوتة لا تخلو من وسامة تتحول لملامح كالحة وقاسية حالما يتعلق الأمر بأهل داره، يغار عليها من الهواء الطائر، يظلها بجسده ويحميها من العالم، كانت ترص الصور في خيالها وتكوّن قصص وهي تقول: لا بد لكل إنسان أن يتخيل، فإن الخيال مجانيًا، لا يكلف المرء إلّا لحظات يتغيب فيها عن الواقع، ويبدو أن أجمل ما في الخيال هو أنه ينتشل المرء من عالمه وواقعه، ينسيه للحظات كلمة مستحيل، فيأخذ المرء يتخيل ويحلم بأجمل ما يتمنى، متناسيًا كل عوائق الدنيا التي تقف حائلًا بينه وبين ما يريده.

صحيح أنها لا ترى شبانًا يدلفون لدارهم غير عادل، وأن عادل تربى معها وتراه كأخ مثلما هي حاله، وهذا ما فكرت فيه، حيث كانت تحدث نفسها: بيد أن اهتمامي به لأنني لا أشاهد رجالًا بكثرة وعن كثب. لكنها تأكدت بعد ذلك من أن إحساسها به صادقًا وليس إعجابًا سريعًا سيتلاشى بخروجه من الدار واختفاءه عن ناظرها.

منذ الوهلة الأولى التي وقعت فيها عيناها عليه وشيئًا فيها قد تغير، مشاعر كانت كابية ومحترقة وبدأت في تجديد وإعادة تشكيل وبناء نفسها من جديد لتنضج وتثور وتحترق من جديد في دواخلها لتملأ قلبها نارًا ما هي إلا نار الحب، لم تكن ساعتها واثقة من أنه حب إلّا أنها أحبت شعورها نحوه وكرهته في آن، فعندما كرهته كان مرد ذلك لقلقها عليه لذهابه للغابة حيث عرفت ذلك من والدها في الليلة السابقة، حينما خشيت أن تفقده عرفت أنها تحبه، إنَّ الشعور الذي اعتمل في قلبها لمجرد فكرة أن تفقده ليس كشعورها بالفقد ذاته تجاه والدها، فإن

القلق الذي طوقها حينما تصورت بأنه لربما لا يعود ثانيةً جعل عيناها تترقرق بالدموع وهي في غرفتها.

خجلت حبيبة من نفسها وأفعالها ومشاعرها الغريبة المتهورة التي دفعتها للبكاء على شخص لا تعرف عنه غير اسمه فكفكفت دموعها وتمددت على سريرها تنتظر شيئًا ما لا تعرف ماهيته أو لماذا تنتظر ومع ذلك انتظرت. لكنها ستعرف فيما بعد لماذا تعلقت به هكذا من الوهلة الأولى.

_ ٥ _

دخول الغابة

امتطوا خيولهم وتحركوا صوب القلعة، لم تقل وجدان شيئًا وهي تسحب حبيبة من يدها لتولجا معًا من الباب، فلم تعد وقفتهما في الشارع ذات فائدة بعدما انطلقت الخيول نحو شيء مجهول، كائنًا تحدث زوجها عنه بكلمات وتشبيهات عجيبة، كان عزائها الوحيد وقتذاك أن زوجها لربما يكف عن تفكيره فيه، فإما يتخلصوا منه أو... توقفت عن التفكير حينما خطر ببالها أنها لربما تفقد زوجها فبكت، الآن بعدما تحطم الحاجز الذي وضعته أمام الخوف تبكي، ولم يكن ذلك الحاجز إلّا التفاؤل الذي تهشمت عظامه على صخرة الواقع، فالحقيقة التي كانت نصب عينيها أن هناك كائن يقطن الغابة وقد اختطف والتهم الكثيرين ولن يصعب عليه افتراس كل من يقترب من وكره. مثلها مثل سليمة وحبيبة وثريا، انتظرن شيئًا قد يحدث، لكنها كانت أكثر تشاؤم منهم، لمعرفتها الضئيلة بالحقيقة. أو لتوقعها حدوث السيء، وإن كانت تعلم الحقيقة كاملة لربما خانتاها قدماها لتسقط قتيلة.

***

أنهى قائد الجيوش اختياره لمجموعة الجنود الذين سيستعينوا بهم في اقتحام وكر كائن الغابة وقد كانوا ما يقارب الخمسين فارسًا، ثم نظمهم في خمسة صفوف وطلب من رسلان أن يقف أمام الصف الأول ومن والده أن يقف أمام الصف الثاني ووقف هو أمام الصف الرابع وتبعه جاسر أمام الخامس، وقد تركوا الصف الثالث الذي هو في المنتصف للحاكم الذي كان يتجهز للمهمة. حالما انتهى المغيرة من الاستعداد امتطى حصانه الذي أحضره راجح بن درغام الذي أمره المغيرة بالمكوث في القلعة. وهرول ليقف في المقدمة مثلما أراد عادل وقد سره ما فعله قائد

جيوشه. إنَّ الأمر هنا يتعلق بالمسائل العسكرية ولن يجادل عادل في شيء، وهذا كان من أهم أسباب انتصارهم على جيوش أيهم بن داغر، كل يهتم بعمله ولا يحشر أنفه في عمل غيره. خيم صمت على المكان فتناهت لسمعه طرقات مرتبكة من شقيقته بأناملها على إفريز الشرفة، ربما لم يسمعها أحد غيره، ومرد ذلك لتركيزه الشديد معها في كل إيماءة أو نظرة تصدر عنها، شعر أن طرقاتها تخترق عقله وقلبه فهَم بمغادرة القلعة قبل أن يصرخ فيها موبخًا ويأمرها أن تترك الشرفة وتختفي داخل غرفتها، ولو أمكن لسجنها داخل حجرتها وعين على بابها حارسان. نظر إلى عادل وأومأ برأسه وعلى الفور لوح عادل للجنود فاستعدوا، لكز الحاكم حصانه فتحرك على الفور وفعلوا مثله.

هرولت الخيول باتجاه الغابة تحمل رجالًا ذو قلوب مفعمة بالحماسة، طاقات تريد أن تتفجر في وجه الشر، كانوا يؤمنون أن كائن الغابة شر لا بد من استئصال شأفته، وكان إيمانهم بهذا نابعًا من قلوبهم وعن جهلهم، فلو كانوا يدركون ويتركون لعقولهم مجالًا للتفكير والتمييز لعرفوا أن الشر على الأرض يطلقه الإنسان، يولد منه ويموت على يديه.

وصلت الخيول للغابة وكان الوقت قد قارب على الظهيرة، كانت الأجواء حارة وخانقة برغم كثرة الأشجار. تحلقت الجنود حول الغابة ليطوقوها تطويقًا شاملًا بأمر من عادل، كان كل جندي يبعد عن الآخر مسافة كافية لرؤيته وسماعه إن هو ناداه، كانت فكرة عادل أن يحيقوا بالغابة من كل جهة كي لا يفر الكائن أو الشيء المجهول الذي يسكنها، لم يكن عادل قد رآه، فلم يجزم بعد أن شيئًا مثله موجودًا من الأساس، لكنه حسب نفسه في مهمة وعليه إتمامها فحسب.

أمسكوا جميعًا بأداة خشبية تطلق صفيرًا، كانت فكرة عمرو أن يحمل كل واحد منهم صافرة في يده، فإن شعر بشيء غريب أو خطر يقترب منه يضعها في فمه ويصفر بها على الفور ليهب الجميع لنجدته ويقبضوا على الكائن، يا لها من فكرة رائعة من صاحب عقل يعمل. قالها جاسر.

لكن رسلان لم يعلق على الأمر، اكتفى بتنفيذ ما قالوه بشرود شديد، هو الوحيد من بينهم الذي رآه ولا يعتقد بأن الصافرات ستجدي نفعًا معه، أو حتى سيوفهم، فكيف لحديد أن يخترق ويقتل ضوء؟!

اتفقوا أن يدخلوها من ثلاثة جهات، فصاحب عمرو جاسر ودلفا من جهة وأخذ عادل رسلان ودلف بصحبته من جهة ثانية، بينما صمم المغيرة أن يدخل وحده من جهة ثالثة، لم يجدر بالحاكم أن يهاب شيء، حتى وإن كان شيطانًا وليس مجرد كائن. هكذا قال وشجع نفسه ليظهر دأبة على الأمر ويبث الحماسة في قلوبهم.

منذ خروجهم والأصوات المنبعثة من الغابة لا تهدأ، نفس الأصوات المقززة التي ألفوها وعايشوها لسنين، لكنها في تلك اللحظة انقطعت ليحل محلها طنينًا خافتًا كذاك الذي دفع رسلان لأن يدخل الغابة بعد مقتل سلامة، خفق قلب رسلان فور سماعه صوت الطنين ذاته وزاده ذلك قلقًا، وأحس بأن الأمور ستسلك مسارًا خطرًا ولربما لا يخرج منهم أحدًا، فلقد حدث نفسه: لئن وُفقت في خروجي ليلتها فلا يدل ذلك على ذكاء وحرص مني، فلربما هو من أحضرني للغابة لأراه وهو من صرفني لأخبر الناس عنه، فليس من المعقول أن يكون خاطفًا ماهرًا ويعجز من أن يعرف كل شيء عن ضحاياه، وهذا الشعور بالاضطراب الذي يعتريني إنما هو تحذير منه لأبتعد وأطلب منهم الإبتعاد.

لم يكن لرسلان سلطة على أحد في تلك اللحظة ليطلب منه التراجع ولا حتى على نفسه، فلقد شرعوا فيما خططوا له وانتهى الأمر، فمنذ تفكيرهم في القضاء عليه وهم قد أدخلوا أنفسهم في حساباته وهو لن يوفر جهدًا في إيذائهم. كان رسلان مؤمنًا بذلك وقد استبد به خوف رهيب، فقد على إثره قدرته بالحكم على الأمور من نصابها الصحيح. وخصيصًا أن أفكاره حول الكائن كانت تتغير، فتارة يراه مخلصًا لهم من الفاسدين والظلم وتارة يراه هو الفساد والظلم ذاتهما، لم يُكَّون إلى الآن رأيًا سديدًا عنه يجعله يطمأن له أو يحذر منه.

دوى صوت الطنين في آذانهم، تتبعوه بحذر واستمروا في المسير خلفه، يتجاوزون أشجارًا ويصلون لغيرها ليعبروها وتأتي غيرها ولا يزال الصوت يحركهم، ظلوا يسيروا خلفه ويعتقدوا أنه يفر أمامهم ومنهم إلى أن أحسوا بأن مصدره توقف عن الحركة فغذوا الخطى نحوه ليجدوا أنفسهم في باحة واسعة خالية تلفها الأشجار السامقة ذات الأغصان الضخمة والأوراق الكثيفة من كل جانب وتملأ أرضها أحراش وأعشاب خضراء ويابسة وكائنات صغيرة تهرول هنا وهناك وحشرات وزواحف تتحرك متخفية تحت الأوراق، تتطلعوا لبعضهم في ذهول، شعروا بأن شيئًا هو من فعل ذلك بهم، استدرجهم خلفه ليجمعهم هنا لغرض ما، فلقد وصلوا لنقطة واحدة قال رسلان عنها: أظن أنها منتصف الغابة.

تراصوا بجوار بعضهم متحاذيين متأهبين وفي قبضتهم الصافرات مستعدون لأن يضعوها في أفواههم في أي لحظة يرون فيها شيئًا غريبًا، لكن إلى الآن لم يحدث شيئًا يضطرهم لفعل ذلك. اتقدت الشمس وصارت عمودية تغلي فوق رؤوسهم واستبد بالجو قيظًا على قيظ جعل العرق يتفصد من وجوههم، ثم فجأة هبت رياح قوية اعتقدوا بأنها سوف تجتث الأشجار من أماكنها وجعلت أوراق الأشجار اليابسة تتطاير كأنها تتبارى مع بعضها. وكانت رياح باردة بدلت حرارة المكان لبرودة لاذعة، شعروا على إثرها بارتجافة تسري في أطرافهم وخُيل إليهم أن السماء قد تلبدت بالغيوم وتحولت من باسقة إلى قاتمة، أين ذهبت السحابة البيضاء الصافية لا أحد يدري، توجسوا خيفة ولم يضع أحدًا منهم الصافرة في فمه، فليس ثمة ما يستدعي ذلك بحسب اعتقادهم، فإنها مجرد اضطرابات في الجو.

وبينما هم متسمرون في الباحة التي وجدوا أنفسهم فيها، إذ بالنور يختفي وكأن لا شمس سطعت في ذلك اليوم ولا حميت واتقدت فوق رؤوسهم، تلاشى الضياء ليحل محله ظلام حالك لا يتمكن الواحد منهم من رؤية كف يده وإن اجتهد في ذلك فضلًا عن رؤية الآخرين، مد كل واحد يده للقريب منه وقبض على يده وفي تلك اللحظة بعينها لم يتذكر أحد الصافرة، جل ما علق في أذهانهم وقتذاك هو سؤال واحد: ما الذي يحدث؟

فجأة انطلق ضوءًا أخضرًا من جهة اليمين ليقطع منتصف الباحة أمامهم ببضعة مترات ليصل للجهة الأخرى بمثل ضوء البرق سرعة، لم يتأكدوا إن كان ضوءًا أو كائنًا من فرط سرعته، ثم عاد للمنطقة التي خرج منها ثانية واختفى. برغم ارتعاشة أوصالهم وأسنانهم التي تصطك داهمهم شعورًا قويًا بأن نارًا تلتهمهم، مثل سخونة جسد المحموم التي تمتزج بإحساسه بالبرودة.

سيتذكر عمرو ما حدث بعد ذلك بدهشة، فما الذي دفعهم للخلف في نفس اللحظة؟ فبعدما مرق الضوء الأخضر من أمام أعينهم وعاد لمكانه واختفى دفعتهم قوى عجيبة للوراء، قوة غير مرئية زحزحتهم، فإذ بكل واحد منهم يصطدم بشجرة ضخمة بظهره بقوة، ما أثارت دهشتهم هي المفاجأة وليست قوة الاصطدام، من أين أتت الأشجار؟ فحينما دلفوا للباحة لم يكن هناك أثر لشجرة فيها.

تقطعت أنفاسهم وأخذوا يلهثون بقوة في صمت، سعى كل فرد فيهم في أن يظهر جلدة على الأمر برغم أن لا أحد يرى الآخر ولا يرى ذاته. ما حدث بعد ذلك جعلهم يتسمرون ولا يحركوا ساكنًا، إذ لفت أجسادهم حبالًا غليظة كبلتهم ومنعت وصول آياديهم إلى أفواههم عندما أرادوا التصفير، خيم سكون على المكان، هدأت الرياح وبدأوا يسمعون أنفاسهم المتسارعة ثم حافظوا على هدوئهم فما عادوا يسمعون حتى أنفاسهم، بيد أن ما دفعهم لذلك شعورهم بالحرج، ضبطوا حركة أنفاسهم كي لا يبدون خائفون.

طالت فترة تكبيلهم فطلت العبرات من عيونهم ثم انحدرت ببطئ، لم يتمكنوا من السيطرة عليها كالأنفاس، مع إن صوت البكاء لم ينتج عنهم إلّا أن الدموع خرجت من عيونهم، أبت أن تظل قابعة في مقلاتهم فتحرقها، ففي خروجها تبرد المقلات ويعلن القلب عن ضعفه، فمهما حاول المرء أن يسجنها مستعينًا بكلمات مشجعة ينافق بها نفسه فلن يستطع فرض سيطرته عليها، فأقوى الأقوياء يبكي.

غطت الدموع وجوههم وفي تلك اللحظة تمنى كل فرد منهم لو أن تظل الأجواء هكذا، مظلمة حتى لا يرونه الآخرون، فقد كان ظن كل منهم أنه هو الذي يبكي وحده، هو من جبن

وضعف وحده فبكى بكاء صامت مدمع، جاءت اللحظة التي كانت فرائسهم ترتعد منها، انقشع الظلام وعاد الضياء للمكان، ظهرت شمس السماء فيها ونشرت أشعتها الملتهبة في أرجاء المكان ودبت في أجسادهم صحوة فنظروا لبعضهم. في تلك اللحظة وخلال النظرة المستكينة كرهوا الضياء، شاهدوا وشهدوا على ضعفهم، تساووا في جبنهم وقلة حيلتهم، من يجلس على كرسي الحكم كمن يجلس على حصير من خوص النخيل كمن يفترش الرمال، رأوا وجوهًا عابسة تلتمع بحرارة الشمس والدموع، لم يتحدث أحد وكأنهم فقدوا القدرة على النطق وتحدث هو فنظروا لمصدر الصوت فلم يجدوا شيئًا يحدثهم، انقطع صوته وأطبق الصمت ثم خرج من جهة أخرى فجفلوا ونظروا ولم يجدوا محدثهم، كان صوت أجش تعرفوا عليه من أول وهلة، صاحب جملة "أنت السبب في هلاكك" لكن حروفه كانت مبهمة، حتى أنهم ظنوا أنها لغة لا يعرفونها لأنهم لم يستدلوا على كلمات يفهموا معناها، ثم بدأت الحروف توضح شيئًا فشيئًا إلى أن تناهى لسمعهم صوته بوضوح شديد، بنفس الصوت الأجش الذي يظنوه مجموعة تتحدث قال:

- انظروا لحالكم.

أمهلهم لحظات تتبعت فيها أعينهم مصدر الصوت وتتطلعت إلى بعضهم، تعجبوا بشدة ودارت أعينهم في كل مكان لأن الصوت كان يأتيهم من كل جهة.

استطرد يقول:

- أين جبروتكم وتعنتكم؟ إن كنتم تظنون أنكم أقوياء فلتنظروا لحالكم ولتعرفوا حجم قدركم، أنتم لاشيء على الأرض وتعتقدون أنكم كل شيء، مُنحتم فرصة للحياة عليها فتصورتم أنكم ملكتموها أو أنكم من صنعتوها، توهمتم أنها لكم ومن حقكم، بدأتم تتملكون أجزاء منها، تارة بوضع أيديكم عليها بالقوة وتارة بالوراثة وتارة بالتحايل، مستخدمين أوراق تحفظ لكم حقكم فيها. إبتدعتم الظلم والكذب والغش وتقاتلتم فيما بينكم من غباءكم، أليس من تجورون عليه بشري مثلكم من بني جنسكم؟

ألم تتخيلوا أنفسكم مكانه؟ ماذا لو أنكم المظلومين؟ ألن تشعروا تجاه الظالمون بالبغض والمعاداة؟ اخجلوا من ذواتكم، فإن صوركم مشوهة في عيون من تظلمونهم، أتروقكم تلك الصورة المشوهة التي لا تظهركم إلا مسوخًا قذرة؟ ثم ما الذي أتى بكم إلى هنا الآن؟ لتتخلصوا من الظلم؟ أم ليسترح الظالمون منكم في ديارهم ويأمنوا عقابي؟ تسعون للخلاص من الشر كما تزعمون وأنتم منبعه وأصله، إنني لم أظلم أحدًا ولم أكن يومًا شريرًا، فأجدر بكم أن تبحثوا جيدًا وتتوصلوا لأساس الشر وتجتثوه من جذوره كي لا ينبت ثانيةً. إنكم لأنتم الظالمون وليس أنا، تظلمون أنفسكم قبل غيركم بتطلعاتكم الجشعة وترك المركب الشراعي لهواء غرائزكم تدفعكم أمامها كما تريد، إنكم منكبون على أنوفكم تحت أقدام الشهوات تاركين لها حق التصرف ومفاتيح القيادة.

سكت قليلًا حينما نكسوا رؤوسهم ثم عاد يقول:

- تظنون أني ظالم وخطر يهدد أمنكم وأمانكم؟ لا لست ظالما مثلكم وأنتم من تسببتم في ظهوري بتماديكم في الظلم، فكان البذرة التي أخرجتني من باطن الأرض وصار غذائي الذي أنمو عليه، لكنني أختلف عنكم، فإن لي قدرة كبيرة على السيطرة على شهواتي، فإن شعرت يومًا بالجوع كما هي حالي الآن فلن أظلم وأفترس شخصًا ليس ظالما، لا ألتهم إلا الظالمون القتلة، أما عن الظلم الآخر والآثام فاكتفي بتحذيرات لهم، أتعلمون لماذا أحذرهم؟ ومع إن ذلك ليس من مصلحتي، فإن كفوا عن الظلم لن أجد ما أعتاش عليه وسأموت. سأخبركم الآن لماذا أحذرهم... لأني أكره التهامهم، أشمأز من دمائهم الملوثة بالظلم، لولا أن تلك طبيعة تكويني ما كنت اقتربت من أجسادهم، كما أنني أمهلهم فرصة ليستفيقوا ويكفوا عن ارتكاب الآثام ويجتنبوا الظلم.

ضعوا أنفسكم مكاني وسترون أنكم لن تستطيعوا الصبر على الجوع كما هي حالي الآن. نعم إنني الآن أتمزق جوعًا، ولكن لا تخشوني، لا يحق لكم أن تخافوا مني... لن ألتهمكم أتعرفون لماذا؟ لأني لست ظالما. فأهون عليَّ أن أموت جوعًا على أن أظلم.

إني أكره حياتي هذه وأتمنى الخلاص منها ولكنني أعلم أن ليس لي الحق في إنهائها، ولم أكن يومًا جبانًا أو أحمقًا لأنهيها بالانتحار كما تفعلون، لن أهرب مما كتب علي، لن أخشى مواجهة حقيقتي. فإن أردتم القضاء عليَّ فلتستأصلوا شأفة الشر من الوجود، فلتقتلوا الظلم وتدفنوه تحت الأرض وتدوسوا عليه بأقدامكم، غير ذلك فسأظل حيًا.

توقف صوته وهم مطرقين الرؤوس فرفعوها ببطء علهم يرون تغييرًا ما قد حدث فلم يجدوا، لا تزال الشمس تضرب رؤوسهم والأجواء حارة وخانقة وهم مكبلين وضعفاء، حتى أنهم كانوا أضعف من أن يبعدوا الذباب والحشرات الطائرة والزاحفة عنهم. نازعهم إحساسًا بالندم على أنهم دلفوا للغابة وتمنوا لو أن شيئًا يخرجهم منها فعندها عاد الصوت الأجش يرن في آذانهم فقال:

- أقسم لكم بأغلظ الأيمان إنكم لتنسون ذلك، إن تمكن أحد منكم من الهروب الآن من قبضتي ووعدني وأقسم على ألّا يعد إلى هنا ثانية بنية الخلاص مني لعاد، إنكم نسايون بطبعكم وتوعدون وتخلفون وعودكم وتقودكم رغبات وأطماع، انتظروا... كي لا أكون ظالما وإنني أكره الظلم مثلما أنتم تحبون ذواتكم، ليس جميع بني جنسكم يخونون الوعود وينكرون المعروف، كما أن فيكم أناسًا يحبون العدل وحريصون على إقامته.

خيم السكون على المكان وخفت حرارة الشمس ولفحت وجوههم نسمات باردة فاستنشقوها والتقطوا أنفاسهم وعندئذ فُكت الحبال التي تقيدهم وبدأت في الدوران إلى العكس حتى سقطت على الأرض لتحررهم، تقدموا خطوة إلى الأمام ومطوا أجسادهم بشكل لا إرادي لطول وقفتهم على وضع واحد ونظروا للصافرات التي لا تزال في آياديهم وأسقطوها على الأرض بطريقة تؤكد استغنائهم عنها. تأكدوا من أن ما كان يسيطر عليهم اقوى منهم، وحتى المحاولة ليست لها أدنى فائدة، فليخرجوا بهدوء أفضل لهم.

بدأوا في المسير وتوقفوا ثانيةً عندما سمعوا الصوت ذاته يقول مخاطبًا رسلان:

- لم أكن غافلًا عنك يا رسلان في تلك الليلة، فلقد صدق إحساسك، إنني من دعوتك إليَّ وإنني من تركتك تذهب بإرادتي، لكنك أخطأت في بعض تحليلاتك، لم يكن تقديرك للموقف مثاليًا ولم يروق لي، لم أظلم أحدًا كما اتهمتني بين نفسك وحقدت عليَّ. وإن كنت اخترتك ليلتها لتشهد على ظهوري وتخبر عني الناس فلأنك كنت مفعمًا بحماسة وشجاعة، كنت تبحث عن الحقيقة لتقيم العدل، حبك لسلامة جعلك مهموم تفكر وتسأل من الذي اغتاله، فكان حبك له دافعًا لإظهار الحقيقة وتحقيق العدل، وإن كانت نيتك وقتها مغايرة وسعيك وراء إبراز الحقيقة بغرض حبك للخير وللإنسانية فلربما وُفقت في ذلك، إلّا أن ما كان يحركك هو بحثك عن شيء تعتقد أنه حقك، فإنك تصورت أن من حقك أن تعرف من الذي قتل والد زوجتك وصديقك لترتاح روحك وروحه في قبره.

صمت برهة وهم واقفون ثم أردف:

- نصيحتي لكم جميعًا، فلتكن نيتكم في فعل الخير لصالح خالقكم، للإنسانية أجمع، لكوكب لا يعرف الشر والحروب كي يتحقق لكم ما تريدوه وتحيوا في سلام منعمين بالأمان.

***

ساروا وراء بعضهم مطرقوا الرؤوس وحالما كان يُحجب أحدهم عن الآخرين بفعل الأشجار كان يسرع ويمسح دموعه عن عينيه ووجهه بكفيه، توقفوا ثانيةً عندما لمح عمرو هيكلًا عظميًا لإنسان بجوار شجرة كبيرة، كانت تطوق عظام رقبته سلسلة تبدو من الفضة تحمل تميمة. لم يتوقفوا عنده طويلًا وساروا نحو المخرج حتى أصبحوا خارج الغابة.

لم يكن في وسعهم الحديث فأومأ عادل لأقرب جنديًا أن اجمع الباقين فنفذ وخلال دقائق كانوا قد تجمعوا في خمسة صفوف كما جاءوا، اقترب عمرو من أحدهم وسأله:

- هل أحسست بأن شيئًا غريبًا يحدث؟

قال الجندي: لا. فقال له:

- ألم ترى ضبابًا في السماء وتشعر برياح قوية وأن الشمس تختفي ليختفي معها الضوء وأن الجو يتبدل فجأة من صيف إلى شتاء ثم من شتاء إلى صيف؟

أومأ الجندي وهو يقطب جبينه ويزوي ما بين حاجبيه بدهشة أن لا، تنهد عمرو وامتطى حصانه مثلما فعل الآخرون وعادوا أدراجهم.

الفصل الثامن

ـ ١ ـ

حول الكائن

سارت خيولهم ببطء كما هي حال أنفاسهم العميقة، فقد أُجهدوا وخارت قواهم في لاشيء يذكر، كيف يشرحون للناس ما صار؟ حتى هم، أنفسهم، جاهدوا ليفهموا شيئًا ولم يستطيعوا إلى الفهم سبيلا. صاروا صامتين ومنهكين وقد فترت حماستهم التي كانت قد جاءوا بها، سلموا بما حدث وقفلوا عائدين صفر الآيادي دونما تحقيق مبتغى أو هدف مقنع.

تفرقوا في الطريق ليقود المغيرة الجنود ويذهب بهم إلى القلعة ويذهب عمرو وعادل وجاسر ورسلان إلى دار الأخير حيث كانت هي الأقرب وهم متعبون.

تذكر عمرو وهو مغمض العينين وجالسًا على حصير في دار رسلان تلك الدفعة العجيبة والقوية التي جعلتهم يتزحزحون للخلف رغمًا عن إرادتهم وهم في الباحة، وتسائل: ماذا يكون ذلك الكائن؟ فلم نرى إلّا ضوءًا أخضرًا، لمَّ لم يظهر لنا لنراه؟ أومًا برأسه حينما اعتقد أنه توصل لإجابة، فقد اعتقد بأنه يخشى عليهم من الصدمة إن هم رأوه، طالما هو حريصًا هكذا على ألّا يظلم فيجب أن يكون مرهفًا أيضًا وعاطفيًا فلم يرض أن يظهر لهم بهيئته فتصيبهم فاجعة بسببه.

بينما كان رسلان يفكر بعينيه المفتوحتين على وسعهما والتان لم يكن يرى بهما سوى الكائن في تلك الليلة التي رآه فيها. وراح يحدث نفسه وشعورًا بالخجل يخالجه: إنني يجب أن أخجل من نفسي وأبغض أفكاري، فقد ظلمت ذاك الكائن واتهمته بالكثير بينما اتضح أنه أعلى وأرفع من كل شك قد يحاول أن يرقى إليه، إنه لمعلم لنا، هذا إن كنا مستعدون لأن نتعلم.

قطع رسلان خيط أفكاره وكف عن أسئلته وقال مخاطبًا عمرو:

- أسمعت يا أبا عادل؟ قال أنه لم يظلم أحدًا... نعم لقد أكد على ذلك، معناه أن... سأقل لك فيما بعد، ما فهمته أن جميع من التهمهم كانوا حقًا ظالمون، قد تلوثت آياديهم بالدماء.

فهم عمرو ما يرمي إليه رسلان فنظر إلى جاسر وابتسم وكان قد استرد أنفاسه فقال بهدوء:

- ما يثير اهتمامي حقًا هو أن الكائن ذو مبادئ! كأنما يسلك دربًا خطرًا تهاجمه فيه اللصوص والكائنات المفترسة وكل الشرور وهو يتمسك بأخلاقه الحميدة ولا يؤذي حتى من يريدون أذيته!

قال جاسر:

- هل بإمكانك أن توضح أكثر يا أبا عادل؟

أجاب عمرو وهو يهز رأسه:

- إنكم تسمعون أصواته الآن، تبدو عالية كأنها صراخ، مثل طفل يبكي من شدة جوعه، يبدو لي أنه يلتهم نفسه من فرط جوعه، لا أفسر أصواته هذه إلّا بذلك. وبرغم ذلك، لم يلتهمنا، يقول أنه لا يلتهم إلّا الظالمون! كما قلت يا رسلان: ألهذا الحد هو شريفًا وثابتًا على مبدءه؟!

شرد جاسر بذهنه ولم يجيب. وكان رسلان ينظر من النافذة المواجهة له والمشرعة على الغابة البعيدة ويفكر. خيم السكون على المكان إلى أن أزاحه عادل حينما قال:

- وكيف نعلم إن كانت أصواته جوعًا أو شيئًا آخر؟ وهل أن ما يأكله يكفيه ليوم أو لشهر؟ أو إن كان يشعر بالجوع من الأساس؟ فإن ما شاهدناه منه اليوم يفوق الخيال، فلا أعتقد بأنه سيعجز عن إخماد شعورًا يداهمه مثل الجوع.

كانت حبيبة تستند إلى باب الردهة، تختفي برهة في المطبخ تساعد والدتها في إعداد الطعام ثم تعود ثانية تستمع بإنصات وتنظر خلسة إلى جاسر. ووجدان تتحرك في المطبخ بطريقة اعتيادية

لكنها حريصة على ألّا تفوتها كلمة مما تقُال في صحن الدار. وعندما لم تسمع أحدًا يتحدث صاحت من مكانها كي تزيدهم إيضاحًا للأمور، فإنهم يتسائلون فيما بينهم ولم يحكي أحدًا ماذا حدث، قالت:

- ماذا حدث؟

أصغت جيدًا فلم تسمع شيئًا فخرجت لتجد أجسادًا مهدودة تجلس ممدة الأقدام ووجوهًا شاحبة وعيون مفتوحة نصف فتحة فعادت لمكانها في صحبة الأواني وهي تمط شفتيها وترفع كتفيها علامة الدهشة.

طُرق الباب فأسرعت حبيبة تمشي بخطوات حثيثة لتفتح فنظروا للقادم فكانت المرأة التي تشكو فقدان زوجها.

حينما دلفت وراء حبيبة وقبل أن تتحدث بادرها عمرو الذي اعتدل في جلسته وقلده الآخرون بهذا السؤال:

- زوجك كان يحمل تميمة؟

تفاجئت المرأة، إذ أن السؤال كان مباغتًا وأجابت وهي تزدرد ريقها، حيث توقعت سماع أخبار لا تحب سماعها:

- نعم.

صمتت لثوان قبل أن تزدرد لعابها ثانية وأردفت:

- يحمل تميمة متصلة بسلسة من الفضة حول عنقه.

صمتت وانتظرت نزول الصاعقة وحينما تنهد عمرو عرفت ما سيقوله، نظر عمرو للمتواجدين ثم لها وقال:

- أعانكِ الله على الصبر على المصائب... وإنَّ مصابك مهما عظم، سيتضائل بإيمانك، احتسبي يا ابنتي واصبري، لعل الله يعوضك خيرًا أو يغفر لكِ ذنبًا.

بعدما غادرت المرأة باكية وهي تحمل طفلها على ذراعيها كانت وجدان وحبيبة قد أنهتا إعداد الطعام، أكلوا وشربوا واستراحوا بما فيه الكفاية. وارتأى لعمرو أن يكمل ما قد بدأه، إنَّ رسلان كان يريد أن يقول حينما حجم عن الحديث أن الكائن لم يلتهم باسل، فإذًا شكوك هذامًا في محلها، سأل نفسه كيف سأتكد؟ هل أذهب معه لعبدالله ورقية وأواجههما بما أعرف أم أنتظر ريثما ينكشف رداء الكذب الذي يغطي الحقيقة؟ تُرى ما دفعهم لفعل ذلك؟ ارتأى له أن يتعرف على جاسر أكتر ويثبر أغواره كيفما يتفق له عله يعرف شيئًا عن عريكته وطويته فقال مخاطبًا الجميع كي يستفز بذلك جاسر فيتحدث:

- لماذا نحمل أنفسنا فوق طاقاتها؟ إنّ الكائن ليس خطرًا علينا مادمنا نسير بين الناس بالعدل، كما أنه يحقق لنا العدل... عدلًا لا نبذل جهدًا لنيله، يقتص من الظالمين على طريقته، فلندعه يقم بما يحلو له مادام في صالحنا.

يعلم رسلان أن هذه ليست أفكار عمرو ففهم مقصده منها وحجم عن الحديث.

وعندما أراد عادل أن يتحدث حجم عنه هو الآخر عندما أومأ إليه رسلان بغمزة من عينه أن اصمت، ولم تكن حبيبة في حالة تسمح لها بقول شيء، إذ أنها صرفت جل اهتمامها بجاسر. إنما وجدان لم تكن تستطع أن تحبس كلمة في فمها فقالت:

- معك حق، فلتنسوا أمره كي ينسى أمرنا... إنَّ من يحق لهم الخوف هم المذنبون وليس نحن.

انتظر جاسر حتى أتمت وجدان حديثها وصمتت فقال باندفاع:

- عذرًا يا أبا عادل، لا أتفق معك فيما قلته، ليست بتلك الطريقة يعود الحق لأصحابه، ليس بقتل القاتل وحسب، يجب أن يعرف الناس من الظالم ومن المظلوم. وما الجرم الذى أُرتكب؟ وإن كان ثمة أمل من إصلاح الأمور فلنصلحها قدر المستطاع، فبإمكان المذنب أن يتوب ويعود إليه صوابه وينال عقابه بطريقتنا نحن وليس طريقة كائن الغابة. فمهما كان حجم الجرم الذي ارتكبه فإنه يبقى بشر وليس معصومًا من الخطأ. كما

أنه لا بد له من عائلة خلفه يعولها أو تنشغل عنه حين يغيب، وغيابه بتلك الطريقة أمرًا يصعب على المرء تقبله. يغيب هكذا! فجأة! دون أن يرتب لمن هم خلفه حالهم أو يخبرهم بما يضمره في نفسه! فإن أغلب البشر إن هم أقبلوا على مقصلة الإعدام يكن لديهم ما يقولونه، تكن شهيتهم مفتوحة على الحديث، فإمكانه مثلًا أن يصفح أو يطلب الصفح ممن أخطأ في حقهم. وعند ذلك وأقسم لكم، سينال ما يسعى إليه، فليس عاقلًا من يتوسل إليه رجل مشرفًا على الموت ولا يغفر له.

تهللت أسارير عمرو وكاد أن يصفق له لكنه عدل عن ذلك وقال ليستزيده حديثًا:

- معك حق... حقيقة أتفق معك، لكن العدل يتحقق دونما أن نشغل بالنا، فلماذا لا نتركه يحققه لنا؟!

أسرع جاسر يقول باندفاع أكبر وقد تحمرت وجنتاه:

- إن لم نحقق نحن العدل فلا نستحقه... لو لم نعمل جاهدين على الإصلاح فلن تنصلح الأمور وتتهيأ مثلما نشاء، لن ينزل الله معجزاته على أقوام كسالى عاقدين آياديهم على صدورهم يتفرجون على ما يحدث لهم بلا مبالاة وخمول منتظرين أيدي الخالق أن تغير. لا يا أبا عادل... لا يا أيها السادة، فإنني لا أقبل بوضع أحلم به ويحققه لي أحد غيري، لا أقبل بشيء لم أتعب في الحصول عليه. إنَّ كل حدث في نظري له تفسير، له سبب، فيجب أن أعطي حتى آخذ... حتى إنَّ الهدايا عندي لها سبب، فإنني أعطي حبًا لآخذها، فليس من المعقول أن يهاديني شخصًا ما بهدية وهو يكرهني! إلّا إن كان منافقًا، وهذا لن أعرفه ولكن الله سيغفر لي جهلي وسأجد لنفسي مبررًا لقبول هديته. فسأقول لنفسي حينما تعاتبني، لم أكن أعلم أنه كذلك وستغفر لي.

بعد الذي قاله جاسر لم يستطع عمرو أن يمنع يديه من التصفيق وعاد يقول له:

- أحسنت يا جاسر... قل لي، ما الذي تكنه في نفسك تجاه الإنسانية... أو فلتنسى ذلك، لماذا أنت مهتم هكذا بقضيتي الإصلاح والعدل؟

قال جاسر باقتضاب بعدما أخذ نفسًا عميقًا وقد بدا عليه الشحوب:

- إنكم لا تعرفون إلّا أقل القليل عن حياتي... تربيتي كانت في الصحراء وكانت قاسية، لقد عانيت كثيرًا ولمست معاناة أسرتي ومن هم حولي من الجيران، فليس ثمة حياة مريحة في الصحراء، كما أنني في بعض الأحيان... وهذا أقوله للمرة الأولى، كان ينتابني شعورًا بالغربة، أقسم لكم... هناك لحظات مرت بي أحسست فيها بأنني غريبًا في منطقتي وداري، بل في وسط أهلي، وذلك عندما كان والدايّ يتحدثان في أمور أشعر أنها خاصة جدًا بهما ولن يطلعا أحد عليها مهما حاول، وكان شعوري نحوهما في تلكما اللحظات يتذبذب. دعكم من هذا كله... إنَّ الذي يجب أن يقال ونشر بآيادينا إليه، أنه لا بد لمن عانى أن يشعر بمعاناة الآخرين، يجب أن يتألم لألمهم، فليس إنسانًا – وذلك من وجهي نظري– من يعرف أن إنسان مثله يتعذب ولا يرثى لحاله، لا يتعذب لعذابه، لا ينفطر قلبه حزنًا عليه.

صمت جاسر وبدا وجهه أكثر شحوبًا كأنه لم يذق طعامًا منذ أسابيع. واغرورقت عيون الحاضرون بالدموع.

أخذت حبيبه تحدق إليه، الآن فقط تمكنت من الفهم، عرفت لماذا تعلقت به لحظة التقاء عيونهما، فبدا لها الأمر وفسرته على أنها شفقة أكثر من أن يكون حب، هو حب. وتأكدت من ذلك؛ إنما حب سببه الشفقة، ربما الألم البادي في عينيه هو سر انجذابها له، تلك اللمعة التي تمزق نياط قلبها وراءها الكثير، ربما هو ذاته جاهل به، لكونه تحدث قبل قليل عما يجيش في صدره دون أن يشير بالضرورة إلى ما يعذبه بالتحديد.

تمتمت لنفسها بعدما تركتهم ودلفت إلى غرفتها كي لا ينفضح أمرها: رُب ألم يجمع بين قلبين حزينين فيتسبب لهما في السعادة طول العمر. فإنَّ ما يسبب الحزن للرجل والمرأة أكثر من أي

شيء هي الخيانة. ولعلمهما بأنها تدمي القلوب ولمعرفتهما بألم القلوب والأرواح فلن يقدما على عمل يعرفان بأنه يسبب ألم. سوف يسعان جاهدان لبث السعادة في قلبيهما. إنه الألم، وحده الألم هو ما يستحق أن ننشغل به وننظر لصاحبه ونرثى لحاله. تمامًا مثلما قال جاسر.

_ ٢ _

ماذا لو كان هو باسل؟

برغم ما سببته كلمات جاسر من حزن في قلب عمرو بن ميمون إلّا أنه كان سعيدًا، فإنه قال كلمات أو وصف شعورًا يؤكد صدق شكوكه نحوه، ما قاله عن شعوره تجاه عبدالله ورقية ينفي تمامًا أي صلة له بهما. لقد تهيأ لأن يذهب لعبدالله ورقية ويواجههما. ولكن تبقى واحدة، معرفة هل أن جاسر كشاب عاش في الصحراء وكان فقيرًا ولطالما عانى، ينظر بأي عين للثراء؟ كيف يود الحصول عليه؟ وإن حصل عليه كيف سيتصرف حينها.

إنَّ عمرو يخشى أن تغير حياة القصور عريكته وتنسيه ما يضمره في قلبه من مشاعر ألفة وحب للخير.

لكنه عرف أن ثمة أشياء يستحيل على المرء معرفتها، مثل الغيبيات، فمهما يجتهد في التكهن والتنبؤ بحسب دلالات ومعطيات أو أقوال يقولها جاسر فلن يعرف ما يمكن أن يفعله إن هو تحول فجأة من فقير إلى غني. كان ما يخشاه عمرو هو ما قاله لرسلان، وهو أنه يكبر المغيرة بعام ولربما يتطلع إلى السلطة وتدور بينهما النقاشات التي تنتهي بقتل أحدهما للآخر.

في أول الليل غادر عمرو وعادل وجاسر دار رسلان واتجهوا صوب دار ميمون، حيث أنه لم يكن مستحبًا أن يبيت جاسر عند رسلان في وجود حبيبة. قضى جاسر ليلته مؤرقًا وفي الصباح وبعدما أفاق وتناول إفطاره معهم أخبرهم بأنه سوف يعود لقريته، كان بود عمرو أن يذهب معه ليتحدث مع عبدالله ورقية، إلّا أنه رأى أن يتريس أكثر، فلربما تسير الأمور بطريقة أفضل. بعدما انطلق جاسر بحصانه مودعًا عمرو، دلف عمرو لداره وهو كاسف البال ثم جلس على أقرب كرسي صادفه وإذ بسليمة تقف أمامه وتسأله:

- ألم تخبرنا عن سبب زيارتك لقرية جاسر؟

زفر عمرو ثم قال:

- نادي عادل.

لم تتوانى سليمة، اختفت لدقائق من أمامه ثم عادت ثانية ترفل في ثوبها وعادل خلفها. أحضرت سليمة حصيرًا وفرشته على الرمال ثم جلسوا عليه، قال عمرو مخاطبًا سليمة:

- أتتذكرين يا أم عادل باسل ابن الحاكم الراحل هذام الذين قالوا بأن كائن الغابة قد اختطفه والتهمه؟

- نعم.

- أظن أنه حي.

جفلت سليمة وأرسلت شهقة ضعيفة وقالت:

- كيف؟

وكانت ملامح عادل قد بدا عليها تغييرًا طفيفًا، إذ أنه لم يكن قد وُلد عندما حدث لباسل ما حدث. وإن كان يعرف بالأحداث القديمة إلّا أنه لم يتأثر كوالدته.

تنهد عمرو قبل أن يسهب في الحديث حول شكوك الراحل هذام نحو جاسر وأن ذهابه إلى هناك لم يكن سببه إلّا التأكد من تلك الشكوك. لم يعد عمرو يخشى تسرب الخبر وانتشاره، فقد اطمأن لجاسر كثيرًا وبصدق نواياه الحسنة. لم يكن قلقًا غير من ردة فعل المغيرة حينما يسمع الخبر.

ما كان يضمره عمرو في قلبه من مشاعر تجاه هذامًا وما يتجشمه من مشقة وهي تعتمل في أوصاله جعله لا يطيق الصبر، فقد ضاق ذرعًا بالأمر حينما قُض مضجعه أثناء الليل، وما كانت إلا أفكارًا تراوده منعت عينيه أن تغفلا بقيت الليل وحتى انبلاج الصباح، انتوى أن يذهب رأسًا بصحبة رسلان صوب دار عبدالله بن أنوف.

كان قد عزم الأمر بكل قوة على أن يهم بحسم جدال الشك، فليس ثمة داعي للمناورة في الأمر، غير أن شحوب وجه عادل وشروده جعلا قواه تخور وتفتر، يبدو أن الجرح القديم شعر بتجاهلهم له فأراد أن يأتنس بأحد فراح يؤلم عادل ووالده، ما كان جرحًا يمكن للمرء أن يتجاهل ألمه. هو أكثر الجروح وجعًا وأقربها للشفاء إن تحقق لصاحبه مبتغاه.

أرجأ عمرو سفره إلى أن يطمأن على عادل الذي طالت أيام شروده وكمده، صار لا يتحدث كثيرًا وحينما يريد شيئًا كان يتحدث بالإشارات الخفيفة التي تقتصر على الإيفاء بالغرض وكأنه يقتصد حتى في الإيماءات. فقرر عمرو على إثر ذلك وبعد التشاور مع سليمة أن يذهب للحاكم كي يخطب شقيقته لولده.

_ ٣ _

على درب والده

خلال الأيام التي كان يتشاور فيها عمرو مع رسلان حول موضوع عادل ونيته السفر ثانية إلى قرية جاسر –فقد كثرت جلساتهما وكانت تمتد لساعات، وكانت وجدان تنضم إليهما مع حبيبة ويسرفا في الحديث – كان المغيرة منشغلًا بأمور أخرى، قال عنها الكثيرون أنها ليست ذات فائدة، فما الجدوى من تنظيم ساحة المحاكمة وإصلاح العطوب التي ألمت بالمنصة؟ في الوقت الذي لم تكن تقام فيه محاكمة لأنه في الأصل لا يوجد متهمون! إضافة إلى سعي المغيرة والبدء في ترميم السجون الخاصة بالساحة وبناء سجون جديدة! كما أن التغييرات لم تقتصر على ذلك، فقد طالت الإصلاحات وعمليات الترميم السجون الداخلية للقلعة، فأصاب التطوير بواباتها حتى صارت أكثر إحكامًا، وعمل الحاكم على تزويد الآلات المستخدمة في التعذيب وتحسين قوة عملها. وربما لم تكن الآلات قد استخدمت من قبل ولكنه زاد منها وطورها فجعلها أكثر دقة وقوة في إلحاق الأضرار والألام الجسدية والنفسية بالمسجونين.

لم تكن السجون الداخلية في القلعة مخصصة للمذنبين من العامة، بل كانت لمن هم داخل بلاط الحكم ومن رجاله، ولأن المغيرة كان يخشى الثورة عليه فقد أظهر للجميع بأنه مستعدًا استعدادًا كاملًا للقضاء على كل من تسول له نفسه فعل ذلك حتى قبل أن ينفذ ما يفكر فيه. وحتى قبل أن يفكر في ذلك. ولم يُعرف أن أحدًا من رجال البلاط كراجح بن درغام أو عمرو أو عادل أو بقية الضباط والجنود قام بفعلة مناهضة لحكم المغيرة، ولكن خوفه من ذلك دفعه لإظهار قوته وإبراز مدى تحكمه في الأمور، فقد كان رأيه أن العامة وخصيصًا المعدمين منهم هم شرارة الثورة وكبار المسؤولين هم من بآياديهم افتعال تلك الشرارة وإشعال نار الثورة. فكان

فكرة أن هناك رجال تقود وتحرك الأشياء والأحداث من أماكنهم، حتى من قبورهم وامضة في ذهنه، فيكفي الواحد منهم أن يسهر على رسم مخطط وتركه لأحد أتباعه ويموت هو وينفذ التابع المخطط بحذافيره غير مدرك لخطورة ما يفعله، مقتنعًا بأنه يقوم بعمل عظيم وإن لم يكن مؤمنًا بما يقوم به، غير أن الدافع والمحرك الذي يسيره هو اعتقاده أنه بذلك يفي بوعده لصديقه أو مرؤوسه الذي كلفه بالأمر.

كان المغيرة يقول: هناك دوافع نفسية قد تدفع المرء للتقاعس والخمول عن إسداء خدمة لذاته. بينما في الوقت ذاته، قد يقوم المرء بالكثير لخدمة أناس آخرين وإن تطلب الأمر لإثبات مدى انتمائهم لهم وتفانيهم في خدمتهم وإخلاصهم في محبتهم لتحريك جبالًا ثابتةً منذ الأجل من أماكنها! فإن الثقة العمياء تجعل الواحد منهم يسلم عقله وحتى جسده لمن يعتقد أنه مخلص لهم ومخلصون له وأنهم على حق فيما يطالبون به. إنَّ الجهل لشيء خطير، يستخدمونه أولئك في الإيقاع بأتباعهم بجر أرجلهم في ثورات أو أعمال تعود عليهم بالنفع وتؤذي آخرون.

مر ما يقارب الشهر ولم يذهب عمرو للقلعة، حيث أن ما يقوم الحاكم بفعله كان غريبًا، وكان سؤالًا يساوره كلما تحدث أحدًا في الأمر وهو: لماذا يفعل المغيرة كل هذا؟ فكر في أنه يريد أن تعود له الثقة التي لربما يكون افتقدها يوم دخل الغابة، فلقد رأوه من معه وهو مكبل وأسير شيئًا مجهولًا ووجهه مضرج بالدموع.

برغم رفضه لما يفعله ذهب للقلعة ليكون بجانبه، فليس من المعقول ألّا يكون بقربه وهو مستشاره. لكنه لم يقدم على الحديث في قضية عادل وأميرة، فطن إلى أن الوقت ليس مناسبًا.

نشر المغيرة جنودًا في أرباض المدينة، منهم من يحمل سلاحًا ويروح ويجيء بغرض أن تعرف الناس أن الحاكم يسيطر على الأمور ومنهم من يتجول ظاهرًا أنه يستكشف أو متخفيًا فالأمر كان بالنسبة للحاكم سيان، لا فرق، ما يسعى إليه هو إخبارهم بأنه يراقبهم ويحكم قبضتيه على المدينة وعلى كل شيء. كما أنه قام بتعيين جعفر بن وهبة، ابن طاهي القلعة، مسؤولًا عن أعمال جده الراحل عبادة، كان رأيه أن يختار واحدًا له قريب يعمل في القلعة، لكي يتذكره

وما سوف يحدث له إن هو فكر في السرقة والهروب. لم يكن المغيرة بحاجة للاستعانة بأحد، فالأعمال كانت تُباشر بشكل جيد من العمال ولم يخطر ببال أحد منهم يومًا أن يسرق، لكنها دواعي رأى أنها ضرورية وسيريحه إتخاذها.

لم يكف المغيرة ما فعله، لم تكفه فرض أو إظهار سلطته على المدينة وحسب، بل عمل على إبراز ذلك على القلعة وداخلها، حتى على والدته وشقيقته، لم تكن ثمة حراسة على غرفتهما فعين حراسًا أمامهما، مما أزعج ثريا كثيرًا فتحدثت معه ولم يجدي ذلك نفعًا، إلى أن مرضت جراء ما آلت إليه الحال فأمر رجاله بالابتعاد عن الغرف على الفور.

لم تكن ثريا في حالة مستقرة. ولم يكن ذلك بسبب ما يقوم به ولدها وحسب، بل لما تشهده من تقلبات مزاج ابنتها، ساعة تكون عصبية تتصرف بهمجية وساعة تبدو مثل قطة، تكتفي بأحرف خفيضة كالمواء، لا تطلب ولا تأمل شيء.

_ ٤ _

ثريا بين الأمل والقنوط

في تلك الأيام استسلمت ثريا لتيار اليأس الجارف وارتضت غير مقتنعة بما تفعل بأن تترك له العنان ليقودها، فما كان منه وبوسعه سوى تلبية طلبها فأخذها التيار وقذفها في محيط مخيف كالح، فقبعت تحت مياهه الموحشة دونما أدنى محاولة منها لأن تطفو فوقها، ظنًا منها أن لا أحد سينتشلها من غيابة محيط الأحزان المظلم الذي غرقت في أعامقه. في حقيقة الأمر أنها كادت أن تغرق منذ أمد بعيد ولكنها كانت تستند إلى قشة، كانت تتشبث بأمل ضعيف وحالما دارت الأيام وتوالت وتعاقبت السنون انفرط عقد صبرها وتحطم جدار صمودها. وما كانت تلك القشة سوى حلم عودة باسل من جديد. كانت تمني نفسها برجوعه وتستقوي على ما يلم بها بأشباح من الآمال.

ولم تكن تلك الآمال سوى كلمات زوجها وعمرو بن ميمون حول جاسر، لكن البؤس قد تسلل لقلبها بعدما لم يحدثها عمرو ثانية في الأمر فظنت أنه توصل لحقيقة أنه ليس ولدها ولا يود إخبارها كي لا تصيبها فاجعة. وأبعد ابنها الثاني كل قوارب النجاة التي تحاول أن تصل إليها بأفعاله العجيبة التي تنبئ عن أيام لن تكون أقل ألما مما سبقتها. مع إن تلك القوارب كان يستحيل عليها أن تصل إليها، حتى الغواصات لن تصل إلى مكانها.

جاءت عليها أيام كانت تنشر ساعداها أمامها وللأعلى وتدفع بقدميها محاولة أن ترقى بجسدها فوق صفحة الماء، كان ذلك عندما تتذكر ابنتها فتشفق عليها فتتمسك بالحياة لأجلها، فكانت تفلح في ذلك وتظل تدفع وتدفع حتى تطفو فوق الماء وتنتظر، تنظر يمنة ويسرة ولا ترى سوى

ظلام يمتد من حولها وعلى طول الأفق، كانت تعتقد وتجزم على أنه لن يأتي أحدًا لنجدتها، فليس ثمة بحار ستتقاذف سفينته الأمواج حتى يجدها.

غير أنها وكلما تذكرت ابنتها وأشفقت على المغيرة لكونه غارق هو الآخر ولكن في بحر من الغطرسة وجمود المشاعر، كانت تسبح نحو هدف لا تراه وإنما لم تكن تكف عن المحاولة، ففي المحاولة تجد حجة تلقيها في وجه كل من سينعتها باليائسة أو الجبانة أو الخائنة، التي تخلت عن أبنائها وتركتهم للحياة تتلاعب بهم.

***

ساعة طرق المغيرة باب غرفة شقيقته وكان ذلك ليطمئن عليها، تفاجئت من كونه زارها فقط للاطمئنان، فإنه لم يفعلها منذ فترة طويلة.

حينما أذنت له بالدخول لم يكن عليه إلّا أن دفع الباب بعدما أمسك بمقبضه وأنزله إلى أسفل ببطء ليدلف بخطوات قصيرة متقاربة. وراح يتجاذب معها أطراف الحديث الذي خرج منه متأثرًا وعاطفة الأخوة تعتمل في صدره، فأراد أن يفعل لها ما تشاء، إنَّ العمر يمضي وزهرتها تذبل بمضيه. هكذا قال وعزم على أن يساعدها في أن تشرق شمسها من جديد وتدب اليقظة فيها والصحو. خرج من عند شقيقته أكثر إنسانيةً، حتى هو قد ذهله ما صار، فاتجه وقلبه ينبض بمشاعر الرقة والألفة صوب غرفة والدته. وخرج منها سريعًا بعدما لم يطق أن يراها هكذا، خرج من عندها يرزح تحت وطأة آلام الغريزة، إنَّ شعوره بالتقصير في حق والدته جعله كاد يقدم على فعلة كانت ستحسب عليه حماقة فيما بعد. فلقد طرأت في ذهنه فكرة أن يدخل السرور على قلبيهما بالموافقة على خطبة عادل وأميرة.

ولأنه لم يأت عادل إلى الآن ربما لتخوفه من ردة فعله فسيرسل هو له من يخبره بأن الحاكم موافق ولا تقلق. فعاد يسخر من أفكاره تلك وقرر أن يخبر والدته وشقيقته بموافقته ولكن تبقى خطوة واحدة وعلى عادل أن يتخذها ولا أحد غيره.

_ ٥ _

ما هي السعادة؟

استتب الأمن في أرباض المدينة وضحاها، شعر المغيرة بالعظمة وأن الجميع يهابه، لكنه لم يشعر بالسعادة، فكان في تلك الفترة بعينها كثير الندم على أشياء يفعلها وكثير فعل الأشياء التي يندم عليها وكانت تكفيه ليلة واحدة يكن فيها مؤرقًا حتى يعرف أنه حزين. وكان يستمد القوة من نفسه، لظنه أن لا أحد يأبه لحاله غيره. فكان بحثه عن الراحة كمن يبحث عن إبرة في أكوامًا من القش. وإن كان البحث عن الإبرة أسهل واحتمالية العثور عليها أضمن.

فبرغم تلك القوة التي يتمتع بها والثراء لم يكن سعيد. عرف أن السعادة ليست في سلطان دائم، أو مال وفير أو فراش وثير. إنما هي شعورًا في القلب، شيئًا أصغر من شذرات الذرة لا يُرى وغير محسوس ولكنه أعظم من أن يمتلك المرء مفاتح الدنيا.

لم يعد يحتمل تلك القوة الزائفة التي يظهرها للآخرين، بينما هو هش من الداخل تخترقه نظرة من أحدهم لتمزق نياط قلبه، فقرر الكف عن المكابرة بأن يخلع القناع الكالح العابس الذي يخفي خلفه وجهه الصبوح. عزم على أن يدخل السرور على قلب والدته وشقيقته وبذلك يسر هو الآخر. وكانت محاولة جيدة منه، إذ أخبرهما بأنه ينتظر عادل أن يزوره ولن يرفض طلبه، بالفعل سرتا لسماع كلماته التي أنعشت قلبيهما.

كأنه حين شعر بأنه أراح الناس خال أنهم سيخرجون عن طوعه، سيكفوا عن مهابته وسيقل شأنه لديهم، لقد أمر رجاله بالكف عن المراقبة لفترة وجيزة احتفالًا بخطبة شقيقته. وقد كان لأفعاله الرحيمة –على حد تعبيره– أثر عكسي على مجريات الأمور. وإن لم يطرأ شيئًا جديدًا

أو عجيبًا يثير الدهشة لكنه تصور ذلك يحدث عن قريب. وكان لأفكاره نحو المستقبل وتخيلاته أثر كبير على تصرفاته.

وكأنه لم يكن موافقًا على خطبة شقيقته فاضطر للموافقة على مضض لما لمسه من تدهور في صحة والدته وحزنها وحزن شقيقته.

لقد كانت الأجواء شائقة، احتفالًا عظيمًا في فناء القلعة يشهده جمع غفير من شعب مدينة الحكيم والقرى التابعة لها، يتراقصون فيه ويطلقون الضحكات في سعادة عارمة، ربما كانت سعادتهم مضاعفة لأنها جاءت بعد شعورهم بالاضطهاد والاختناق، ولربما لفرحتهم بأن الحصار الداخلي الذي فرضه عليهم الحاكم قد انفك عنهم. جاء ذلك بعدما خرج عمرو من داره واتجه صوب القلعة رأسًا والتقى بالحاكم، لم تكن زيارة مثل العادة، لمناقشة مسائل المدينة، بل كانت زيارة تحمل بين ثناياها الكثير من السعادة والحزن والرهبة معًا، عمت السعادة الكثيرين وخص الحزن نفر قليل، كان منهم الحاكم، ربما هو ذاته لن يستطع أن يفسر سبب حزنه وإن صرف في ذلك جل تفكيره. لم يمهد عمرو لطلبه تدريجيًا بل جاءت كلماته صريحة مباشرة إذ قال باقتضاب:

- أيها الحاكم... يا ابن صديقي الراحل، إننا نتطلع لأن تزداد علاقتنا صلابة ونزداد منكم قربًا لنزداد شرفًا، ولن يقوي أواصر علاقتنا ويزد من متانتها غير نسبًا. ولهذا فإني أرجو وأنتظر موافقتك على زواج عادل من شقيقتك الأميرة.

لم يرد المغيرة أن يظهر له بأنه كان ينتظر أو يتوقع شيئًا كهذا فأرجأ الإجابة على طلبه بأن قال له:

- أمهلني بضع أيام أسأل فيها شقيقتي عن رأيها ونتشاور في الأمر... أما أنا... بالنسبة لي، فليس لدي أدنى اعتراض، لكن ومع ذلك دعني أفكر وسأخبرك ردي عما قريب.

لقد أسعد الحاكم والدته وشقيقته عندما أخبرهم بما صار وبما ينتوي فعله ولم تطل الأيام بعدما عاد عمرو لأهل لداره، وبعث لهم الحاكم راجح بن درغام يزف لهم خبر موافقته.

راح المنادي يتجول في خفة داخل مدينة الحكيم ثم دار على القرى والمدن التابعة لها وأعلن نبأ خطبة قائد الجيوش من شقيقة الحاكم.

الفصل التاسع

ـ ١ ـ

يوم الخطبة

فتحت البوابات على مصرعها لتولج منها الأعداد التي تسد عين الشمس، امتلأ الفناء عن آخره وقد كان فسيحًا ليسع كل تلك الوفود.

ارتفعت الأصوات بالهتافات والمباركات وانطلقت الأبواق والمزامير وعلت الأهازيج، سرت في القلوب سعادة متقدة إلى أن أخمد لهيبها تصرف الحاكم المثير للدهشة.

لم يكن يصح فعل ما فعله، إن هو حقًّا أعجب بها فهناك طرق كثيرة لإبراز ذلك والعمل على الوصول إليها، حتى أن والده اختار والدته وتزوج منها بطريقة شريفة لم يغالطه فيها أحد، لكن أن يأمر رجاله بعدما وقع بصره عليها بانتشالها من قبضة أخيها وانتزاعها منه انتزاعًا والدفع به بعيدًا بعدما قاوم، فتلك أفعال يستحي منها النذل قبل الشريف ذو المروءة.

كيف وهو الحاكم ورجل محارب أن يرتضي بأن تكون أخلاقه هكذا؟ أن يصاب بداء الخسة والوضاعة؟ كيف؟ تمتم عمرو بين نفسه وهو يرى المشهد أمام عينيه لكنه لم يفعل شيئًا، فقد أعجزته المفاجأة عن التفكير. وكانت فاجعة في نظره لأن الفتاة لم تكن إلّا ميرام ابنة عبدالله بن أنوف التي تربى معها باسل. وذلك على افتراض أنه باسل وهي ليست سوى فتاة نشأ معها تحت سقف واحد تحت اعتقاد أنها شقيقته. فإن كان هو باسل حقًّا فستكون كارثة أن يفعل ذلك مع شقيقه. لقد حاول جاسر الدفاع عنها واستمات في ذلك لكن كثرة الجنود حالت

بينه وبين شقيقته ووجد نفسه ملقى بعيدًا على الأرض وقد توقفت جميع الأصوات إلّا صوت صراخ شقيقته باسمه.

- جاسر... يا جاسر، لا تتركني لهم يا جاسر.

كان يسمع أصواتها بعيدة مشوشة برغم أنها لم تكن تبعد عنه إلّا بضعة أمتار. ولم يكن يرى منها غير يدها التي تلوح بها وتستجديه أن ينقذها مما حل بها.

سقط جاسر على الأرض، حاول الوقوف ثانية لكن قدماه لم تسعفاه، حملق في كل شيء حوله بعينين مشدوهتين، كان يرى أطيافًا وخيالات، لم تكن الرؤية ممكنة في ذلك الوقت برغم اتساع عينيه، كان يسمع جلبة ولغط برغم هدوء المكان، لم تكن أصوات شقيقته بل كانت أصوات تعتمل في صدره، أصوات القتال والكفاح من أجل استرداد كرامته، أصوات الحق والعدل والخير الذين مارى للحظة أنهما موجودين، لقد شك جاسر للحظات أن لا مكان للخير على الأرض، فأين العدل والمساواة؟ كيف يحق لإنسان أن يلحق الضرر بآخر بأن يطعنه في عرضه هكذا؟ كانت ثوانٍ سقط خلالها على الأرض وكأنه سقط من مكان مرتفع على رأسه، كانت أفكار تراوده وتختفي لتأتي غيرها وتعلن عن نفسها، في ذلك الوقت وبرغم معرفته التامة بعجزه وضعفه كان أكثر تصميمًا على إقامة العدل، كانت حماسته بالغة وعزمه رهيب على أن يقدم حياته مقابل تحقيق المساواة بين البشر، مقابل أن يأخذ كل ذي حق حقه. مقابل إرساء السلام ونشر الخير ووأد أصول وجزور الشر الذي سيطر وساد.

انتهى الحفل سريعًا على عكس المتوقع، دلفت والدة الحاكم لغرفتها تبكي بعدما رأت ما حدث. واستشاطت أميرة غيظًا، كانت تقول لنفسها: كأنه وافق خصيصًا على خطبتي ليفعل فعلته تلك ويهدر سعادتي! كأن ابتسامتي لا تروق له! لا يحبها! كأنه ليس أخي!

غادرت الناس وهي تضرب كف بكف، ترى حاكمها يتصرف بحماقة فتساورهم شكوك حول سلامة عقله، كثير منهم قرر فعل أمور كان يراها سيئة ويعزف عنها لتخوفه من الحاكم والقضاء. لكنه خرج عازمًا على فعلها، فأي حاكم سيُخشى وهو ذاته ذا أخلاق سيئة؟ وأي قضاء

سيحسب حسابه وهو ذاته يتستر على أفعال الحاكم؟! أو لا يتستر، فكل شيء بدا واضحًا للجميع. هو لا يتستر، هو يتغاضى.

كان لا يزال الحاكم في مكانه في الأعلى وبجواره راجح وبعض جنوده الذين يتحلقون حول ميرام. راح يحدثها بكلمات رقيقة ويقسم لها على أنه لن يؤذيها، سيفعل كل شيء بطريقة ترضيها، بالصواب. كانت كلمة بالصواب التي قالها غريبة على أذن ميرام، كأنه كان يسخر مما فعله ويبدي ندمًا، لكن أي صواب يقصد بعد الذي فعله؟ لقد لطخ شرفها وأسرتها في الوحل، حتى وإن كانوا مغلوبين على أمرهم، فيكفي أن أخبارهم ستتناقلها الناس لأيام، لم تكن حادثة يسهل نسيانها. أيقنت ميرام من نبرة صوته وليونة كلماته بأنه نادم وصادق فيما يقوله، لكن ذلك لم يشفع له، لم يزح من أمام عينيها انعكاس صورتها المضرجة بالعار. فتلك وصمة عار لن تفارقها كما كانت تعتقد وهي تزم شفتيها حنقًا عليه.

بعدما انفضت الناس من حوله دلف للقلعة واستقر على كرسيه، بجانبه راجح الذي كان قد هرم وصار يجد صعوبة في الحديث فضلًا عن الحركة، لن يستبدله الحاكم أكيد لأنه حسب تصوره رجل بلاط محنك، خدم والده من قبله والآن يقدم خدماته دونما كلمة تذمر، حتى أنه لا يقل على فعل سيء إنه سيء، هو يرى ويسمع دونما نصيحة قد تخطر بباله فيقولها أو نظرة غضب. وهذا ما يحتاجه المغيرة، رجل مثل لوح من الخشب، لا يصدر عنه سوى صدى ارتداد صوت المغيرة منه. يسمع ويلبي ولا يناقش.

أمامه تقف ميرام كسيرة، ما عاد يراها شامخة كما كانت في الحفل، تلك النظرة المتحدية التي جذبته لها تحولت لمستسلمة، لم تعد لمعة عينيها تحاكي فتاة قوية قاسية معتدة بنفسها، بل فقيرة معدمة ضعيفة وأسيرة ذليلة.

أيتركها تذهب؟ فقد ذهب ما دفعه لاختطافها من أخيها. قال لنفسه: لا... إنَّ هذه آثار الصدمة، وإن لم تقف أمامي بتلك الصورة لعلمت أنها لا تستحق قربها مني، لا تستحق العناء

من أجلها وتحمّل أقوال الناس وأفكارهم التي سيختلقونها تجاهي. إنَّ صدمتها هذه ستدفعني للمضي قدمًا فيما بدأته.

في فناء القلعة وأمام البوابة الرئيسية لها يقف جاسر مع عمرو وعادل، بدا لهما أنه ثائرًا ولربما يقحم نفسه في المخاطر فأرادا تهدئته.

قال عمرو له:

- فلتذهب مع عادل للدار يا ولدي وسآتيك بشقيقتك.

كان وجهه ممتقعًا وأنفاسه متباعدة وهو يقول بصوت متهدج:

- لا يا أبا عادل... لن أتركها أسيرة بين يديه وأذهب مستريحًا، لن أترك هذا المكان إلّا وهي معي أو أسجن أنا معها فيه، لكن أن أغادر... هكذا بسهولة! لن يصير.

زفر عمرو وعلم بأنه صادقًا فيما يتفوه به فطلب منه الهدوء لحين أن يدلف للقلعة ويتحدث مع المغيرة ويقنعه أن يتركها.

ليس في يده فعل شيء، وقف ينتظر خروج عمرو وبجواره عادل.

اختفى عمرو لدقائق ثم خرج كما دخل، صفر اليدين فاقد للأمل، فإن المغيرة ظهر متمسكًا بما فعله ويتوعد بالشر كل من سيتحدث في الأمر، قال عمرو:

- يقول أنه سيتخذها زوجة له يا جاسر. وأن شرفها شرفه، ومن سيخوض في عرضها كأنه يخوض في عرضه هو، سيؤذيه بلا هوادة.

لم يعجب جاسر ما قاله عمرو، ضحك سخريةً مما قاله المغيرة على لسان عمرو وقال باستهزاء وهو يلوي فاه:

- هيه... عن أي شرف يتحدث جنابه؟ وهل بقى شرف يعتز به المرء كي يهدد من سيتحدث عنه؟ حتى وإن كان ينتوي الزواج منها فذلك لن يصير، ليس بتلك الطريقة الدنيئة. إنك لا تعلم يا أبا عادل...

نظر إلى عادل وقال:

- لا تعلم يا عادل أنني لن أستطع العودة بدونها لوالديّ، إنها المرة الأولى التي يسمحان لنا بالخروج معًا بدونهما. ولا أحب أن يقولا خنت الأمانة يا جاسر، أين شقيقتك التي أئتمناك عليها؟ لا... لن أذهب بدونها، حتى لو اضطررت لقتال كل من يعارض ذلك.
- فلتهدأ يا جاسر.
- لن أهدأ يا أبا عادل... أتعرفان؟ بإمكاني أن أذهب الآن وأحكي ما صار ثم آتيه برجال قريتي والقرى المجاورة، فلن يقبل رجال الصحراء الشرفاء أن يتطلع أحدهم لفتاة منهم بنظرة. بإمكاني إثارة الناس عليه.

صمت قليلًا ثم أردف:

- وهذا الذي أظنه سيحدث إن عاجلًا أم آجل.

نظر عادل لوالده ثم لجاسر واكتفى بإيماءة من رأسه لوالده قبل أن يربت على كتفي جاسر ويغذ الخطو نحو باب القلعة.

حينما رآه المغيرة قادم نحوه زفر وتنفس بعمق وبادره الحديث فقال له:

- ما الخطب يا عادل؟ أظنك جئت كي تتحدث في شأن هذه.

أشار إليها بيده وقال عنها "هذه" مما جعلها ترشقه بنظرات استهجان وحنق.

قال عادل وهو يحذر من أن يثير غضبه كي لا تتفاقم الأمور وتتعقد وهو يحاول الالتفاف حول الموضوع:

- إننا في غنى عن إثارة الفتن أيها الحاكم، أحدثك لكوني قائدًا للجيوش فأقول إنَّ المصلحة تقضي... مصلحة القلعة والمدينة، تقضي بأن نحترس ونحترز من أصغر صغيرة بإمكانها تحريك وتحريض القرى ضدنا. أتكلم عن حكمك لتلك البلاد وتبعيتهم لك، لا تنس أنهم ذو بأس ولديهم السلاح والرجال. وإنَّ ما يجبرهم على التبعية إنما هي رؤيتهم لعدالة حكمك وبراعة حكمتك. وأضف على ذلك أنهم يريحون أنفسهم من هم إدارة شؤون بلادهم برميها على كاهلنا نحن، فنحن نديرها ونحميها بطريقة ترضيهم.

لكن ليس هو الخوف أيها الحاكم، بإمكانهم مجابهة جيوشنا وتعلم ذلك كما هو معلوم للجميع.

لم يستطع عادل أن يتحكم في مجريات الأمور، لقد أثار غضبه، ربما قصد ذلك كي ينكله عن أفعاله، فعندما يفهم المغيرة بأن إحتمالية أن تؤول الأحداث إلى ثورة عليه وزعزعة حكمه ليست مستبعدة فمن الجائز أن يوقف ما بدأه ويتراجع عنه خشية أن يزول حكمه. لكن ما صار هو عكس ذلك تمامًا، إذ غضب المغيرة غضبًا شديدًا وفطن أن هذه التهديدات الواضحة، إنما هي من جاسر، هو من يهدد وهو من يجب أن يُلقى القبض عليه قبل أن ينفذ ما قاله.

_ ٢ _

بين أربعة جدران

تذكر جاسر بندم وهو قابعًا في أحد سجون القلعة ما فعله بعدما عاد عادل فارغ الأيدي مثل أبيه، فقد أخبره عادل بما دار بينه وبين الحاكم فاهتاج مثل ثور أو خروف حرون وانفلت زمام أمره كأن ضرب من جنون أصابه وشرع سيفه في الهواء وانطلق ناحية حارسا بوابة القلعة الرئيسية وفي نيته الولوج منها ثم الإقدام على المغيرة وقتله إن تطلب الأمر، ركضا خلفه عمرو وعادل ليحمياه من شرور نفسه، فلقد أعمته حماسته عن رؤية الواقع وأصابت نيته في الانتقام عقله بخلل أثر على أفكاره.

وبرغم قوته وتبادله الضربات بالسيف مع الحراس لم يصب أحد منهم، كأنه قصد ذلك عن عمد، فحربه ليست معهم، وكان ماهرًا بطريقة منعت عنه ضرباتهم، فقد تفاداها بمرونة. ولكنهم تكاثروا عليه حتى أسقطوا السيف من يده وأحكموا قبضاتهم عليهم وسحبوه للحاكم.

بعد نقاش محتد مع الحاكم، أمر الحاكم الحراس بالزج به في السجن، مع مراعاة توفير سبل الراحة له، فلقد انتوى المغيرة الزواج من شقيقته ولا يريد أن يعاديه، لكنه ارتأى له أن يخمد نار ثورته ريثما يتعقل ويرضخ لما يريده. انزوى جاسر في أحد أركان الغرفة، جلس على الأرض وشد قدميه إلى صدره وشبك يديه على ركبتيه، كان يسترجع الأحداث الأخيرة وهو يهز رأسه ويزم شفتيه تعجبًا مما فعله، أمال رأسه على يديه وتمتم لنفسه:

- ما كان يجب عليَّ فعل ذلك، إن كنت خرجت مع عادل وأبيه ثم اتخذت طريقي رأسًا لقريتي وحكيت ما صار لشيوخها وشيوخ القرى المجاورة ثم عدت بصحبتهم لكنت استرجعت شقيقتي واجتثثت الظلم من جزوره. ماذا يفيد الندم الآن وأنا قابعًا في هذه الغرفة؟

حينما عاد عمرو لداره كان مشتاطًا من الغيظ، يقول: إنَّ ما صار إنما هو ضرب من الشطط والجنون. ثم تغيرت نظرته للأحداث بعدما جلس وهدأ، فكر أن ذلك في صالحه وإنَّ ما آلت إليه الأحداث سيمهد الطرق لما يود فعله، فلقد كان يتخبط بفكره لا يدر كيف يعرف من عبدالله ورقية إن كان جاسرًا هو باسل ابن الحاكم هذام أم لا؟ ثم توصل لفكرة أن يذهب لهما ويخبرهما بما حدث. وعندها سيتبين كل شيء.

فُتح باب السجن ودلف رجلًا للغرفة ثم أقفل ثانية، لم يتعرف عليه جاسر بسبب الظلام ولأنه كان يحرك الشعلة الضعيفة التي في يده يمينًا ويسارًا يبحث بضوءها الخافت عن جاسر. حالما رآه الرجل وقد انتصب واقفًا ينتظره أخبره أنه عمرو.

أقبل عليه جاسر بخطوات سريعة ووقف قبالته حزينًا. قال عمرو:

- فكرت أن أذهب لوالديك وأخبرهما بما صار قبل أن تنقضي هذه الليلة فيستبد بهما القلق.

فكر جاسر قليلًا قبل أن يقول:

- هذه ليست فكرة جيدة، فلا أستبعد أن تصيبهما لوثة فور سماعهما الأخبار. لكن ومع ذلك، يجب أن يكونا على علم بما حدث، فإن قلقهم علينا سيتضاعف إن انبلج الصبح وأنا وميرام خارج الدار، ستعصف بهما الأفكار وبالطبع سيتوقعا الأسوء من الأحداث.

صمت جاسر وأبعد نظره عن عمرو فبدا لعمرو أنه يفكر فسأله:

- في ماذا تفكر يا جاسر؟

نظر جاسر إليه وقال:

- لن أخفي عليك يا أبا عادل، إنَّ شعورًا دافئًا يغمرني برغم ما أنا فيه وشقيقتي، وهذا الشعور قد بدأ ينتابني عندما التقت عيناي بعينا والدة الحاكم، لا تسيء الفهم يا أبا عادل... فلقد رأيتها تحدق بي فما كان عليَّ وبالرغم عن إرادتي إلّا أن أحدق بها.

وكان ذلك بعدما وقفت أنت بجانبها وخلت أنك تشير إليّ، ربما كنت تشر إلى أحد غيري. كانت تبتسم فوجدتني ابتسم، أحسست بأن نظرتها نظرة أم لطفلها... هكذا أحسست، ولا أستطع الآن أن أحدد لك ما اعتمل في قلبي تجاهها، شعور مستحدثًا عليَّ لم أحس به من قبل ولم أتمكن إلى الآن من معرفة كنهه. كما أنني أحب أن أشير إلى شيئًا آخر. كنت سأحتفظ به لنفسي نظرًا لخطورته وحساسيته، لكني سأتحدث عنه لك. فلتسمع يا أبا عادل للنهاية بصبر وحكمة... حتى أن الأميرة، خطيبة عادل، قد جذبني شيئًا ما لها، ربما كان تأثير ما اعتمل في قلبي تجاه والدتها، لكني ما زلت أشعر به.

صمت لثوان ثم أضاف:

- ما شعرت بها تجاههما مدني بسعادة أخجل منها الآن لأن ميرام أسيرة بين يدي الحاكم.

كان عمرو يستمع لكلماته بملامح صارمة، وخلفها كان يكبح ضحكات مجلجلة، يكاد يكون آمن إيمانًا ليس يرقى إليه أي شك أنه باسل، فكر أن يخبره بكل شيء يعرفه لكنه عدل عن ذلك وغادره بعدما وعده أن يزوره قريبًا ليكون أول من يفتح له باب الخروج من السجن ليرى نور الشمس. ويخبره عن سر ما اعتمل في قلبه وشعر به.

_ ٣ _

الإصرار على معرفة الحقيقة

مذ طُرق الباب وهرع عبدالله وهم بفتحه كي يستطلع الطارق فوجده عمرو وخلفه رسلان وشعورًا بالخوف لم يفارقه هو وزوجته التي كانت تنتظر دخول جاسر وميرام عليها.

كانا يعتقدا أنهما جاسر وميرام ولم يتصورا أبدًا أن يزورهما أحد في ذلك الوقت المتأخر من الليل، رحبا بهما وجلسوا جميعًا.

سأل عبدالله بعدما نظرت له زوجته:

- هل انتهى الحفل؟

أجاب أبا عادل:

- نعم.

- إذًا لماذا لم يعد جاسر وميرام إلى الآن يا أبا عادل؟

لم يفكر أبا عادل طويلًا، كان رده سريعًا وقاطعًا فقال:

- بسبب أن الحاكم أبقى عليهما في القلعة.

تفاجأ رسلان من طريقة عمرو المباشرة في الحديث، كان حليق به أن يهون الأمر، لا أن يضربهما بسهام سامة كما فعل. ولا يدر أن أبا عادل فعل ذلك عن عمد، فمنذ سيرهما في الطريق وهو يفكر: كيف أجعلهما يتفوها بالحقيقة، فأنا الآن وبعد كلام جاسر حول ثريا وأميرة أكاد أجزم أنه باسل. لكن ما جعل رقية وعبدالله يخفيا الأمر سابقًا وقبل زمن سيجعلهما يخفياه الآن. ليست المواجهة هي من ستجعلهما يتحدثان بل الخوف، الخوف من سيضطرهما اضطرارًا لأن يبوحا بالحقيقة. إنَّ المرء ليتفق له أحيانًا أن يكذب ثم تجده يهرول نحوك ويخبرك

بالصدق دون نسيان كلمة واحدة وتجده شجاعًا والأمر لا يحتاج شجاعة، بل إنَّ موقفه ليبدو محرجًا وهو يغير أقواله. وحين تستعلم عن السبب الذي انطوى عليه تصرفه، فتسأله فتجده يخبرك أن خوفًا أكبر من خوفه الذي دفعه للكذب هو ما دفعه لقول الصدق. فإنَّ كانا قد خشيا أن يعترفا طول الأيام الماضية أنه باسل فخوفهما عليه وابنتهما سيجعلهما يعترفا الآن. فإنهما وبكل تأكيد سيستقويا على خوفهما بخوف أكبر منه.

أراد أن يستعلم عبدالله عما حدث فنظر لزوجته نظرة عتاب، أحسها عمرو أنها نظرة ندم فبدأ في سرد الأحداث على إثرها.

حينما توقف عن سرد ما صار فكر قليلًا ثم قال:

- إنَّ الحاكم لم يخطف ميرام ولا ينتوى فعل شيء سيء معها، إنه يريد أن يتزوجها، تلك رغبته... لكن جاسر غير مقتنعًا بذلك. وهو محق، فليست تلك طريقة للزواج.

قال عبدالله:

- وماذا ينوي فعله بجاسر؟ إننا نعرف جاسرًا عنيدًا ولن يوافق على زواجه من شقيقته بعد الذي فعله. وهذا هو ما يثير رعبنا، فقد يؤذيه الحاكم ويتزوجها رغمًا عنا جميعًا.

كان رسلان يستمع بصمت لكن رقية لم تستطع السكوت فقالت بنبرة حزينة:

- ليتنا لم نوافق على ذهابهما لذلك الحفل. لم يكن ليحدث ما حدث.

نظر إليها عبدالله وقال:

- إنها مشيئة القدر يا رقية، إنَّ الله ليدبر الأمور من عنده بطريقة نعجز عن فهمها، بطريقة تذهلنا ونكتشف فيما بعد أنها الأصلح.

قال عمرو ليجعلهما يسرعا من قول ما ينتظره:

- إنَّ الحاكم الآن يسجن جاسر، وقد تحدثت معه كما فعل عادل ولم يفرج عنه، فما الذي سيجعله يتركه؟

ألقى عبدالله نظرة على رقية فجاءته منها إيماءة فتنهد بقوة وقال وهو منكس الرأس:

- سيتركه حين يعلم أنه يسجن شقيقه.

اصطنع عمرو أنه تفاجأ، فرفع حاجبيه وقطب جبينه وقال بدهشة: شقيقه؟! ثم نظر إلى رسلان وابتسم فبادله الإبتسام.

قال عبدالله:

- نعم هو شقيقه، إنّ جاسر هو ابن الحاكم هذام، الذي فُقد يوم الحفل.

قال عمرو بنبرة مستفهمة:

- باسل؟ الذي قالت عنه الناس أن الكائن قد التهمه؟

نظر عبدالله من النافذة المشرعة إلى الصحراء المديدة وقال وهو يسترجع الأحداث بعدما زفر بقوة:

- بعد تفتيش العربات، بعد فقد باسل، اتخذنا طريق الغابة قاصدين قريتنا وكان الليل قد أسدل ستائره على المدينة وكانت أصوات الكائن تنبعث من الغابة مما زاد الأمر سوء. وبينما نحن سائرون بالعربة ظهر أمامنا فارسًا يمتطي حصانًا، كأنه خرج من الغابة لا نعلم، أو كان مختبئًا في الأحراش، رأيناه يأتي من طريق جانبي ضيق ليدخل طريقنا ثم لكز حصانه ليمشي خببًا، هرول الحصان فكانت سترة الفارس تطاير خلفه، وخلنا أنه يضع شيئًا أمامه كأنها بقجة ملابس. ثم على حين غرة وإذ فجأة اختفى الفارس بطريقة سحرية وانحدر الحصان ناحية اليسار حيث النهر وبدأ في العدو إلى أن وصل لجسر ثم عبره للجانب الآخر ووقف في أحد المروج الخضراء. ولم نعلم حقيقة أين اختفت بقجة الملابس التي أمامه هي الأخرى! أبطأت من حركة الحصان الذي يجر عربتنا قاصدًا التلكؤ لحين فهم شيء مما حدث وبدأت أنا وزوجتي نتفقد الطريق وننظر بتمعن للغابة على أثر ضوء القمر الشحيح. ربتت رقية على كتفي وهي تطلب مني أن أوقف العربة فأوقفتها على الفور فإذ بها تترجل عنها وتسير بضع خطوات، ثم وقفت أمام لفة لم تكن تظهر لي جيدًا من مكاني وقالت: انظر يا أبا ميرام. قلت لها من عندي: ماذا

وجدتي؟ لم تحر جوابًا فترجلت عن العربة ثم حملت ميرام وذهبنا لوالدتها وتسمرت بجانبها.

وجدنا طفلًا عمره عامان تقريبًا ملفوفًا بشال حريري وملقى على جانب الطريق قرب الأشجار، لم يكن يظهر منه غير وجهه وكان نائمًا. حملته زوجتي وبدأت في لف الشال إلى العكس لتحرره منه، فقد بدا لنا أن أحدًا أحكم لفه كي يعيق حركته قاصدًا بذلك شيء لم نعلمه حينها، إلى أن فسرنا الأمر بيننا حينما عدنا للدار. كنا قد عرفنا أنه باسل وأردت حمله والعودة به للحاكم لكن زوجتي منعتني من فعل ذلك، كانت تخشى أن يظن الحاكم أننا من اختطفناه بالسحر فيأمر بسجننا أو قتلنا، أو ساعدنا على اختطافه ثم خشينا أن يُكتشف أمرنا فأرجعناه، أسلمت عقلي لزوجتي وتركتها تفعل ما تشاء. وكانت النتيجة أننا حملناه لدارنا وأبقيناه بيننا إلى أن تربى في وسطنا وكبر والجميع يعلم أنه ولدنا.

أعود أوضح لكما شيئًا، كيف فسرنا الأمر إذًا؟ فكرنا وتوصلنا إلى أن الفارس الذي ظهر أمامنا هو قائد الجيوش خزاعة بن النضر الذي قالوا عنه أنه هو من خطف باسل وقالوا عنه أنه هرب للصحراء، اعتقدنا أنه لربما يكون فعل شيئًا غير ذلك وخشي معرفة الحقيقة فهرب ولم يتركه الكائن يهرب بفعلته فاختطفه والتهمه. هكذا تصورنا لأننا سمعنا أصوات الكائن تزداد خلفنا والغابة تضاء بالضوء الأخضر.

قاطع عمرو عبدالله بعدما نظر إلى رسلان فقال باقتضاب:

- نعم... الآن وضحت الأمور. الكائن خطف باسل ليبعث إنذارًا للحاكم الراحل هذام ليكف عن أفعاله، لكنه لم يلتهمه فهو لا يأكل إلّا من تتضرج آياديهم بالدماء، فقام بلفه بالشال ووضعه على الطريق كي يعثر عليه أحد، وفي نفس الليلة قتل خزاعة أريب بن برهوم الذي كان مستشارًا للحاكم، فقد دبرا معًا حادثة لإغتيال الحاكم لكن الطاهي وهبة كشف مخططهما وألقى الحاكم القبض على أريب فتسلل خزاعة ليلًا

وقتله بداخل السجن، ثم خشى أن يُكتشف أمره ففضل الهرب بأن أراح الكائن وذهب إليه بقدميه. فالتهمه في تلك الليلة فظن الجميع بأنه التهم باسل. والآن عرفت لماذا توقفت عربتكم في تلك الليلة.

قال عبدالله متسائلًا:

- أرأيتنا ليلتها؟

- نعم... ووقفت أتابع حركة العربة فرأيتها تقف ثم تسير ثانية وبعدما ذهبتم انطلقت خلفكم الأضواء والأصوات المرعبة.

قالت رقية:

- والآن ماذا ينبغي علينا فعله حيال ما حدث؟ كيف سنخبر الحاكم بأن جاسر أخيه؟

قال رسلان:

- الأولَى أن تقولي كيف سنقنعه.

ردت عليه رقية بأن قالت:

- ليس علينا إقناعه، فإنه لم يكن يعي شيئًا وقتها، ما علينا إقناعها هي والدته.

أراد عمرو أن يقول إنها ستقتنع بسهولة لأنها تشك منذ فترة أنه ولدها، لكنه لم يقل لإحساسه بالخجل، فإن عرفا أنهم يتابعون ويخططون لمعرفة هل إن كان جاسر هو باسل أم لا منذ أخبرهم هذام؟ سيغضبا بالتأكيد ويفسرا قرب عمرو منهم وتواصله معهم إنما هو لحاجة أخرى في قلبه غير الود.

عاد رسلان يسأل:

- وكيف سنقنعها؟

قالت رقية مخاطبة رسلان:

- إقناعها يسير يا أبا حبيبة، فلا نزال نحتفظ بالشال الحريري الذي كان يلف باسل ليوم كهذا. ونحتفظ بملابسه التي بالتأكيد ستتعرف عليها والدته.

قال عبدالله وكأنه يظهر ندمًا أو يرتجي فهمهما على النحو السليم:

- بالتأكيد تعمدنا الاحتفاظ بحاجياته كي نقنع أسرته بأنه ولدهم، فلم تكن في نيتنا الصمت إلى الأبد وكنا قد عزمنا أمرنا على أن نطلعه على الحقيقة كي يعود لوالدته عدة مرات وفي كل مرة كانت تثبط عزيمتنا محبتنا له قبل تخوفنا من ردة فعل الحاكم هذامًا في حياته أو ردة فعل المغيرة الآن.

صمت قليلًا قبل أن يستطرد بنبرة حزن:

- إننا أحببناه بصدق يا أبا عادل... ولن نتخيل أبدًا حياتنا من دونه، صار واحدًا منا وصرنا لديه كل شيء.

_ ٤ _

إزاحة العصابة من فوق عينيه

تناهى لسمعه أصوات وقع أقدام تقترب وأحس أن أحدهم يقف خلف الباب، ثم سمع صوت مزاليج تُفتح ومفتاحًا يُدار في القفل، انتصب واقفًا عندما شُق الباب فتسرب بصيصًا من ضوء الشعلة التي في الرواق لداخل سجنه، حملق جيدًا بالزائر فخمن أنه عمرو بن ميمون فنادى من مكانه بحذر:

- عمي أبا عادل؟
- نعم يا باسل. هكذا رد عمرو فدهش جاسر وهو يزوي ما بين حاجبيه وتقدم نحوه حتى أصبح يفصل بينهما متر واحدًا وقال له:
- باسل؟ هيه... أنسيت اسمي يا أبا عادل؟

ابتسم عمرو وقال:

- لا يا بني... لم أنس، لكني عرفت الحقيقة.

رفع حاجبيه وقال مستفهمًا:

- حقيقة ماذا؟

فأجاب عمرو:

- حقيقة أنك باسل ابن صديقي الراحل هذام. وهذا هو السر الذي انطوى عليه ما اعتمل في قلبك تجاه والدتك ثريا وشقيقتك أميرة.

صمت قليلًا ثم أضاف:

- طبعًا سمعت عن باسل وعما تناقلته الناس بشأنه.

توتر جاسر وقال بنبرة مضطربة:

- أنا لا أفهم شيئًا يا أبا عادل... نعم أعرف أن الحاكم كان له طفلًا وفُقد وقالوا عنه أن الكائن التهمه. لكن ما لا أعرفه هو مالي أنا بتلك الواقعة؟ تقول أني أنا باسل؟! هيه... كيف؟

تنفس عمرو بعمق ثم قال له وهو يسحبه من يده ويخرجا معًا من غرفة السجن ويقفلها الحارس خلفهما:

- تعال معي... سوف تفهم كل شيء. وأرجو أن تحافظ على هدوئك لتستوعب ما ستسمعه.

حينما دلف جاسر خلف عمرو للقاعة الخاصة بالحاكم كان أول ما وقع بصره عليه هو الحاكم الذي كان يجلس على كرسيه. ثم أخذ يجول ببصره داخل القاعة فرأى ثريا تقف جانبًا وبجوارها أميرة وأمامهما عبدالله ورقية. توقف ونظر لعمرو وقد بدأ يصدق ما قاله، لأنه رأى أن الجميع يحملق فيه وبالأخص ثريا التي بدت وكأنها تلتهمه بعينيها المغرورقتين بالدموع، كانت تحدق به وهي تهز رأسها بقوة حتى خال أنها ستفقد وعيها.

جذبه عمرو من يده وقربه من عبدالله ورقية وفي تلك اللحظة اقترب كل من المغيرة وأميرة ليسمعا ما سيقال، أما ثريا فأحست بدوار وكادت أن تسقط أرضًا لولا أنها استندت إلى أميرة وجلست على كرسي الحكم.

كان يصغى بذهول لما يقله عبدالله وهو ينظر لثريا. وبعدما استرسل عبدالله في الحديث وشرح وبين كل شيء وأعطى ثريا حاجيات باسل القديمة والتي كانت عبارة عن ملابسه والشال الحريري. بكى باسل بكاء شديدًا وهو يحتضن عبدالله ورقية. ولشد ما دُهش الجميع لما فعله، فقد كانت توقعاتهم أن يبتعد عن عبدالله ورقية ويكرههما لأنهما أبعداه عن عائلته. لكن ما اعتمل في قلبه حينها، جعله لا يشعر تجاههما بذرة كره، فقد عرف بأنه من المفترض عليه أو ما ينتظروه منه هو أن يتخلى عمن ربياه، فشعوره بفقدهما زاد من حبه لهما. واستصعب أن

يترك من نشأ بينهم ليعيش في كنف أسرة ثانية، يتحرك بين أفراد لا يزال بعد كل ما قيل يراهم أغرابًا عنه.

بالرغم من ذلك كان إحساسه بثريا صادقًا، تغلغل حبها في قلبه، أو كان مطمورًا تحت وطأة السنين وجهله بالحقيقة فظهر ولمع بمجرد أن أخبروه بالحقائق. فهرع يهرول تجاهها فهبت من مكانها بقوة لم تكن بادية عليها، رفعت ساعداها وهي تبتسم وتتلألأ عيناها بالدموع.

رمى جسده ليغرق في حنايا قلبها وصدرها، إلتقيا وتلامسا بعد طول سنين، عاشتها ثريا معذبة ومثقلة بالآمال التي لم تنقطع عنها، وكان تخوفها من تلك الآمال شديدًا، تخشى أن تنتهي بخبر يهوي بها على الأرض لتودع دنيا الآمال الواهية، فيكفيها أن تعرف أن سعادة كانت في طريقها إليها وضلت طريقها لتشعر بالحزن في لحظة لم تكن فيها حزينة. أما هو فقد رحمه جهله بالحقائق من عذابات الآمال تلك، لم يكن يحيا فقط من أجل يوم يعد فيه له غائب، كما كانت ثريا. فإنَّ الحياة دون انتظار، حتى وإن لم تكن لها معنى، تكن أسعد.

بكى الاثنان بقوة وهما يبتسمان ثم ترك باسل حضن والدته ليدخل في حضن آخر، فتاة لم يراها وهي طفلة ولم تره، أخبروه أنها شقيقته وأحس هو بذلك عندما غمرته بدفء الإخوة الذي لا يختلف كثيرًا عما يلفه هو وميرام. وشعر كأنها ابنته وعليه أن يظلل عليها ويحميها من العالم.

تأثر عمرو وأجهش بالبكاء. ولم يستطع باسل أن يخفف عنه بابتساماته وكلماته، فكف عن محاولاته لتهدئته حينما أخبرته ثريا بصوتها المتهدج المخنوق أنها تعرف سبب بكاؤه.

- اتركه يا باسل... إنه الآن يتذكر والدك.

لم تكد تنهي عبارتها حتى اشتد بكاؤه وسالت الدموع من عينيه لتبلل لحيته، أخفى وجهه بين كفتيه واستدار حيث لا يراه أحد ثم كتم فمه بيدٍ فخرج صوت بكاؤه مخنوقًا كمن يجاهد ليخف من أنينه وهو مريضًا حتى لا تتقطع قلوب أحبته قلقًا عليه. وبيده الأخرى أخذ يمسح دموعه عن وجهه ويفتح عينيه بإبهامه وسبابته لكي يتمكن من الرؤية.

اغرورغت عيون الحاضرين حتى المغيرة. وكان المغيرة يشاهد الأحداث كالغريب وهم يتحدثون ويتعانقون ثم كأنه تذكر أن عليه أن يسلم على أخيه فرفع رأسه ببطئ واستدار ليجده يترك مكانه بقرب عمرو ويتقدم نحوه. وقفا أمام بعضهما وعيناهما تلتمع بالدموع، مهما حصل فالمغيرة أخاه الصغير، تعانقا بصمت وبكاء وابتسم لذلك كل الحاضرون.

نظر باسل إلى عبدالله ورقية فتذكر ميرام فقال مخاطبًا أخاه محافظًا على مكانته وهو لم يزل يشعر أنه غريب:

- أيها الحاكم... أين شقيقتي ميرام؟
- شقيقتك؟!
- نعم... وسأظل آراها شقيقتي.

أشار إلى عبدالله ورقية وقال:

- وهما والداي.

انفرجا ثغرا عبدالله ورقية ثم تذكرا ما كانا يخوفهما. أن توبخهما ثريا عما فعلاه أو يأمر المغيرة بحبسهما. برغم كلمات باسل التي نزلت كالصاعقة على قلب ثريا تبسمت، وقالت لنفسها: لو أنه نكر صنيعهما معه وتخلا عنهما لعرفت أنهما لم يرباه جيدًا وعرفت أنه ابن شقي. وهذا يشفع لهما ويغفر لهما كل ما فعلاه بي.

رد المغيرة وقال:

- إنها في غرفة أميرة. بناء على طلب أميرة عندما أردت أن أبحث لها عن غرفة في القلعة تبيت فيها.

نظر حواليه ثم أردف:

- أو إنكم ظننتم أني سأحبسها في السجون؟!

قال باسل:

- فلينادِيها أحد لتذهب معنا.

شهقت ثريا وقالت قبل أن يتحدث المغيرة:

- تذهب معكم! أستغادرنا ثانيةً يا باسل؟

أجاب باسل بأن قال:

- إمهليني وقتًا يا أمي كي أتأقلم على وضعي الجديد، ثم إنَّ لهما فضلًا كبيرًا عليَّ ويشق على قلبي تركهما بهذه السهولة. كان قد أشار أثناء حديثه عنهما إليهما.

قالت ثريا:

- ونحن؟ والدتك وإخوتك؟ أليس من حقنا أن نراك بيننا؟ لقد حُرمت منك عمرًا يا بني.

أقبل عليها وأمسك بكتفيها الهزيلين وقال:

- بلى يا أمي... بلى، وإنني أتوق للعيش معكم أكثر منكم. فلتتركيني أدبر الأمر كما يريح قلبي، يكفيني عذاب الاختيار. اختيار من سأترك ومن سأعيش بينهم. كلاكما له عليَّ حق وليقدرني الله على إعطاء كل ذي حق حقه.

هزت ثريا رأسها موافقة وبدا ذلك على غير اقتناع وقال المغيرة:

- لا داعي لأن تذهب معكم يا باسل، من الأفضل أن تظل هنا لأنني سوف أتزوجها.

لم يشكل فرقًا لدى المغيرة كون باسل شقيقها أم لا. كل ما شغله هو أن يحظى بها كزوجة. وحتى أن رغبته في الزواج منها حجبت عن قلبه أي شعور بالازدراء من عبدالله ورقية قد يتسلل إليه.

قال باسل بحماس:

- لا يا أيها الحاكم... ليست هذه عاداتنا في الصحراء. إن أردت الزواج منها فعليك أن تزورها هناك... في بيتها وتطلبها منا. وعندها يكن لنا الحق في القبول أو الرفض.

- الرفض؟!

صرخ المغيرة بقوة.

- نعم... هي عاداتنا ويجب أن تصير الأحداث حسب الأصول. كما تربينا عليها.

قفزت سعادتهما به من قلبهما إلى وجهيهما، لقد أثمرت نبتتهما، تربيتهما الجيدة له قد عادت عليهما بالخير. بعودة ميرام سيحفظ لهم كرامتهم لدى كل من يعرفونهم. ثم إن جاء الحاكم أو لم يجئ لا يهم.

_ ٥ _

لا تتوقف الحياة عند معرفة الحقيقة

لم تمس الأحداث الأخيرة مكانتهم في قلبه، لا يزال يشعر من صميم قلبه أنهما والداه وأن ابنتهما شقيقته، لم تضعف محبته لهم. بعدما عادوا لدارهم ومرت بضعة أيام بدا عليه شرود لم يتوصل في بادئ الأمر لسببه. وعندما فهم سر شحوبه وأرقه أخبر اسرته بأنه سيزور عمرو بن ميمون في مدينة الحكيم ليساعده فيما ينتوي فعله. فكروا أنه اشتاق لوالدته وبدأ في اختلاق الحجج فسأله عبدالله وهم جالسون:

- اشتقت لعائلتك الحقيقية يا باسل؟ لم يكن عليك أن تتركهم يا بني، لأني أحبك حقًا أقل لك ذلك... كان من الأفضل أن تظل برفقتهم.

قال باسل بنبرة دافئة:

- أنتم عائلتي يا أبي، ليس شوقي لعائلتي هو ما سيجعلني أزور المدينة... إنه شوقًا آخر.

رفع عبدالله حاجبيه وهو يقول بتعجب:

- شوقًا آخر؟!

قال باسل:

- نعم... أريد أن أتزوج حبيبة ابنة رسلان. وسأعوّل على عمي أبا عادل في ذلك.

ابتسم عبدالله وقال له:

- حسنًا... اذهب غدًا في الصباح.

***

أشرق وجه سليمة عندما فتحت الباب فوجدت الطارق هو باسل، رحبت به وأدخلته على عمرو وعادل. بعد تناول طعام الغداء أفصح باسل إلى عمرو بما يريده، سر عمرو لذلك واصطحبه ليلًا لدار رسلان.

لم يعرف رسلان أيسعد لطلب باسل أم يغتم؟ تذكر كلمات سلامة عندما قال: إنَّ السلطة تفعل بالنفس ما لا تفعله النفس الأمارة بالسوء بصاحبها، أخشى على هذا الفتى من التحول، سنخسر شابًا لطالما ساعدنا بإخلاصه وقوته. كان هذا رأي سلامة في الحكام والسلطة، وباسل أصبح من طبقة الحكام وهذا يجعله يفكر قبل أن يزوجه من ابنته.

كانت ملتصقة بأذنها بالباب تسترق السمع وقلبها يخفق بقوة، لقد مضت أيام وشهور على آخر مرة دلف فيها إلى بيتهم. وقد زرع في قلبها نبتة وتركها بدون رعاية وتجشمت هي همها، ولعت به من يومها ولم تخبر أحد، وإن استطاع قلبها أن يخفي وينكر ما يعتمل فيه لأنكر، لكنه كان حبًا قويًا أقره القلب وصدقه العقل واعترف به، وصمد طوال تلك الأشهر برغم أنها لم تكن تعلم عن معذبها شيئًا. وها هو يعود من جديد ليتكفل بالنبتة ويطمئن قلب صاحبتها. سرحت حبيبة بخيالها لترى نفسها فيما يرى النائم نفسه مع من يحبه في وسط أجواء مفعمة بالسعادة ثم استفاقت بسرعة البرق من حلم اليقظة عندما تذكرت أنه لم يعد جاسر الشاب الفقير المعدم، الذي كان يعتبر أفقر منها هي.

هو الآن باسل الذي ينتمي لفئة الحكام. ثم قالت لنفسها: مم أخاف؟ فإنه الآن في الخارج يطلبني من أبي، لا ينبغي عليَّ القلق... إنه يمتلك زمام أمره وسيقنع الجميع بي.

استبد بحبيبة شعور بالخيبة، ما لبث إحساسها بالسعادة يدلف لقلبها أن خرج على الفور حين سمعت جملة "**أنت السبب في هلاكك**" تدوي في المدينة. وكانت قد سبقتها أصوات الكائن المقززة التي تصدع الرؤوس وتلاها خضم وتهشيم لعظام.

بعدما تناهت لأسماعهم أصوات الكائن هب رسلان وفتح النافذة ليروا الضوء الأخضر ينير سماء الغابة. تنهد وسلان وقال:

- حادثة أخرى، ظلم آخر، لقد قتل أحدهم شخصًا ما.

في تلك اللحظة نسى باسل ما جاء من أجله أو أرجأ سماع الرد على طلبه وقال وهو ينظر من النافذة:

- ألا آن الأوان لوضع حد لما يحدث أيها السادة؟

قال عمرو:

- بلى... ماذا يدور في رأسك يا باسل؟

تنفس باسل بعمق وقال:

- يجب أن نسعى لتحقيق العدل، أن ننهي الناس عن أفعال السوء وذلك سيكون بعدما نحكم بالعدل وليس بالسيف، نجعل أخلاقنا هي من تأمر وتنهي. هي من تسير الناس وتجعلهم ينضبطون في تصرفاتهم وليس الخوف من الحاكم والعقوبة.

قال عمرو وقد ارتسمت على محياه علامات السعادة:

- صدقت... وكيف سيتحقق ذلك؟

قال رسلان:

- أظنه لن يتحقق.

نظر باسل إلى رسلان وقال:

- لا... يجب أن يتحقق وإلا سنظل نحيا تحت رحمة هذا الكائن. هل تثقا في اتزان سلوكه؟ محتمل أن يتبدل في أي وقت ويأخذ في التهام أي شخص. كما أنه لا يليق بنا أن نتركه يخطف الناس، حتى وإن كانوا ظالمون، فبإمكاننا معالجة الأمور بالطريقة التي ترضي أهل الضحايا والجناة.

قال عمرو مؤكدًا على كلامه:

- نعم... بالأخلاق وتحقيق المساواة نستطع استأصال شأفة الظلم وأعمال السوء والجرائم من الوجود، فمن البداهة أن من يجد ما يعتاش عليه ويعلم أنه مثل غيره لا أحد يتميز

عن الآخر بشيء وأن القانون سيسير على الحاكم قبل أقل وأضعف وأفقر واحد في الشعب، لن يحمل نفسه على ارتكاب الجرائم، لما أوزنها على فعل شيء يدينه.

هتف رسلان بابتسامة:

- حسنًا... ما الذي يتوجب علينا فعله؟

أجابه باسل فقال:

- سوف أذهب للمغيرة وأخبره بما قررته وآخذ موافقته وهو لن يعارض بالتأكيد.

قال عمرو:

- وماذا قررت يا باسل.

- أن نحكم بالعدل يا أبا عادل... أن نحكم بالعدل، هذا كل شيء. ووقتها لن يجد ذاك الكائن ما يأكله وسيموت. وأظنه كان صادقًا حين قال أنه لن يقرب إلّا الظالمون.

جاءت وجدان وقالت:

- ألم تبحثوا وتعرفوا من الذي خطفه الكائن وأكله ومن الذي قُتل؟

نظر إليها زوجها بكمد. وقال في نفسه: إنها لن تترك هذه العادة إلى أن تموت، تحشر أنفها في كل شيء.

رد عليها باسل بأن قال:

- معرفتنا بهما لن تفيد في شيء. يجب توفير الوقت للأهم. وكل خبئ سيظهر في آوانه.

بعدما انصرف عمرو وباسل وبخ رسلان زوجته ثم راضاها ثانية. فهو يعلم أنها طيبة القلب وتفعل ما تفعله بسذاجة ودافع من فطرتها، ثم جلسا مع حبيبة يسألاها عن رأيها في باسل. لم تحر جوابًا بلسانها؛ إنما هربت من أسئلتهما لغرفتها وهي سعيدة والحمرة تصبغ وجنتاها. ثم قال رسلان لزوجته:

- جاء نصيب ابنتنا يا وجدان. وليس أي شخص، لا أتحدث عن مكانته. بل إني تمنيته زوجًا لحبيبة مذ عرفته. إنني أحب فيه صدقه ومروءته وإخلاصه لقضيته وحبه للحق

والخير. وإني لمتأكد من لو أن والدكِ بيننا لزوجها له مذ رآه. رحمك الله يا أبا وجدان. كنت نعم الصديق والأب... إنَّ والدكِ كان بمثابة أب لي يا وجدان.

الفصل العاشر

ـ ١ ـ

كيفية الخلاص من الكائن الأخضر؟

عرف باسل أن سعادته التي هي في الطريق لن تكتمل طالما أن ركن في قلبه مصاب بالكدر، طالما أن ما يحدث بين الناس من كراهية وشتات يؤلمه، فقد أصاب الخراب القلوب وأصبحت العقول خاوية إلّا من تفنن في إلحاق الإذى بالغير، لا لشيء سوى أن يضمنوا لذواتهم مستقبلًا آمنًا، حتى وإن كلف ذلك قتل إخوانهم وأقاربهم. سأل باسل نفسه وهو في الطريق للقلعة: وأي مستقبل آمن ينشدون وهم يبتدأوا بناؤه بهدم وتدمير مستقبل غيرهم؟ لقد تفشت الأفات في القلوب والنفوس وطالت العقول لتعجزها عن التفكر والتدبر في شئون الإنسانية، لم تعد هذه الكلمة تخطر لهم على بال... الإنسانية... إلّا قلة قليلة منهم.

انتبه باسل إلى أنه دلف إلى دار رسلان مفعمًا بسعادة لكونه مقبلًا على خطبة حبيبة وخرج منها قلقًا على مستقبله ومستقبل المدينة بعدما سمع صوت الكائن يصدح بجملته المشهورة ليخبر الجميع بأنه قد التهم واحدًا. آمن باسل بأن السعادة إن حضرت وحضر معها شعور بالقلق والخوف فلن يهنأ بها المرء. وهذا ما قاله لأخيه فرد المغيرة:

- أتفق معك، إلى ماذا تلمح؟
- إلى كائن الغابة.
- وماذا عسانا أن نفعل؟

رد باسل:

- يجب القضاء عليه.

- كيف؟

ما خطر ببال المغيرة وقتها هو أن باسل ينتوي دخول الغابة مرة ثانية، فكان يستعد ليقول له لا، لكنه لاذ بالصمت وهو يستمع إليه، فقد أخبره باسل بأن القضاء عليه لن يكن من داخل الغابة، لن يدخلوا الغابة بل سيتخلصوا منه من خارجها. يضيقوا عليه الخناق بأن يكفوا عن أعمال الشر فلن يجد ما يقتات عليه وسيشتد به الجوع ويموت. غير ذلك فهو لن ينتهي. كان المغيرة يهز رأسه مستوعبًا ومتفقًا وانتهى الاثنان من حديثهما متفقان وساعيان للبدء في تنفيذ ما قرراه.

أمر الحاكم راجح بن درغام بهدم السجون ومنصة ساحة المحاكمة، من اليوم لن تكن هناك محاكمات ولن يُسجن أحد، من يخطئ سينتفي خارج المدينة ويُحرم من عائلته مدى الحياة، وإن عاد ورآه أحد فسوف يُقتل في الساحة وأمام الناس. كان رأي باسل هو أن يعيشوا في المدينة كأسرة واحدة، يربطهم رابط الأخوة في الإنسانية ويستشعر كل واحد منهم وجود الله ولا تغيب عن ذهنه صورة الجحيم الذي سيؤول إليه مصيره إن هو أخطأ في حق أخ له.

يسيرون بين الناس بالحب، يكن عملتهم التي يتعاملون بها، من أراد شيئًا عليه أن يقدم حبًا ويصدق فيه بإخلاص. لا يكون هناك مكان للكذب أو النفاق والخيانة، ومن جهة الحاكم سوف يوفر لهم سبل الحياة الكريمة وعليهم هم أن يوفروا لأنفسهم حياة آمنة، أن يصنعوا حياة مطمئنة تكن أيامها رائقة خالية من أي فكرة خبيثة قد تعكرها.

هُدمت السجون الخارجية وأقفلت سجون القلعة وأصبح الجميع أحرار، لقد استشعروا ذلك في قلوبهم حينما رأوا أقفال سجون الساحة تتكسر وأبوابها تُفتح وأسوارها تُهدم، حتى أن منصة المحاكمة أُزيلت وعادت منطقة الساحة خالية من مظاهر السيطرة والسطوة. حينما تجمعت الجموع في الساحة عقب ما صار، حضر المغيرة وعمرو وباسل ورسلان وعادل وتوسطوا الناس فخطب عمرو وقال مبتدئ حديثه بأن سأل:

- ليقل لي أحدكم ما هو شعوره بعدما فرغت الساحة من السجون ومنصة المحاكمة؟ إنَّ أقدمكم سنًا يرونها الآن قد عادت لشكلها الأول الذي كانت عليه. سأقول لكم شعوري أنا تجاه ما حدث، قبل هذا اليوم كنت أشعر بحرية كحرية الطير، يرفرف في سماء الله الواسعة كيفما شاء ويحرص على أن يبتعد عن أيدي البشر ليتجنب الحبس في الأقفاص، وما كانت الأقفاص إلّا سجون المدينة وكيف للمرء أن يتجنبها؟ بأن يتجنب أي عمل شر قد يودي به إليه. أما الآن فأحس بالحرية الخالصة التي لا يشوبها شيء غير الخوف عليها، خشية أن أحرم منها وأقع أسيرًا في سجون الحرمان، كيف أشرح لكم ذلك؟ أيها القوم: إنَّ الحرية الحقيقية هي أن تملك زمام أمرك، تتحكم في نفسك وتجاهد أهواءك وتلك هي القوة، على الواحد منا بدءًا من الآن أن يضع نصب عينيه حقيقة أنه سيحرم من الحياة هنا إن هو أخطأ، سينفى خارج مدينته التي فيها أحباؤه، وأظن أن الحياة بعيدًا عمن يحبهم المرء هي موت مؤلم، الآن أعرف ما يتوجب عليَّ فعله كي لا أفارقكم ولا أجعل أحد يفارقني، عليَّ أن أحب الجميع وأحرص على أن تحبونني، وهذا ما ينبغي على كل من يخشى الحياة كالميت أن يفعله، من لا يطيق الفراق والعيش غريبًا في بلاد غريبة عليه بترويض نفسه وحكم جماحها.

سوف تبدأ إصلاحات مكثفة في المدينة، سترمم الديار وتستصلح أراضي زراعية جديدة وستبنى ورشًا أكبر لأعمال الصناعات المختلفة. ها نحن بمعاونة الحاكم وموافقته سنهيء لكم حياة لا مكان فيها للفقر والإهانة أو الشعور بالجور وعليكم أن تهيؤا لأنفسكم ولنا حياة مفعمة بالمحبة والطمأنينة.

بعدما انتهى عمرو من حديثه تقدم المغيرة ووقف بجانبه وقال:

- من الآن أنا لست حاكمًا على أحد، أنا واحدًا من عموم الشعب ولا سلطة في يدي ولا قرار، سيكون القرار والحكم لكم، بالطبع لن ترضوا لخائن أو حاقد أن يعيش بينكم، لن تستطيبوا أن يحيا وسطكم شخص يحمل في قلبه بغض ويظهر في سلوكه،

أنتم من ستقررون كيف ستكون حياتكم، والمخطئ سوف تبعثوا به لخارج المدينة يدبر أمره بعيدًا عنكم. لولا الخوف من أن يحدث هجوم علينا من أي جيش غاصب لكنا أحللنا الجيش وهدمنا القلعة حتى تكتمل لديكم الصورة التي أريدكم أن ترونها، أود أن أوصل إلى أذهانكم فكرة بأنني وجميع رجال البلاط والجيش، ما نحن إلّا رجالًا نعمل لديكم، لخدمة مصالحكم، ندير شؤون حياتكم ونتدبر الكيفية المناسبة لتوفير الأمان والسلام والحياة المنعمة. ستظل القلعة والجيش لإرهاب كل من تسول له نفسه أن يغير علينا. وسنكن داخل مدينتنا شخصًا واحدًا، أمر الجميع هو أمر الفرد. من لديه مطلب أو أمنية يود تحقيقها فليقولها لأبا عادل وسنسعى جاهدين لتحقيقها له.

أخلص المغيرة فيما قاله وصدق، كان شديد الحرص على أن يقضوا على الكائن ولم تكن في طويته وقلبه ذرة نفاق أو كذب فيما قاله، ترك الأمور لأخيه فكان كأنه من يحكم، راح باسل يدور في المدينة يلهب حماس الناس للقضاء على كائن الغابة والأهم هو الإخلاص في الطويات، ألّا يضمر أحد في قلبه شر لأحد. راح يدخل الديار ويحدثهم بابتسامته العذبة ويقبلون به ويرحبون طائرين من السعادة لكونه باسل الذي ظنوه راح ضحية لأعمال أبيه قبل أن يعود له رشده ولكونه شاب شريفًا تسيطر عليه رغبة أن يحقق المساواة بين الناس.

_ ٢ _

نجاح الخطة

مرت شهورًا على ما صار في الساحة والتزم الجميع بما قالوه وخططوا له، تفشى الحب بين الناس وتغلغل، فلم يعد أحد يحتاج لشيء ولا لأحد وعندئذ تلاشى وانتهى تمامًا أي شعور بالبغض والحسد والحقد على أحد، كان التطلع والغبطة تذهب فقط لأصحاب الهمم العالية في إرساء الأمان وبث المحبة في قلوب الناس والسعي لأعمال الخير. كان كل فرد في المدينة يتمنى أن يفعل شيئًا يخدم المصالح العامة بما فيها من إصلاحات وخير.

استمروا على ذلك شهورًا وبدأوا يجدوا صعوبة في سماع أصوات الكائن، في البداية وعندما مر قرابة الشهر ولم تحدث حالة قتل ليلتهم على إثرها الكائن فاعلها، ارتفعت أصواته واشتدت حتى أنها كانت ترعب الأطفال في أحضان أمهاتهم، كان يصرخ ويعوي كأنه بشريًا يتلوى من الجوع والعطش، ثم أخذت أصواته تفتر وتهدأ رويدًا رويدًا حتى قلت حدتها وصارت مثل أنين مسن ملازمه المرض والضعف منذ فترة، فأصبح أنينه ضعيفًا ومستمرًا، كأنه قد بات ضعيفًا وعليلًا فأثر ذلك على قوة صوته. ثم بعد مرور عدة أشعر انقطعت أصواته تمامًا وبدأت الأشجار التي كانت قد تيبست أوراقها تخضر من جديد وأثمرت منها من كانت تثمر قبل ظهوره وشاهدوا لأول مرة منذ فترة طويلة أسراب من الطيور تحلق فوقها وتحط عليها.

وكأن الشمس بالنهار والقمر بالليل كانا لا يحبان الظهور أو يفعلان ذلك على مضض، أشرقت الشمس وغمرت المدينة بأشعة دافئة تبعث في القلوب الطمأنينة والسكينة ولاح القمر في السماء القاتمة خلال لياليهم الحالكة ليحول عتمتهم لنور مستحب يدغدغ القلوب والنفوس. كأن القمر قبل ذلك وفي وجود الكائن كان يكره الاستماع لحكاياهم وشكواهم، صار يشع ويلتمع وكأنه ينادي على الناس ليقبلوا عليه ويسرون إليه بأسرارهم، طال السهر والسمر على

عكس السابق وعلت أصواتهم في جهمة الليل وجلجلت ضحكاتهم في صحون الديار وأمامها وعلى قارعة الطرق، بعدما كانوا يخشون الخروج ليلًا ويحذرون، ليس خوفًا من الكائن غير البشري وإنما خوفًا من البشر أنفسهم، احترازًا من غدر أحدهم بهم.

في ظل تلك الأيام الغنية بالمحبة والرخاء التي يعيشونها والليالي الآمنه التي يقضونها والأبواب مفتحة وكأنه نهار، زحف نحو المدينة عدد من الأسر ليعيشوا في وسطهم بنفس قوانينهم، قبلوا بهم وعاشوا معهم في أمان. صارت مدينة الحكيم أكثر تطورًا وقوةً بفضل أن قلوبهم أصبحت على قلب رجل واحد والمصلحة أصبحت واحدة، لا أحد يتمنى شيئًا لذاته إلا ويتمناه للجميع.

ذات نهار صافٍ دخلوا الغابة ثانية، نفس المجموعة التي دخلتها سابقًا ولكن بدون الخمسون جنديًا وبدون سلاح، تجردوا من سلاحهم لسببين، لمعرفتهم بأنها لن تفيد حتى في حالة هجوم الكائن عليهم والسبب الآخر لشكهم في أنه ما زال حيًا، لقد كانوا يتوقعون بأنه قد مات جوعًا منذ فترة، فكل تلك التغييرات التي حدثت لم تكن لتحدث في وجوده.

بالفعل لم يجدوا له أثر، صحيح أنهم قبل ذلك لم يشاهدوه ولكنهم كانوا قد استدلوا على وجوده بالضوء الأخضر والتحولات الغريبة التي توهموها في السماء وما حدث ليلتها. تجولوا في الغابة التي أصبحت رحبة فسيحة وجميلة حتى أنهم تمنوا وهم يهموا ليخرجوا منها بأن ينتظروا فيها مزيدًا من الوقت، وعزموا الأمر على أن يعودوا لزيارتها على هيئة فسح يروحوا بها على أنفسهم كلما أصابهم هم أو كدر أو شعروا بالاختناق. كانت الغابة في أعينهم أكثر نضارة وإشراقًا وكانها كانت متعبة ومثقلة بالهموم مثلهم.

لم يعد ثمة ما يرهبهم وينكلهم عن فعل الشرور غير الله، هو الشاهد والرقيب والمحاسب، كانت ثقتهم في ذلك تنهاهم عن أعمال السوء والخروج عن الإنسانية التي فُطروا عليها. ومن ثَم صارت أرواحهم أكثر نقاء وعرفوا السعادة عن حق، فلقد تساوت جميع الرؤوس، واستراحوا لفكرة أن الحاكم ورجاله يعملون لخدمتهم وراحتهم. كل ذلك جعلهم لا يفكرون بتاتًا في ارتكاب الجرائم، وإنها لم تكن ترتكب في الغالب إلا بفعل الأطماع أو لإيجاد ما يعتاشون

عليه، فكانت أكثر الآثام ترتكب من أناس ميسورون ويتطلعون للمزيد أو أناس فقراء معدمون ويتطلعون ويبحثون عن وسيلة تجلب لهم ما يسد رمقهم، ولأنهم لم يكونوا يعثروا على وسيلة شريفة، إذ أن الخناق كان ضيقًا عليهم من جهة الحاكم ومعاونيه أو لضعف أجسادهم أو لقلة حيلتهم ومحدودية تفكيرهم أو لجهلهم بالله وعقابه أو لتناسيهم له، فتطرقوا إلى سبل لا تؤدي إلى خير أبدًا، سبل فرعية يسكنها الشيطان فيرحب بهم فيها ويسحبهم خلفه ويريهم كيف سيحققون ما يأملون فيه ثم يتركهم بعد ذلك وقد أكملت أنفسهم رحلة البحث عن الذات، عن الأنا. إنَّ حب الذات إن سكن قلب إنسان جعله عبد له، يفعل كل ما في وسعه في سبيله غير نادم، حتى يفيق من هذيانه وتوهته وقد خسر المحيطين به وخسر رضا الله وخسر ذاته التي جاهد وكابد من أجلها، حتى أن الذات تتخلى عن صاحبها في النهاية، حين تجد نفسها في الجحيم فإنها تتنكر من الجسد ومن صاحبها.

لم تعد في خيالاتهم طموحات لم يحققوها ولم يعودوا منشغلين بأحد أعلى منهم مرتبة أو مالًا فطمرت سعادتهم بذلك وسكينة قلوبهم كل مشاعر الحقد والبغض وأمور الحسد وتدبير الدسائس وافتعال الفتن والمشكلات في أعماق أعماق قلوبهم وأحكمت حبسها.

عمت المدينة سعادة عارمة، الجميع هنأ وبارك من قلبه، وراحت الناس تتحدث عن تلك الليلة على طول أسابيع بعدها، لقد كان يومًا حافلًا بشتى أنواع الفرح، مفعمًا بالبهجة والسرور، شعر شعب مدينة الحكيم بالانبساط والطمأنينة جراء ما اعتمل في قلوبهم تجاه أصحاب الشأن، حالما فرحوا لفرحهم استشعروا طهر ونقاء وصفاء طوياتهم وعرفوا حجم ومقدار براءة عرائكهم، كما أن كانت لآمانيهم بأن تستقر حياة رموز القرية دورًا هامًا في ارتفاع واتمام ذروة سعادتهم. كان من الضروري أن ينال كل منهم ما يتمناه وهذا ما صار، تزوج باسل من حبيبة بعد خطبة لم تطل، فقد كان الجميع في أمس الحاجة لإقامة حفل بأقصى سرعة بعد خلاصهم من الكائن، كما أن قلوبهم كانت تتوق لأن تنتشي فرحًا لتستكين ويهدأ قلقها، وانتهز المغيرة الفرصة وتزوج من ميرام في نفس الليلة بعدما كان قد ذهب لدارها وطلبها من والداها ومن باسل. وكان ذلك

بعد خطبة باسل من حبيبة بأيام. ولم تكن أميرة أو عادل أقل احتياجًا منهم لبعضهما، فأقيم إحتفالًا عظيمًا في الساحة بعيدًا عن القلعة وأسوارها، كان حجم السعادة كبيرًا على أن يضبط ويحجز بين جدران، لم يكن ليسع سعادتهم فناء مطوق بأسوار، فخرجوا ليتمتعوا ويروحوا عن قلوبهم في الهواء حيث السماء التي يرونها والهواء النقي والامتداد البعيد على مرمى البصر لا يقطع نظر الناظر بوابة أو بناء.

_ ٣ _

الرجل الغريب

ما حدث بعد ما يقارب الشهر على حفل الزواج الجماعي عكر صفوهم، ملأ الصدور بالكدر وكسى الوجوه بالعبوس والاضطراب، كأن من فعل ذلك مأجور ليبدد فرحتهم ويقلق راحتهم. هذا وقد بدا للجميع في ذاك اليوم أن السعادة في الغالب لا تدوم للنهاية، بل لا تستمر طويلًا، ما إن تدلف للقلوب –وقبل أن تستقر– حتى تنتزع بفعل آياد تكره أن ترى من حولها سعداء، حالما تأتي السعادة يلحق بها ما يبددها، وكأن القلوب تعلم ذلك مسبقًا، فيستشعر المرء الحزن في قلبه وهو في أوج سعادته فتُرى الوجوه شاردة مهمومة وإن سُئلت عن سر ذلك لقالت: لا شيء. وهي حقًا لا تعلم لماذا لم تستطع أن تشعر بالسعادة كاملة. يبدو أن القلق والخوف من زوال هذه السعادة يضعفا حتى الذكاء لدى المرء فيجعلاه لا يفهم سر حزنه الذي يخالط سعادته، لا يعرف أيبتسم ويتقافز فرحًا حينها أم يحزن بسبب ما يخالجه ويعتريه من إحساس القلق.

خلال الحفل وعلى طول اليوم والليلة كانت العيون تتجه بأنظارها صوب الغابة، كأن الناس كانت تتوقع أو تنتظر ظهور الكائن بأن يعلن عن وجوده الضوء الأخضر الذي انقطع منذ مدة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث وبعدما مر ما يقارب الشهر حدث شيئًا جعل العيون تتسع لتمعن النظر في سماء الغابة من جديد والآذان تصغى بترقب لسماع أصوات من ناحيتها. فقد قُتلت نفسًا، كتم رجلًا غريبًا أنفاس واحد من أبناء شعب مدينة الحكيم حتى قتله. وكان هذا الغريب قد أتى للمدينة يوم الحفل وظل بها بنية أن يجمع ما يقدر على جمعه من أخشاب وتقدر عربته التي يجراها حصانان على حمله، بعدما استأذن في ذلك عمرو بن ميمون.

كان ذلك الرجل المتوسط في العمر يريد أن يعد لقريته بأكبر عدد من الأخشاب ليبيعها قبل أن تأتي التجار وتبيع لأصحاب الورش، فيجني بذلك ربحًا وفيرًا كما ظن، لقد كان يستحق أن يُجازى عن عمله وكدّه بأن يتحقق له ما سعى إليه لكنه كان جشعًا زيادة ولم يكن قنوعًا أبدًا. وأبدًا لن ينجو من الجشع أحد، لا بد له ألّا يفرح ما دام قلبه قد سكنته آفة كتلك. مكث في المدينة ثلاثة أيام حل خلالها ضيفًا على أحد المتطوعين لذلك، وكان هذا المتطوع رجلًا هرمًا يعيش مع ولده الوحيد بعد وفاة زوجته.

كان الرجل يخرج قبل شروق الشمس ويأخذ مسلكه نحو الغابة، فيمكث فيها ساعات يقم خلالها بجمع الأخشاب ويأتي بها على عربته لدار المتطوع، يستريح ويهرب من حرارة الشمس ثم يعود يكرر فعلته قرب نهاية الأصيل عندما تخف حرارة الشمس ثم يعود للدار ثانيةً عندما يعلن الليل عن قدومه ويبدأ هو في تدقيق النظر في الأشجار والأشياء التي تبدأ في الاختفاء شيئًا فشيئًا بفعل الظلام.

كانت الأمور تسير كما خطط لها، فقد كان قد عزم أمره على ألّا يزيد عن ثلاثة أيام. لكنه حسم أمره والفضل يُنسب لأطماعه وتطلعاته على المكوث ليوم رابع. وفي نهاية اليوم الثالث وقبل أن ينام سمع الرجل الهرم يحدث ولده، استرق السمع فالتقطت أذنه كلمات حول مال ما هو إلّا تجميعة العمر كما قال عنه الرجل، كان يخبر ولده عن مكانه ويشرح له كيف جمعه ولماذا خبئه إلى الآن ولم يطلعه عليه من قبل فيتصرف فيه فتتعدل حالهم وتتغير للأفضل.

اقترب الرجل من الباب ليسمع بوضوح، عرف أن المال بداخل الغرفة التي ينام فيها العجوز وليس مخبأ بطريقة يقل عنها المرء –إن هو وجده– أنه وجد كنز مخبئًا أو مدفونًا في الأرض، بل كان في مكان عاديًا جعل حافظته مرئية لكنه مع ذلك لم يكن ليُكتشف، ربما لعادية الأمر، لأن الحافظة التي تحوي المال وهي عبارة عن خرقة قديمة مصرورة تظهر كأنها تحوي خرق مثلها بداخلها أو شيئًا ليس له قيمة كانت موضوعة فوق كنبة قديمة متهالكة مغبرة، كانت هذه الكنبة تظهر مهملة ومهجورة إلّا من أشياء وضعت عليها، مثل الخرقة المصرورة وخرق أخرى

وقصاصات من أسمال بالية وبعض الحاجيات الخاصة بالرجل الهرم وملابس قديمة ورثة ومهترئة، فكان من المستحيل أن يفكر الجالس في الغرفة في أن يجلس عليها، فضلًا عن مس تلك الخرق البالية، دون أن يصاب بالغثيان.

لم يفكر الرجل الغريب طويلًا ولم يجادل نفسه في الأمر فلم يجد صعوبة في أن يفتح باب غرفته التي كان يبيت فيها ويخرج متسللًا ماشيًا على أطراف أصابعه. تأكد من أن باب غرفة الابن مغلق وأكمل سيره إلى أن وصل إلى باب غرفة العجوز، نظر حواليه وأدار مقبض الباب ثم دفعه برفق بعدما شق فيه شقًا لينظر أولًا من خلاله ليرى الرجل نائمًا، دلف للغرفة وأغلق الباب خلفه وراح يسير بحذر شديد وهو يخطو خطوات متقاربة ويحرص على ألّا يصطدم بشيء يجعل الرجل يشعر به، لكنه رغم ذلك شعر به، لأنه لم يكن نائمًا وإنما كان يصطنع ذلك. فقد كان العجوز ينتظره، يتوقع أنه سيتسحب ليسرق الصرة التي أوهمه العجوز وولده أن بها مال.

كانت في الحقيقة محشوة بخرق وزائدات من القماش ليست لها أدنى أهمية. وكان كل ذلك شبه اختبار لذلك الغريب الذي مكث في دارهما لثلاثة أيام، فكر الرجل في أن يستدرجه عندما ظن وأحس بأنه يتنصت عليهما، فاصطنع الرجل أنه يسر لولده بسر عظيم وكان ذلك بعدما فكرا وتوصلا للطريقة التي سيوقعاه بها في شر أعماله. بعد أن أمسك الرجل الغريب بالصرة وحملها بين يديه وسار صوب باب الغرفة بعدما ألقى نظرة خاطفة على العجوز. وقبل أن يضع يده على مقبض الباب استدار ثانية ونظر للعجوز، كان يسمع أنفاسه تتزايد وشعر أنه سيستفيق أو استفاق فعلًا أو أنه لم يكن نائمًا من الأساس، توقف ونظر للرجل فوجد عيناه مفتوحتان تنظران له، شهق الرجل وكتم الشهقة بيدٍ وأفلت الصرة من يده الأخرى، فأغلق العجوز عيناه ثانية ليوهمه أنه لا يزال نائم، عندئذ اقترب منه ووقف عند رأسه ينظر إليه، قال العجوز بين نفسه: دائمًا يذهب الخائف من شيء ما إلى ذلك الشيء بعدما يستبد به الشعور بالخوف منه، لا أدري لماذا يحدث ذلك؟ الأولى أن يهرب منه لا أن يذهب إليه بقدميه، غالبًا

تسير الأمور الغامضة نحو اكتشافها من تلقاء نفسها، فتصير واضحة وضوح الشمس، لكن الأمر يحتاج إلى انتباه وتوقع، إنّ توقع المرء شيئًا غالبًا يحدث كما توقعه وظنه، فقط عليه أن يتوقع وسيكتشف ويعرف الكثير من المبهمات. وقف الغريب لحظات يتأمل العجوز وينتظر حركة منه، كأن يفتح عينيه مثلًا كي يعرف هل الغريب ذهب أم لا؟ فقد كان الغريب متأكدًا من أنه مستيقظًا وقد شاهد كل شيء، لكنه لم يفكر أبدًا ولا حتى مجرد أن يظن ظنًا بعيدًا أنه من دبر وخطط لاستدراجه وأن ما في الصرة ليس مالًا.

فتح العجوز عينيه ببطئ ليرى الرجل الغريب واقفًا عند رأسه وفي يده بعضًا من الخرق البالية، قبل أن يصرخ باغته الرجل وبادر بكتم أنفاسه بتلك الخرق التي في يده اليمنى وظل يضغط بقوة والرجل يحملق فيه ويهز رأسه محاولًا أن يفلت منه لكنه لم يستطع، ولم يفكر في استخدام يديه لأن الغريب كان قد كتفهما بيده اليسرى من عند المعصمين فشل حركتهما تمامًا.

بعدما انقطعت أنفاس العجوز وتأكد الرجل من أنه قد قتله، استدار وهم بالخروج مسرعًا، كان في عجلة من أمره بشكل جعله يصطدم في أشياء كثيرة أثناء سيره، لقد كان مضطربًا وقلبه يخفق بقوة بعدما قتل الرجل وهذا كان له تأثير قوي على حركته فلم يستطع ضبط نسق خطواته. تفاجأ بالشاب ابن الرجل الهرم يقف في صحن الدار ومعه بعض الرجال الأشداء، وقف مشدوهًا لا يعرف ماذا يفعل، عرف أن نهايته أوشكت وفي تلك اللحظة بعينها، عندما ظن إنه سينتهي شعر بقوة تسري في بدنه، أراد أن يقاوم ويهرب لكنهم كانوا أقوى وأكثر وأمسكوا به.

بعدما أمسكوا به ابتسم الشاب وهو يظن أن خطتهما سارت كما خططا لها، وأن والده لا يزال حيًا في الداخل وأن الغريب لم يكتشف مخططهما وأن والده قد أدى دور النائم كما ينبغي.

كان قد خرج ليجلب بعض أصدقاءه ليقبضوا على الغريب بعدما رآه يدلف لغرفة والده. وكان قد أبرم اتفاقًا مسبقًا مع أصدقاءه على فعل ذلك.

تركه الشاب في قبضة آياديهم وذهب ليتفقد أحوال والده فصرخ من داخل غرفة والده قبل أن يخرج منها مسرعًا وهو يصيح بأعلى صوته:

- قتل أبي... قتل أبي.

لم يتمالك الشاب نفسه وسقط على الأرض مغشيًا عليه، بعدما أيقظه أحدهم ذهبوا جميعًا إلى دار عمرو بن ميمون. وكان ذلك في جهمة الليل.

تلبط عمرو في أمره وسأل: ماذا أفعل حيال ما حدث؟ لم تعد هناك لجنة محاكمة ولا منصة من الأساس. فمنذ دعوتهم للناس بالتحضر في الأفعال والأقوال وأخلاقهم تحسنت وصاروا أكثر تحابًا وتراحمًا فيما بينهم. واتفقوا على أن من يخطئ سينفى إلى خارج المدينة يدبر أمره بعيدًا عنهم. ولكن هذا الغريب الذي سقط عليهم كالقضاء كيف سيعاقبونه؟ إنَّ قانونهم الذي سنوه إن طبقوه عليه فسيقوموا بخدمته، إنَّ الأمر الوحيد الذي يأمله الآن هو أن يترك ليذهب لحال سبيله.

قضى عمرو ليلته مؤرقًا يفكر، ولم يكن حاله وحده، بل إنَّ باسل فكر كثيرًا في الأمر إلى أن توصل لعقاب ظنه الأقوى دون التطرق لعقاب الإعدام شنقًا ومن ثم الانحراف عن قوانينهم الجديدة التي ينتوون الإستمرار عليها. فنام وقد عقد العزم على أن يخبر عمرو وأخيه عنه في الصباح.

بعد تشاور عمرو وباسل في تلك الليلة التي ألقي فيها القبض على الغريب وذهبوا به لدار عمرو توصلا الاثنان لحل مؤقت لكي ينام الجميع حتى الصباح، وهو أن يزجوا به في أحد سجون القلعة بعد فتحه مجددًا بعد أخذ الإذن من الحاكم إلى أن ينبلج الصبح ويفكروا في طريقة يعاقبونه بها.

تم الأمر وسُجن الرجل الغريب وعاد كلٌ إلى داره. حينما عاد عمرو ظل يقلب الأمور ويفكر وهو يقول لنفسه:

- كانت نية الرجل الغريب سليمة معافية من آفات النفس ونظيفة من المكر إلى أن تلوثت نياتهما فتلوثت هي الأخرى. لو لم يفكرا في الإيقاع به أو اختباره كما فعلا لما كان -كما أتصور- فعل ذلك. لم يكن ليتصرف بشيطانية ويدخل لسرقة ما أوهماه بأنه مال، يريدان أن يغرياه ولا يريدان منه أن يغتري! كيف يعقل ذلك؟ ولكنه الله وحده من يعلم بالنيات... ربما كانت طويته خبيثة منذ البدء. وقد جاء إلى مدينتنا بغاية أخرى غير ما أخبرنا عنها. ولكن ما أنا واثق منه، أنه لم يكن ليقتل أحدًا لو أنهما لم يفعلا ما فعلاه، ها هو العجوز -ولا شماتة في ذلك- قد نال عقابه، عقاب سوء ظنه بالرجل الغريب... لكنه عقاب قاس بعض الشيء.

في الأخير تمكن عمرو من النوم لساعات قلائل كانت قد تبقت على شروق الشمس. وفي الصباح ذهب بصحبة عادل ورسلان إلى القلعة. كان عادل لا يزال في دار ميمون حتى بعد زواجه من الأميرة التي فضلت العيش معه أينما حل ورفضت كل ما قاله المغيرة من أقوال قال عنها أنها نصائح، فعقب زواجها من عادل ظن الجميع بأنها ستظل في القلعة وأن عادل سوف يقيم معها، لكن عادل كان قد حسم الأمر بين نفسه ثم بينه وبين عائلته ثم معها.

حتى اقتنعت ولم يحتاج عادل لوقت طويل كي يقنعها، بل كل ما قاله هي جملة واحدة: "إنَّ دار زوجك هي دارِكِ يا أميرة، لكن دارِكِ ليست داري" وعليها وافقته أميرة دونما الاستزادة من الإيضاحات أو التفسيرات، فقد فهمت أنه هو الرجل الذي يتوجب عليه أن يعيل عائلته ويسكنها ويطعمها ويكسيها مما يتوفر عليه، كما يسكن ويأكل ويلبس، ذهبت معه بعد نقاشات محتدة مع المغيرة، أما والدتها فقد راق لها الأمر لكنه شق عليها واستصعبته حينما خطر ببالها أن ابنتها ستتركها. فإن أي أم تتمنى السعادة لابنتها -الفتيات بالذات- دونما أن تبتعد عنها. الأمهات يحببن جدًا وبإفراط في التمني أن تتزوج بناتهن ولكن لا يفارقوهن مع ذلك.

أكره ما يكرهنه هو أن تتزوج بناتهن بعيدًا عنهن. ما سهل من وطأة الأمر وجعلها توافق هو أن دار ميمون لا تبعد كثيرًا عن القلعة. وهنا قالت ثريا: كان الله في عون أم تزوج ابنة لها في بلاد بعيدة.

وافقت أميرة راضية كل الرضا بحالها الجديدة وسعت بكل طاقاتها نحو التأقلم على وضعها كزوجة لرجل محارب تحبه وعلى حياتها الجديدة في دار ميمون والتي تختلف كلية عن حياتها السابقة في القلعة.

أما باسل فقد مكث في القلعة بصحبة زوجته حبيبة، بنية تعويض والدته عن سنين الفراق وجعلها تكف عن طلبها ذلك منه كلما زارها وتكف عينيها عن الرقرقة كلما رأته، فقد شق عليه أن يراها حزينة، كان يعلم أن سعادتها لن تكتمل إلّا في حالة وجوده معها. وكان هذا تغييرًا جزريًا في حياة حبيبة إلاّ أنها استمرت على نسق ما كانت تحيا عليه من قبل ولم يختلف هو عنها كثيرًا، إذ أن حياته كانت أشقى من حياتها، فالصحراء لا تزال في قلبه وأثرها وأثر الشمس على جلده.

هذا كان تعويضًا لثريا وعزاء لها على مغادرة أميرة للقلعة، كما كان أيضًا سبب في كبت غيظ المغيرة الذي استبد به جراء رفض أميرة الإذعان لنصائحه بالبقاء.

بعدما غادرت ميرام دار والداها مع زوجها الحاكم وغادر باسل أيضًا فكر باسل في أن يحضرهما للعيش معهم في القلعة، فعرض عليهما الأمر لكنهما لم يوافقا وقالا: سوف نأتي لزيارتكما كلما عنّ لنا ذلك وأنتما لا تتأخرا علينا أيضًا في الزيارة.

قضى الرجل الغريب ليلته قابعًا في سجن القلعة إلى أن فُتح الباب ودخل عليه ثلاثة حراس أشداء واصطحبوه إلى الساحة حيث تجمعت الناس.

دار المنادي في المدينة يخبرهم بأن شبه محاكمة ستقام في الساحة وعلى الجميع أن يذهب إلى هناك حتى يكن على دراية مباشرة بما قرروه من عقاب في حق الغريب الذي قتل واحدًا منهم.

كان باسل قد توصل لعقاب بعد تفكير عميق وأخبر عمرو وأخيه به. فقرروا أن يعلنوا ذلك على الجميع ويروا ماذا سيقولون، فإنهم لن يفرضوا عليهم ما رأوه أنه الصواب وأيضًا لا يريدون إهمال ونسيان قوانينهم التي عاشوا عليها لشهور بعد موت الكائن.

امتلأت أرض الساحة الفسيحة بأطياف الشعب المختلفة واستقر عمرو على ظهر حصانه حتى يكون مرئيًا للجميع وعمل على أن يكون مسموعًا بأن رفع صوته وقال:

- لقد اقترح الأمير باسل أن نُبقي على هذا الرجل هنا.

أشار إلى الرجل الذي كان واقفًا أمام الجموع ومكبلًا بسلاسل حديدية ضخمة من يديه وقدميه وتنتهي في أيدي جنديان.

لم تفهم الناس ما المقصود بكلمة هنا وقبل أن يستفسر أحدهم، أردف عمرو:

- رأى الأمير باسل أن أقسى وأشد عقاب له أن ننفيه نحن عن أرضه التي جاء منها. أليس هذا هو قانونا، من يخطئ يُنفى؟ وها نحن نلتزم بقانونا، يبقى في أرضنا ونتركه يدبر أمره دون أن يساعده أحد، أليس هو قتل من أجل المال والأطماع؟ فليغتني إذًا إن تسنى له ذلك. وستفرض عليه حراسة شديدة تكن خلالها فكرة هروبه من أرضنا مستحيلة، وأن الانتحار... إن هو فكر في ذلك، سيكون أسهل من هروبه.

بدا العقاب مناسبًا للناس، لكن بعضهم فضل الإعدام، أن يستثنوا هذا الرجل من قانونهم، فإنه غريب وتركه هكذا في وسطهم قد يجعله يؤذي أناس آخرون. إلّا أن ما صار في النهاية أن بقى الرجل في أرضهم يعامل معاملة وضيعة. وهذا إن عُومل من الأساس، فكانوا ينظرون إليه كمسخ قذر أو حيوان مقزز، مما جعله يتمنى لو أن تنخسف به الأرض وتؤيه بدلًا من أن يؤوه هم في بلادهم.

بعد تلك الواقعة انتظر الجميع وآياديهم على قلوبهم، مولد كائن جديد. كانوا يعتقدون أن كائن آخر سوف يظهر بنفس الطريقة التي خرج بها الكائن الذي مات وبنفس ذات الشكل والخصائص، فقد قال عمرو حينها:

- من الممكن أن يأتينا الشر من الخارج على هيئة رجل غريب يندس وسطنا ويأخذنا بذنب غيرنا، فقد إريقت الدماء من جديد وحدث ظلم.

إلّا أن الأوضاع ظلت كما هي، والغابة منعشة وآمنة، حتى أنهم دخلوها ليتأكدوا من أنها خالية من أي كائن أخضر قد يكن فيها فلم يجدوا. فاستراحوا وفسر عمرو الأمر على أن الرجل غريبًا عنهم. وهذا هو سبب عدم ظهور كائن جديد، ولربما لا يعرف شيئًا عن حياتهم وما حدث في بلادهم في السنوات السابقة. قال عمرو مخاطبًا رسلان:

- لأن توبتنا كانت صادقة يا أبا حبيبة ونياتنا نحو الإصلاح كانت جادة فرحمنا الله من شر كائن جديد، لم يعاقبنا بآخر ينغص علينا حياتنا، وخوف الناس من ظهور واحد جديد يفسد ما وصلوا إليه من محبة ووِئام وتواد هو السبب... أعتقد اعتقادًا جازمًا أن ما أقله لك هو السبب. يا أبا حبيبة... الله رحيم بالرحماء ورحيم بالقساة أيضًا، فما بالك لو أن الجميع أصبحوا رحماء فيما بينهم؟ تُرى كيف سيعاملهم الله وينظر إليهم؟ إنَّ الله رحيمًا يحب الرحمة والرحماء، يحب أن يرى عباده متسامحين ومتآخين، لا يظلم بعضهم بعضًا. ولتتخيل معي ماذا سيفعل الله بعباد يتعاملون فيما بينهم بطويات صافية مخلصة؟ فإنه بدون شك... سيعفوا عنهم ويسدد خطاهم ويرزقهم، نعم سيرزقهم ويحبهم وهذا هو الفضل العظيم والمنة الجمة التي لا يضاهيها أي شيء في الوجود. أن يحب الخالق خلقه؟ آه... يا ربي... آه يا ربي لو أحببتني كما أحبك آه... أتمنى من صميم قلبي وأضلعي أن تستمر حالنا هكذا. لكن الله وحده من يدري ما تخبئه لنا الأيام بين جنباتها. أخشى ما أخشاه أن تتغير النفوس ونعود نجور ونظلم ونبغي في الأرض ونرتكب الآثام. عندها لن ينقذنا من غضب الله ناقذ، فلتلطف بنا يا رب... وأنت اللطيف الخبير، تخبر وتعلم كم نحن ضعفاء وجاهلون بك وبعظمتك وعقابك. ونسايون... نعم نحن نسايون وطموحين في هذه الدنيا الفانية التي لا تساوي شيئًا إلى أبعد حدود الطموح.

_ ٤ _

خير الأمور الوسط

زاولت الناس أعمالها بشكل طبيعي، وتابعوا حياتهم على ما كانوا قد عاهدوا عمرو وباسل عليه، كان عمرو وباسل رمزين للنضال والاستقامة، شخصان يقدمان جل ما يمتلكان بنقاء سريرة ولا يوفران جهدًا في تقديم مساعدات لمن في حاجة إليها، ليس تطلعًا إلى الإحكام على قبضة حكم أو إحراز منصب أو بلوغ ثروات، بل حبًا للخير، سعيًا لأن تحيا الناس من حولهما حياة أكثر إنسانية. وإنَّ استطاعا أن يبلغا العالم وينشرا أهدافهما النبيلة في أرباض الأرض ما عسفا عن ذلك وما أصابهما خمول أو قنوط.

ظلت مدينة الحكيم تعيش شهورًا غاية في الإنسانية، لا يوجد بينهم فقير معدم أو قويًا متجبر أو طاغية ظالم، تساوت الرؤوس وانحنت الرقاب لتحيي بعضها بتودد لا يرجون منه إلّا مراضاة الله ثم بعضهم، لا ينشدون تحقيق مصلحة خاصة من ذلك، ساعين لأن تستمر حياتهم الهادئة الهانئة تلك للأبد.

وبعد مرور ما يقارب العام بدأوا يشعرون برتابة الحياة التي يحيونها، لا جديد يذكر. نفس ذات الأعمال اليومية مع تغيير طفيف قد يصيبه بعضهم ولا يصل إليه الآخرون. حتى أن الحال وصل بهم إلى أنهم تعجبوا لكونهم يعيشون بتلك الكيفية المفعمة بالحب، كانت تلك الكلمة تقال كثيرًا، فلان يحبك جدًا، تعامل بحب، حب الجميع وإن كرهت اكره بحب أيضًا! ليس إفراطهم في الحب هو ما جعلهم يسأمون منه؛ إنما لاعتيادهم عليه، مرت أشهر عدة وهم متحابين ومتآخين لدرجة وصلوا معها إلى أن بعضهم اشتاق لحياته القديمة، حيث كان بإمكانه أن يبغض غيره ويكيد له المكايد ومن ثم يشعر بالظفر عليه ويتطرق للضحك على ما أصابه، ثم وهذا جائز أن يؤنبه ضميره جراء ما فعله وضمره في صدره لذاك الشخص فيشعر بنذالته

ويفعل ما بوسعه لتوصيل حبل الود معه ثانية وطلب غفرانه. بحسب اعتقادهم كان لحياتهم القديمة معنى، أما هذه التي عنوانها وفحواها الحب فهي رتيبة وليست مثيرة. حتى أن معظمهم، في بعض الأوقات، شبهها بحياة أهل القبور، لا يؤذي أحد منهم غيره ويقيمون إلى جانب بعضهم بهدوء.

مع استمرار تفكير الكثير منهم في طريقة حياتهم، شعروا ببوادر ضجر تنزرع في قلوبهم. ولم تطل الأيام وبدأ ذلك الضجر والسأم يرتسم على وجوههم، كان يقابل أحدهم الآخر بوجه غير ذاك الوجه الذي عايشه لأكثر من عام، يلاقيه بوجه عابس غير ذاك المشرق والصبوح، كأنه يسعى لأن يوصل إليه رسالة محتواها أنا لا أحبك، لاعتيادهم على كلمة الحب، كانوا يستخدمونها حتى في الكره، فقد حدث أن قال أحد الرجال لآخر في جلسة سمر: أنا لا أحبك يا أخي. لم يستطع أن ينطق بكلمة الكره، فقد كانت لتكون أسهل وأكثر إيضاحًا للمعاني لو قال: أنا أكرهك. حتى أنه لم يكن ليحتاج لأحرف كثيرة ليعبر عن كرهه له. كما أنه قال: أنا لا أحبك يا أخي. حتى وهو يعبر له عن شعوره بالكره تجاهه قال له: يا أخي. وهذا دليل على أنهم كانوا متآخين بصورة مثالية.

حينما استقبل الرجل عبارة: أنا لا أحبك يا أخي. وجد ذاته، لا إراديًا، يبادره بنفس النبرة المفعمة بالازدراء: وأنا أيضًا، أنا لا أحبك. لقد استخدم حروفًا أكثر ومع ذلك لم يقل يا أخي. وحين سمع الأول رده لم يشعر من صميم قلبه بأنه يكن له ذرة حب، بل كل ما كان في قلبه من حب له قد تبدل لكره، كره يجعله ينتشي فرحًا بمصائب الثاني ويسعى لأن يفسد عليه حياته.

بمجرد أن أمسك أحد الرجلين بتلابيب الآخر وتشاجرا وتبادلا اللكمات والمسبات حتى تحولت الجلسة إلى ما يشبه معركة، حتى أن أحدهم قد أشهر خنجره رافعًا إياه في الهواء ليهدد من هم حوله لكنه أصاب أحدهم في كتفه. ومن حسن الحظ أن الإصابة كانت سطحية لم تؤذي

الرجل كثيرًا لكنها آلمته فجلس على الأرض يمتعض ويعض على أسنانه فجاء أحدهم إليه بضمادة ما هي إلّا خرقة كان قد قصها من رداؤه الذي يرتديه.

انحل مجلسهم بعد تلك الواقعة التي ظهر فيها الدم وذهب كل إلى حال سبيله. وفي اليوم التالي كان الخبر قد شاع وعلم به أغلب سكان المدينة. قليل منهم من تأثر لذلك وشعر بالحزن والأسف. لكن الغالبية العظمى لم تتأثر ولم يبدو على وجوههم الدهشة أو الحزن، بل إنهم تبادلوا القصة مرة ومرتين وأكثر غير مالين، واجدين في ذلك متعة وتسلية، كانت تنقص حياتهم المليئة بالحب تلك الإثارة. وها هم قد شعروا بها وأخذوا يعيدون على مسامع بعضهم القصة مرة تلو الأخرى ويطلقون الضحكات على إثر ذلك. كان من الطبيعي أن يحسوا بالحزن الذي يقطع نياط القلوب حالما يسمعون بأن حادثة كتلك قد وقعت، إلا أن العكس هو ما صار. وهذا قد أثار حيرة عمرو والمحيطون به أمثال إبنه عادل وصديقه رسلان وباسل، حتى المغيرة تضايق وأصابه الإغتمام ثم بعدها تلاشى ذلك الشعور إلى أن أحس بعادية الأمر. خلاف بين اثنين في جلسة سمر أسفر عن وقوع اصطدام تقاتل الآخرون على إثره. كان قد فسر الأمر على أن الآخرون لا بد أنهم قريبون بشكل أو بآخر إلى الرجلين، وأنهم قد افترقوا فرقتين انضمتا للرجلين وتعاديا وتضاربا فيما بينهم.

كانت لا تزال الناس تتعامل بحب وتسعى إليه حتى وإن كانت السرائر لا تحمل بين طياتها طيبة والوجوه واجمة، إلا أنه لم تحدث جرائم من النوع الذي يدان فيه المرء فتجتنبه الناس إلى أن يهديه الله أو يزداد سوء فيقتل أحدهم ثم يسري عليه قانون المدينة بأن يُنفى، هذه الحال لم ترق للحاكم، فمنذ سماعه بتلك الواقعة وهو يقلب الأمر على دفتيه ويفكر كيف سيقوّم اعوجاج الناس من جديد؟ استطاع الحاكم أن يتوصل للطريقة الصائبة والوحيدة كما تصور، انتوى أن يوقف عقوبة النفي فلقد رآها ضعيفة وفي المستقبل القريب لن تنكل أحد عما يود فعله من آثام، فإنها لا تبث الرهبة والرعب في القلوب كما الإعدام. أمر الحاكم بإقامة منصة للمحاكمة من جديد في الساحة وتشكيل لجنة محاكمة، وإعادة بناء السجون وتصميم وتصنيع

آلات التعذيب. وحرص أن يكون ذلك أمام عيون الناس، فكما اعتقد أن ما من شيء بإمكانه السيطرة على الناس غير الخوف، فإن ما يكنونه له من حب ليس بكاف، حتى أنه شك في أنهم لا يزالون يحبونه بعد أن تغيرت أفكارهم وشعروا بأن حياتهم أصبحت روتينية أكثر من اللازم.

كان ذلك بعد واقعة ليلة السمر بأيام، حينما خال الحاكم أن هذه حال جميع سكان المدينة، هكذا تصور، بأن الجميع قد تغيرت أفكارهم ومن ثم سيتغير سلوكهم. فبادر بفرض سيطرته عليهم قبل أن تفلت الأمور من يديه كما ظن.

هذه السلوكيات جميعها لم تلق تشجيعًا لدن عمرو، سواء سلوكيات الحاكم أو الشعب، كان يشك في أن الناس ستستمر في حالة اللامبالاة تلك التي كانوا عليها وتبلد المشاعر واللاشعور بالذنب. إعتقد بأنها حالة طارئة مؤقتة يمرون بها، فاجعة قد نزلت كالصاعقة على القلوب ولسوف تنكشف غمتها عما قريب، حينما تستفيق الناس بسبب حادثة أكبر فظاعة أو عدو يهددهم من الخارج أو أي حدث بإمكانه توحيدهم ثانية على قلب رجل واحد، فلقد كان يرى عمرو أن الحالة المزرية التي وصلوا إليها؛ إنما هي بسبب الرخاء. فعندما وجدوا ما يحتاجون دون عناء منهم أصيبوا –ولا شك في ذلك– بالفتور. فتور في الأجساد والأفكار. كان عمرو يعتقد بأن العمل هو عنوان الاستقامة، العوز يجعل المرء يفكر في كيفية سد احتياجاته، فالحاجة ستضطرهم للعمل وعندئذ لن يتطرقوا لأفكار سلبية. كان يعتقد بأن الشقاء خير معلم ومقوم للبشر. ثم راح يفكر بطريقة مغايرة، عاد يعتقد بأن الحاجة والعوز والشقاء بوجه عام، بإمكانهم تغيير سلوك المرء للأسوء، فإنه وهذا من المتوقع حدوثه بشدة من الممكن إن لم يجد ما ينقصه بالطرق الشرعية فلن يتردد كثيرًا في أن يحصل عليه بطرق شيطانية، فيأخذ يحلل ويشرع كما يحلو له، مثلما يناسب هواه، ومع شعوره بأن ما يقوم به عمل وضيع إلّا أنه يستمر فيه ويجد له ألف حجة وحجة، يلتمس لنفسه أعذار ويبحث عن مبررات تضع سلوكياته التي ينفر منها قلبه في قوالب أكثر جمالية ليستطع قلبه تحملها إلى حين الانتهاء منها. ويأتي دور الضمير آنفًا،

بعدما تكون الفأس قد وقعت في الرأس، فيأخذ ينغص على المرء حياته –وهذا إن كان المرء إنسان، فالغالبية أصبحت تقلد الحيوانات في أفعالها وأفكارها– إلى أن يتوب أو يحدث العكس ويستمر في الفساد بتلذذ.

قرر عمرو أن يتحدث مع الحاكم فقال له:

- إنَّ ما تفعله سيعقد الأمور أكثر.

فكان رد الحاكم:

- ليست أمامي طريقة أخرى، ها أنت ذا ترى الحالة التي وصلوا إليها وتشعر كما أشعر بتبدل أفكارهم.

قال عمرو وهو يهز رأسه نفيًا:

- نعم أشعر وأرى، لكنك في عجلة من أمرك على تغييرهم ثانية، وهذا ليس في صالحنا، دعهم يتصرفون كما يروا أنه الصواب وإن تمادوا في التبلد والانحراف عن الطريق المستقيم، عندها تدخل أنت ونحن معك لن نتركك، لن نسمح لهم بأن يعودوا لأعمال الشر فيظهر لنا كائن جديد.

عندما قال عمرو كائن جديد ابتسم الحاكم ابتسامة جانبية لتصوره أن لن يكون هناك كائن جديد يسكن الغابة، فسخر من كلمات عمرو بين نفسه ولكن ملامحه كشفت ما يفكر فيه لعمرو.

قال عمرو:

- أظنك لا تصدق أو أنك تستبعد ظهور كائن جديد!

أجابه المغيرة بأن قال:

- نعم... لا أعتقد ذلك.

كان هذا الاعتقاد دافعًا يدفع الحاكم ويحثه على أن ينفذ ما يفكر فيه، وهو أن يعود كالسابق ويحكم قبضتيه على زمام الأمور ويرعب كل من يخال نفسه قويًا، يخوف كل من نسى أنه تحت حكم حاكم قوي. وحتى لو اضطر لسجن وتعذيب من يعارض.

يبدو أن الشهور التي عاشوها بدون الكائن قد أثرت على أفكارهم ومعتقداتهم، فمنذ انقطاع الأصوات والتغيير الشامل الذي حدث للغابة وما حولها وهم في حالة من الاطمئنان الذي قد يؤدي إلى ارتكاب أفعال يقال عنها المرء أنها أفعال حمقاء. يبدو أن شعورهم بالأمان قد بث في قلوبهم شعورًا بالشجاعة على القيام بما يريدونه من شر دون تفكير طويل، فإن الشر يحتاج أحيانًا إلى شجاعة، على عكس الخير الذي يحتاج لضمير مستيقظ وقلب حي وطيب وواعذًا دينيًا.

_ ٥ _

العودة لنقطة البداية

تناسبت وتزامنت أفكار الناس مع أفكار الحاكم، فالطرفين تحركوا نحو إصابة هدف التغيير في آن، فكانوا هم جناة على أنفسهم وهو مغرور بالسلطة.

فكرة أنه لن يظهر كائن جديد بعدما وجدت لها حيزًا في قلوبهم أثرت على سلوكياتهم، فباتوا لا يجدون صعوبة في الحصول على ما يريدونه بالطريقة التي يريدونها، بشر، بخير، بصواب أو بخطأ لا يهم. فقد كانوا خلال الشهور المنصرمة يسعون للخير والتحاب كي لا يظهر كائن آخر. وهم الآن وبعدما اعتقدوا أن لن يكون هناك كائن آخر يعاقبهم قد بدأوا يعودون لعهدهم السابق، بأن لا يجدوا في ارتكاب الخطايا إثم وعار أو شعورًا بالخسة.

لقد تبدلت الحال سريعًا بعدما عادت حياتهم إلى شكلها السابق، منصة لإقامة المحاكمات في الساحة وسجون شُيدت بجوارها من جديد وجنود الحاكم منتشرة في أرجاء المدينة، منهم من يراقب ومنهم من يحمي ومنهم من يسير بين الناس بالعنف، يعنّف ويسب ويضرب إن استدعى الأمر بحجة أداء واجبه، مطمئنًا لكون الحاكم في ظهره، فقد أعطى الحاكم أوامره بعدم الرفق بالشعب لأن الرفق –هكذا ظن– يجعلهم يتمردون. وبما أن الأخلاق قد تدنت فلم يكن يستبعد الحاكم أن تحدث ثورة عليه. وها هو قد وجد نفسه حريصًا على أن يدافع عن عرشه ويحمي منصبه. شعرت الناس بفتور في الحماس والحياة ككل، لم يعد عمرو بالقوة السابقة ليخطط ويدبر المسائل، لقد نال الكبر منه عتيًا وأصبح يجد مشقة في ركوب حصانه فيعول على ولده عادل ليساعده على الركوب، بات لا يسهر لوقت متأخر من الليل كما السابق وصار لا يسير على قدميه لمسافات طويلة كما كان يحب أن يفعل، كما أنه كف عن زياراته للقلعة بحكم أنه مستشار الحاكم، إن احتاجه أحد في أمر ما فيعرف أين سيجده، لقد وجد

له مكانًا في أحد المروج القريبة من الغابة يجلس هناك بصحبة رسلان الذي لم تختلف حاله كثيرًا عن صديقه.

الأولاد تزوجوا والأمهات قد كبرن مثل الآباء والبركة في الشباب كما قال عمرو لرسلان حينما سأله: كيف سترجع الأحوال لتلك الأشهر التي قضيناها بإنسانية؟ وكانت كلمات عمرو البركة في الشباب بمثابة توكيل الأمر كله للأبناء وأبناء الأبناء. أحس رسلان بأن عمرو قد سلم أمره ولم يعد في وسعه أو نيته المقاومة، ليس لفتور في الحماسة أو قنوط بعدما كانوا قد وصلوا إلى قمة الحياة المثالية وعرفوا خلالها معاني الإنسانية التي قد فُطروا عليها وإنما لفتور وضعف في الجسد وقصرًا في العمر، فلم يعد في مقدور العمر إعطاء المزيد ليعطي عمرو. كان رسلان متفهمًا ذلك بجملته لأنه قد أصيب بنفس الداء، تجرع الكثير من كأس الحياة ووصل إلى قاعه وبات له قليل من قليل وأوشك على أن يفرغه ويفرغ منه ويتركه يهوي إلى الأرض ويهوي معه. كثرت جلساتهما في مكانهما الذي يجدان السكينة عنده بعيدًا عن صخب الحياة وظنًا بأنهما سيقضيان ما تبقى لهما على تلك الحال بنفس الوضعية، يقضيان نهارهما في دار أحد منهما وقرب نهاية الأصيل يذهبا متساندين إلى بعضهما ويدفعا بأنفسهما دفعًا لبقعتهما المفضلة من الأرض، ففيها تعلو أرواحهما وتهدأ أنفسهما وتستريح الأجساد. لكنهما لا يعرفان أو كانا يعرفان وتصنعا الجهل أو التغاضي، بأن لا راحة على الأرض ما داما أحياء على ظهرها، إن كانا ينشدا الراحة الأبدية فليبحثا عنها في مكان غير الأرض، ربما قد يصل المرء إلى السعادة والسكينة وربما الاطمئنان والراحة، لكنهم يأتوه بشكل مؤقت في أوقات وظروف معينة.

في تلك الليلة نطقا بالحقيقة الأكيدة والثابتة فقال عمرو:

- إنَّ الحياة إنما صنعت لتعذيب الإنسان كي يعرف حجم نفسه وقدراته، فإن عرف وقدَّر وأدرك قبل الموعد الأخير فلسوف ينجو منها وتكن له محطة توصله للحياة المثالية التي يرجوها، حيث النعيم الأبدي والراحة الخالدة بالآخرة، محطة شاقة بعض الشيء

لكن ما بعدها مريح. وإن فضَّل المرء وحرص على جعلها مريحة -وهذا على الأرجح يكن بطرق متشعبة وفرعية ولها طابع الشرور- فلسوف يلاقي كل التعب بعدها.

فرد عليه رسلان بأن قال:

- نعم... معك حق، إنّ الحياة عذابات فوق عذابات، حتى في أوقات السعادة؛ يجد المرء لنفسه سببًا للبكاء، وهذا يكن لسبب بسيط مثل أن يتذكر الموت أو أن تومض في ذهنه فكرة أن سعادته لن تدوم. أو لأي سبب آخر، فكثيرة هي منغصات الحياة وهواجس البشر.

وما كانت كلماتهما تلك لتخرج منهما لو لم يسمعا ما سمعاه، كانت لتظل قابعة في ركنها ولن يخرجاها، صحيح أن العيون كانت تفضح كل شيء، لكن تبقى الاعترافات الأخيرة هي ما توجع القلوب، توجع المتحدث والمستمع في آن واحد، إذا كان المستمع لديه نفس الاعترافات. تناهى لسمعهما أصوات كان قد مر على سماعها لآخر مرة ما يزيد عن عام ونصف، وها هي، تُسمع من جديد بشكل خافت وبما يشبه بكاء طفل صغير وتزداد قوة بمرور الساعات لتصبح بعد أيام أكثر حدة وإزعاج.

صارا يروحان ويجيئان من عند مكانهما المفضل بيأس تام في زمانهما وأمل مرجو في الزمان الآتي الذي لن يحضراه كما كانا يعتقدان. وصارا يرددان كثيرًا رحمك الله يا حكيم والدموع تملأ عيونهما.

بعد مرور ما يقارب الشهر ازدادت حدة الأصوات عن ذي قبل، فكانت صاخبة ومقززة وغلب عليها الخضم والتهشيم وكان ذلك بعد رؤيتهما للضوء الأخضر في ذلك المساء القاسي والقاتم وسماع جملة **أنت السبب في هلاكك** تتردد صداها في أرجاء المدينة.

برغم ضعف أجسادهما وشبه انتظارهما للموت، التقيا في نفس الليلة مع باسل وعادل وعددًا من رجال المدينة الراغبين في التغيير من جديد وانضم إليهم لاحقًا الحاكم المغيرة بن هذام بعدما كان قد فكر طويلًا ولم يجد بد من مشاركتهم. وأشهروا جميعًا سيوفهم في وجه الظلم، باحثين

عن العدل والخير في خبايا أنفسهم أولًا، فإن وجدوهما فلسوف يظهر أثرهما في كل ما يحيط بهم. وقد علموا وآمنوا بأن الظلم لن يزول إلّا عندما تُشفى القلوب بشكل نهائي من أمراضها. وبسبب الدماء التي جلبت اللعنة لذاتها؛ ومن جديد، ظهر كائن يسكن الغابة وعليهم البحث عمن قتَل وقُتل ومعرفة الأسباب ومعالجة الموقف كيفما يتفق، ومن ثَم اتباع نفس الوسيلة السابقة للقضاء على الشيء الذي يسكن الغابة والذي عُرف فيما بعد بالكائن الأخضر نظرًا لضوءه الأخضر الذي كرهوه لأنه إخبار صريح وتصريح واضح بأن هناك قتيلان.. عادوا لنقطة البداية. وإن كانت العودة لشيء ليست حافزًا أو شرطًا لعودته هو لنا.

"تمت"

عن الكاتب

محمد كمال

28سنة

من الشرقية.

للتواصل مع الكاتب

Mobile

01092482501

Gmail

Mo.kamal9000@gmail.com

Facebook

A.j14070

للنشر و التوزيع
#غرّد_للعــالم
٧شارع محمد أبو العطا- محطة العريش- فيصل- الجيزة
هاتف: ٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩ / ٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦
البريد الإلكتروني:tweetpublishing2017@gmail.com
الموقع الرسمي: www.facebook.com/Tweetforpublish